سلسلة المحجة البيضاء

العلامة الكبير الفيض الكاشاني

عقبات الدنيا



رياضة النفس

كسر الشهوتين

ذم المال - ذم الدنيا

الاكل - النكاح

الكسب الحلال والحرام

دار المحجة البيضاء


شبكة الفكر
alfeker.net



سلسلة المحجة البيضاء

عقبات الدنيا

رياضة النفس - كسر الشهوتين - ذم المال - ذم الدنيا -
الأكل - النكاح - الكسب الحلال والحرام

العلامة الكبير الفيض الكاشاني

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ ـــ ٢٠٠٥ م



حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧
E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

الدنيا

مقدمة

الحمد لله الذي عرّف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها، حتى نظروا في شواهدها وآياتها، ووزنوا حسناتها بسيئاتها، فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها، ولا يفي مرجوّها بمخوفها، ولا يسلم طلوعها من كسوفها، ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها وتهلك الراغبين في وصالها، ثم هي فوارة عن طلابها، شحيحة بإقبالها، وإذا أقبلت لم يؤمن شرّها ووبالها.

إن أحسنت ساعة أساءت سنة، وإن أساءت مرّة جعلتها سنة. فتجارة بنيها خاسرة بائرة، وكل متعذّر بها إلى الذلّ مصيره، وكل متكثر بها إلى التحسّر مسيره.

شأنها الهرب من طالبها والطلب لهاربها، من خدمها فاتته، ومن أعرض عنها واتته، لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات، ولا ينفك سرورها عن المنغصات، سلامتها تعقب السقم وشبابها لا يسوق إلا إلى الهرم، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم.

فهي خداعة مكّارة طيارة فوّارة، لا تزال تتزين لطلابها حتى إذا صاروا من أحبابها كشرت عن أنيابها وشوشت عليهم مناظم أسبابها، وكشفت لهم عن مكنون عجائبها فأذاقتهم قواتل سمومها ورشقتهم بصوائب سهامها. فبينما أصحابها منها في سرور وإنعام إذ ولّت عنهم

كأنها أضغاث أحلام، ثم عكّرت عليهم بدواهيها، فطحنتهم طحن الحصيد ووارتهم في أكفانها تحت الحصيد.

إن ملّكت واحداً جميع ما طلعت عليه الشمس جعلته عن قريب حصيداً كأن لم يغن بالأمس. تمني أصحابها سروراً وتعدهم غروراً متى يأملون كثيراً ويبنون قصوراً فتصبح قصورهم قبوراً وجمعهم بوراً وسعيهم هباءً منثوراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

فالدنيا عدوّة لله، وعدوّة لأولياء الله، وعدوّة لأعداء الله. أما عداوتها لله فلأنها قطعت الطريق على عباد الله ولذلك لم ينظر الله إليها مذ خلقها.

وأما عداوتها لأولياء الله فلأنها تزيّنت لهم بزينتها، وعمتهم بزهوتها ونضارتها متى تجرّعوا مرارة الصبر في مقاطعتها.

وأما عداوتها لأعداء الله فلأنها استدرجتهم بمكرها ومكيدتها، واقتنصتهم بشباكها حتى وثقوا بها وعوّلوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها، فاجتنبوا منها حسرة تنقطع دونها الأكباد، ثم حرمتهم عن السعادة أبد الآباد، فهم على فراقها يتحسرون، ومن مكائدها يستغيثون ولا يغاثون بل يقال لهم: إخسأوا فيها ولا تكلمون، أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وإذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها فلا بد أولاً من معرفة حقيقة الدنيا وما الحكمة في خلقها مع عداوتها، وما هي مداخل غرورها وشرورها، فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه. وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب الانشغال بفضولها.

ذم الدنيا في الروايات

خطب علي عليه السلام يوماً فقال في خطبته:

«إعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد الموت، وموقوفون على أعمالكم، ومجزيّون بها، فلا تغرنكم الحياة الدنيا فإنها بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة، فكل ما فيها إلى زوال، وهي بين أهلها دول وسجال، لا تدوم أحوالها، ولن يسلم من شرها نزّالها، بينا أهلها منها في رخاء وسرور إذا هم منها في بلاء وغرور، أحوال مختلفة وتارات متصرّفة. العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة، ترميهم بسهامها، وتقصّمهم بحمامها، وكل حتفه فيها مقدور وحظه منها موفور.

واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعماراً، وأشد منكم بطشاً، وأعمر دياراً وأبعد آثاراً، فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلّبها، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، استبدلوا بالقصور المشيّدة، والستور والنمارق الممهّدة الصخور والأحجار المسنّدة في القبور اللاطئة

الملحدة، فمحلّها مقترب، وساكنها مغترب، بين أهل عمارة موحشين وأهل محلّة متشاغلين، لا يستأنسون بالعمران، ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان، على ما كان بينهم من قرب الجوار ودنوّ الدار بالديار، وكيف يكون بينهم تواصل وقد [طحنهم بكلكله] البِلى[1] وأكلتهم الجنادل والثرى[2]، وأصبحوا بعد الحياة أمواتاً، وبعد غضارة العيش رفاتاً، فجمع بهم الأحباب، وسكنوا التراب، وظعنوا فليس لهم إياب. هيهات هيهات كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون. وكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلى، والوحدة في دار المثوى، وارتهنكم ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع، فكيف بكم لو قُضيت الأمور، وبعثرت القبور، وحصّل ما في الصدور، وأوقفتم للتحصيل بين يديّ الملك الجليل، فطارت القلوب لإشفاقها في سالف الذنوب، وهتكت عنكم الحجب والأستار، وظهرت منكم العيوب والأسرار. هنالك تجزى كل نفس بما كسبت إن الله يقول:

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾.

وقال تعالى:

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه ومتّبعين لأوليائه وأحبائه حتى

---

(١) الكلكل: صدر البعير. البلى: الفناء.

(٢) الجنادل: الحجارة. الثرى: التراب.

تحلّنا وإياكم دار المقامة من فضله إنه حميد مجيد»[١].

وقال علي عليه السلام أيضاً في خطبته:

«عباد الله، أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبّون تركها، المبلية لأجسامكم وإن كنتم تريدون تجديدها، فإنما مثلكم ومثلها كسفر سلكوا طريقاً فكأنهم قد قطعوه، وأمّوا عَلَماً فكأنهم قد بلغوه، وكم عسى المجري[٢] إلى الغاية أن يجري إليها حتى يبلغها! وما عسى أن يكون بقاءُ من له يوم لا يعدوه وطالبٌ حثيثٌ من الموت يحدوه، ومزعج في الدنيا حتى يفارقها غماً! فلا تنافسوا في عزّ الدنيا وفخرها، ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها، ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها، فإن عزها وفخرها إلى انقطاع، وإن زينتها ونعيمها إلى زوال وضرّاءها وبؤسها إلى نفاد وكل مدّة فيها إلى انتهاء، وكل حي فيها إلى فناء. أو ليس لكم في آثار الأولين مزدجر، وفي آبائكم الماضين تبصرة ومُعتبر، إن كنتم تعقلون! أو لم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخلف الباقين لا يبقون! أولستم ترون أهل الدنيا يصبحون ويُمشون على أحوال شتى: فميّت يُبكى، وآخر يُعزّى، وصريع مبتلى، وعائد يعود، وآخر بنفسه يجود، وطالبٌ للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وعلى أثر

(١) نهج البلاغة: رقم ٢٢.

(٢) كم عسى: استفهامية للتحقير. وإجراء الفرس: إرساله وحمله على السير.

الماضين ما يمضي الباقي! ألا فاذكروا هادم اللذات، ومنغّص الشهوات وقاطع الأمنيات عند المساورة (المواثبة) للأعمال القبيحة، واستعينوا الله على أداء واجب حقّه، وما لا يحصى من أعداد نعمه وإحسانه»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«فيما ناجى الله تعالى به موسى عليه السلام: يا موسى لا تركن إلى الدنيا ركون الظالمين وركون من اتخذها أباً وأماً.

يا موسى لو وكلتك إلى نفسك لتنظر لها إذاً لغلب عليك حب الدنيا وزهرتها. يا موسى نافس في الخير أهله واستبقهم إليه فإن الخير كاسمه، واترك من الدنيا ما بك الغنى عنه، ولا تنظر عينك إلى كل مفتون بها وموكل إلى نفسه. واعلم أن كل فتنة بدؤها حب الدنيا. ولا تغبط أحداً بكثرة المال فإن مع كثرة المال تكثر الذنوب لواجب الحقوق، ولا تغبطنّ أحداً برضاء الناس عنه حتى تعلم أن الله راض عنه. ولا تغبطنّ مخلوقاً بطاعة الناس له، فإن طاعة الناس له واتباعهم إياه على غير الحق هلاك له ولمن تبعه»[2].

«فيما وعظ به لقمان ابنه: يا بني إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبقَ ما جمعوا ولم يبقَ من جمعوا له، وإنما أنت عبد مستأجر قد أُمرت بعمل ووعدت عليه أجراً فأوف عملك واستوف أجرك، ولا تكن في

(١) نهج البلاغة: رقم ٩٩.

(٢) الكافي ج٢ ص١٣٥ رقم ٢١.

هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتى سمنت فكان حتفها عند سمنها. ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها وتركتها ولم ترجع إليها آخر الدهر. أخربها ولا تعمرها فإنك لم تؤمر بعمارتها. واعلم أنك ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله تعالى عن أربع: شبابك فيما أبليته، وعمرك فيما أفنيته، ومالك مما اكتسبته وفيما أنفقته. فتأهّب لذلك وأعدّ له جواباً، ولا تأس على ما فاتك من الدنيا، فإن قليل الدنيا لا يدوم بقاؤه وكثيرها لا يؤمن بلاؤه، فخذ حذرك، وجدّ في أمرك، واكشف الغطاء عن وجهك، وتعرّض لمعروف ربّك، وجدّد التوبة في قلبك، واكمش (أسرع) في فراغك قبل أن يقصد قصدك (نحوك) ويقضى قضاؤك ويحال بينك وبين ما تريد»[1].

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض أصحابه يعظه:

«أوصيك ونفسي بتقوى من لا يحلّ معصيته ولا يرجى غيره ولا الغنى إلا به، فإن من اتقى الله تعالى عزّ وقوى وشبع وروي، ورفع عقله عن أهل الدنيا، فبدنه مع أهل الدنيا وقلبه وعقله معاين الآخرة فأطفأ بضوء قلبه ما أبصرت عيناه من حب الدنيا فقذّر حرامها وجانب شبهاتها وأضرّ والله بالحلال الصافي إلا ما لا بد له منه من كسرة يشد بها صلبه وثوب يواري به

(١) الكافي: ج٢ ص١٣٤ رقم ٢٠.

عورته من أغلظ ما يجد وأخشنه، ولم يكن فيما لا بد منه ثقة ولا رجاء فوقعت ثقته ورجاؤه على خالق الأشياء فجدّ واجتهد وأتعب بدنه حتى بدت الأضلاع وغارت العينان فأبدل الله له من ذلك قوّة في بدنه وشدّة في عقله وما ذخر له في الآخرة أكثر، فارفض الدنيا فإن حب الدنيا يعمي ويصم ويبكم ويذل الرقاب، فتدارك ما بقي من عمرك ولا تقل: غداً أو بعد غد، فإنما هلك من كان قبلك بإقامتهم الأماني والتسويف حتى أتاهم أمر الله بغتة وهم غافلون، فنقلوا على أعوادهم إلى قبورهم المظلمة الضيقة وقد أسلمهم الأولاد والأهلون، فانقطع إلى الله بقلب منيب من رفض الدنيا وعزمٍ، ليس فيه انكسار ولا انخزال، أعاننا الله وإياك على طاعته ووفقنا وإياك لمرضاته»[1].

وقال علي بن الحسين عليه السلام:

«إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل واحد منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا. ألا وكونوا من الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، ألا إن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الأرض بساطاً والتراب فراشاً والماء طيباً وقرّضوا من الدنيا تقريضاً. ألا ومن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصائب، ألا إن لله عباداً كمن رأى أهل الجنة في

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٣٦.

الجنة مخلدين وكمن رأى أهل النار في النار معذبين شرورهم مأمونة وقلوبهم محزونة أنفسهم عفيفة وحوائجهم خفيفة، صبروا أياماً قليلة فصاروا بعقبى راحة طويلة، أما الليل فصافون أقدامهم تجري دموعهم على خدودهم وهم يجأرون (يتضرعون) إلى ربهم يسعون في فكاك رقابهم. وأما النهار فحلماء علماء بررة أتقياء كأنهم القداح[1]، قد براهم الخوف من العبادة ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضى ـ وما بالقوم من مرض ـ أم خولِطوا[2] فقد خالط القوم أمر عظيم من ذكر النار وما فيها»[3].

سئل علي بن الحسين عليه السلام:

«أي الأعمال أفضل عند الله تعالى؟ فقال: ما من عمل بعد معرفة الله تعالى ومعرفة رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من بغض الدنيا وإن لذلك شعباً كثيرة وللمعاصي شعباً. فأوّل ما عصي الله به الكبر وهي معصية إبليس حين أبى واستكبر وكان من الكافرين، والحرص وهي معصية آدم وحوّاء حين قال الله تعالى لهما: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وذلك أن أكثر ما يطلب ابن آدم ما لا حاجة به إليه، ثم الحسد وهي معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله، فتشعب من ذلك حب النساء وحب الدنيا وحب

---

(١) القدح: السهم بلا ريش ولا نصل.
(٢) خولط فلان: أي أفسد عقله ـ جنّ.
(٣) الكافي: ج٢ ص١٣١.

الرئاسة وحب الراحة وحب الكلام وحب العلو والثروة، فصرن سبع خصال، فاجتمعن كلهن في حب الدنيا فقال الأنبياء والعلماء بعد معرفة ذلك: حب الدنيا رأس كل خطيئة والدنيا دنياآن دنيا بلاغ ودنيا ملعونة»[١].

وعن جابر قال: دخلت على أبي جعفرعليه السلام فقال:

يا جابر والله إني لمحزون وإني لمشغول القلب، قلت: جعلت فداك وما شغلك وما حزن قلبك؟

فقال: يا جابر إنه من دخل قلبه صافي دين الله، شغل قلبه عما سواه، يا جابر ما الدنيا وما عسى أن تكون الدنيا هل هي إلا طعام أكلته أو ثوب لبسته أو امرأة أصبتها، يا جابر: إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا ببقائهم فيها ولم يأمنوا قدومهم الآخرة. يا جابر: الآخرة دار قرار والدنيا دار فناء وزوال ولكن أهل الدنيا أهل غفلة وكأن المؤمنين هم الفقهاء أهل فكرة وعبرة، لم يصممهم عن ذكر الله تعالى ما سمعوا بآذانهم، ولم يعمهم عن ذكر الله تعالى ما رأوا في الزينة بأعينهم ففازوا بثواب الآخرة كما فازوا بذلك العلم.

واعلم يا جابر أن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة وأكثرهم لك معونة. تذكر فيعينونك وإن نسيت ذكروك، قوّالون بأمر الله قوّامون على أمر الله، قطعوا

(١) الكافي: ج٢ ص١٣٠.

محبتهم بمحبة ربهم ووحشوا الدنيا لطاعة مليكهم، ونظروا إلى الله تعالى وإلى محبته بقلوبهم وعلموا أن ذلك هو المنظور إليه لعظيم شأنه، فأنزل الدنيا كمنزلٍ نزلته ثم ارتحلت عنه، أو كمال وجدته في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء.

إني إنما ضربت لك هذا مثلاً لأنها عند أهل اللبّ والعلم بالله كفيء الظلال، يا جابر فاحفظ ما استرعاك الله من دينه وحكمته ولا تسألن عما لك عنده إلا ما له عند نفسك فإن تكن الدنيا على ما وصفت لك فتحوّل إلى دار المستعتب، فلعمري لربّ حريص على أمر قد شقي به حين أتاه، ولرب كاره لأمر قد سعد به حين أتاه، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إذا أراد الله بعبد خيراً زهّده في الدنيا وفقهه في الدين وبصّره عيوبها، ومن أوتيهنّ فقد أوتي خير الدنيا والآخرة. وقال: لم يطلب أحدٌ الحق بباب أفضل من الزهد في الدنيا وهو ضدّ لما طلب أعداء الحق. قلت: جعلت فداك ممّا ذا؟ قال: من الرغبة فيها، وقال: إلا من صبّار كريم فإنما هي أيام قلائل، ألا إنه حرام عليكم أن تجدوا طعم الإيمان متى تزهدوا في الدنيا»[2].

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٣٣.

(٢) الكافي: ج٢ ص١٣٠.

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام قال:

«مثل الحريص على الدنيا كمثل دودة القزّ كلما ازدادت على نفسها لفاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إذا تخلّى المؤمن من الدنيا سما ووجد حلاوة حب الله وكان عند أهل الدنيا كأنه قد خولط وإنما خالط القوم حلاوة حب الله فلم يشتغلوا بغيره.

وقال عليه السلام: إن القلب إذا صفا ضاقت به الأرض حتى يسمو»[2].

وعن الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«جعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا، ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يجد الرجل حلاوة الإيمان في قلبه حتى لا يبالي من أكل الدنيا»[3].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه وبصّره عيوب الدنيا داءها ودواءها، وأخرجه من الدنيا سالماً إلى دار السلام»[4].

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٣٤.

(٢) الكافي: ج٢ ص١٣٠.

(٣) الكافي: ج٢ ص١٢٨.

(٤) المصدر السابق.

وعنه عليه السلام قال:

«مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله»[1].

وعن الإمام الرضا عليه السلام قال:

«قال عيسى ابن مريم عليه السلام للحواريين: يا بني إسرائيل لا تأسوا على ما فاتكم من الدنيا كما لا يأسى أهل الدنيا على ما فاتهم من دينهم إذا أصابوا دنياهم»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«خرج النبي صلى الله عليه وآله وهو محزون فأتاه ملك ومعه مفاتيح خزائن الأرض فقال: يا محمد هذه مفاتيح خزائن الأرض يقول لك ربك: افتح وخذ منها ما شئت من غير أن تنقص شيئاً عندي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له. فقال له الملك: والذي بعثك بالحق نبياً لقد سمعت هذا الكلام من ملك يقوله في السماء الرابعة حين أعطيت المفاتيح»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله بجدي أسكّ[4] ملقى على مزبلة ميتاً فقال لأصحابه: كم يساوي هذا؟ فقالوا: لعلّه لو كان

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٣٤.
(٢) الكافي: ج٢ ص١٣٧.
(٣) الكافي: ج٢ ص١٢٩.
(٤) أسكّ: مصطلم الأذنين مقطوعهما.

حيّاً لم يساو درهماً، فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده الدنيا أهون على الله من هذا الجدي على أهله»[1].

قال رسول الله ﷺ:

«إن في طلب الدنيا إضراراً بالآخرة، وفي طلب الآخرة إضراراً بالدنيا، فأضروا بالدنيا فإنها أحق بالإضرار»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إنّ في كتاب علي عليه السلام: إنما مثل الدنيا كمثل الحيّة ما ألين مسّها وفي جوفها السمّ الناقع، يحذرها الرجل العاقل ويهوى إليها الصبي الجاهل»[3].

قال النبي ﷺ:

«الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر»[4].

وقال رسول الله ﷺ:

«... لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقي كافرٌ منها شربة ماء»[5].

وقال النبي ﷺ:

«الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها»[6].

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٢٩.
(٢) الكافي: ج٢ ص١٣١.
(٣) الكافي: ج٢ ص١٣٦.
(٤) الترمذي: ج٩ ص١٩٩.
(٥) أخرجه الحاكم: ج٤ ص٣٠٦.
(٦) الترمذي: ج٩ ص١٩٨.

وقال ﷺ:

«حب الدنيا رأس كل خطيئة»[1].

وقال ﷺ:

«يا عجباً كل العجب للمصدّق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور»[2].

وقال ﷺ:

«إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، إن بني إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت تاهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب»[3].

قال نبي الله عيسى عليه السلام:

«يا معشر الحواريين إني قد كببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدي، فإن من خبث الدنيا أن عصي الله فيها، وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تدرك إلا بتركها، ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا، وربَّ شهوة ساعة أورثت أهلها حزناً طويلاً».

وعن النبي ﷺ قال:

«إن الله جلّ ثناؤه لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا، وإنه لم ينظر إليها منذ خلقها»[4].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد.
(٣) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤٠٠٠.
(٤) أخرجه الحاكم.

قال رسول الله ﷺ:

«من أصبح والدنيا أكبر همّه فليس من الله في شيء، وألزم الله قلبه أربع خصال: هما لا ينقطع عنه أبداً، وشغلاً لا يتفرّغ منه أبداً، وفقراً لا ينال غناه أبداً، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً»(١).

وقال ﷺ:

«ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار، فقيل: يا رسول الله أمصلين؟ قال: نعم كانوا يصومون ويصلّون ويأخذون هنّة (هنيْهة) من الليل فإذا عرض لهم من الدنيا شيء وثبوا عليه»(٢).

وقال ﷺ في بعض خطبه:

«المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليتزوّد العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه لهرمه، فإن الدنيا قد خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة، والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار»(٣).

وقال عيسى عليه السلام:

«لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لا

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(٣) الكافي: ج٢ ص٧٠.

يستقيم الماء والنار في إناء واحد».

وقال رسول الله ﷺ:

«هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً؟ ألا إنه من رغب في الدنيا وطال فيها أمله أعمى الله قلبه على قدر ذلك، ومن زهد في الدنيا وقصر أمله فيها أعطاه الله علماً بغير تعلم، وهدى بغير هداية، ألا إنه سيكون بعدي قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبّر، ولا الغنى إلا بالفخر والبخل، ولا المحبة إلا باتباع الهوى، ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذلّ وهو يقدر على العزّ لا يريد بذلك إلا وجه الله أعطاه الله بذلك ثواب خمسين صدّيقاً»[(١)].

قال رسول الله ﷺ:

«إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض، فقيل: ما بركات الأرض؟ فقال: زهرة الدنيا»[(٢)].

وقيل لعيسى عليه السلام علّمنا عملاً واحداً يحبنا الله عليه. قال:

«أبغضوا الدنيا يحببكم الله».

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام:

«يا موسى لا تركنن إلى حب الدنيا فلن تأتيني بكبيرة

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا.

(٢) أخرجه البخاري: ج٨ ص١١٣.

هي أشد عليك منها».

قال رجل لعلي عليه السلام:

«يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا. فقال عليه السلام: أطوّل أو أقصّر؟ فقال: قصّر، فقال عليه السلام: حلالها حساب وحرامها عذاب»[1].

والآيات الواردة في ذم الدنيا كثيرة، وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة، بل هو مقصود بعث الأنبياء عليهم السلام، ولم يبعثوا إلا لذلك.

(١) نهج البلاغة.

صفات الدنيا وميزاتها

١ ـ الزوال:

إن الدنيا سريعة الفناء قريبة الانقضاء، تعد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء. تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرّة وهي سائرة سيراً عنيفاً ومرتحلة ارتحالاً سريعاً. والناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها ولكنه يتحسر عند انقضائها.

إن أحوال الإنسان ثلاثة:

ـ حال لم تكن فيها شيئاً وهي ما قبل وجودك إلى الأزل.

ـ وحالة لا تكون فيها مشاهداً للدنيا وهي ما بعد موتك إلى الأبد.

ـ وحالة متوسطة بين الأبد والأزل. وهي أيام حياتك في الدنيا.

فانظر إلى مقدار طولها وانسبه إلى طرفي الأزل والأبد حتى تعلم أنه أقل من منزل قصير في سفر طويل. ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فقال (استراح) تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها»[1].

---

(١) مجمع الزوائد: ج١٠ ص٣٢٦.

ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ولم يبال كيف انقضت أيامها في ضرّ وضيق أو في سعة ورفاهية. بل ولا يبني لبنة على لبنة، وقد توفي رسول الله ﷺ وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة[1].

فقد رأى ﷺ بعض أصحابه يبني بيتاً من جصّ فقال:

«أرى الأمر أعجل من هذا وأنكر ذلك»[2].

وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال:

«الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها».

٢ ـ الاستدراج:

إن طبيعة الدنيا التلطّف في الاستدراج أولاً والتوصل إلى الهلاك آخراً. وهي كامرأة تتزين للخُطّاب حتى إذا نكحتهم ذبحتهم. وقد روي أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هتماء[3] عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم. قال: فكلهم مات عنك أم كلّهم طلّقك؟ قالت: بل كلهم قتلت. فقال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين كيف تهلكينهم واحداً واحداً ولا يكونون منك على حذر! وقال عليه السلام:

«مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله».

٣ ـ الخداع:

إن الدنيا مزيّنة الظواهر قبيحة السرائر، وهي تشبه عجوزاً متزينة تخدع الناس بظاهرها فإذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها

---

(١) الترغيب: ج٤ ص١٨٧.

(٢) أخرجه أبو داود: ج٢ ص٦٤٩.

(٣) هتماء: التي انكسرت ثناياها من أصولها.

ظهر لهم قبحها فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها.

فالدنيا تبدو في الظاهر هيّنة وليّنة، فيظن الخائض فيها حلاوة، ولكن هيهات فالخوض في الدنيا سهل ولكن الخروج منها بسلام صعب.

كتب علي عليه السلام إلى سلمان الفارسي (رضوان الله عليه):

«مثل الدنيا مثل الحيّة يلين مسّها ويقتل سمّها، فأعرض عما يعجبك منها لقلّة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها، وكن أسرّ ما تكون منها احذر ما تكون منها، فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخصته عنه إلى محذور»[1].

٤ ـ تورث قساوة القلب:

قال النبي صلى الله عليه وآله:

«إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشين في الماء، هل يستطيع الذي يمشي في الماء أن لا تبتلّ قدماه»[2].

وهذه إشارة إلى جهالة قوم ظنوا أنهم إنما يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم وقلوبهم عنها مطهّرة، وعلائقها عن بواطنها منقطعة. وهذه مكيدة من مكائد الشيطان اللعين. بل لو أخرجوا مما هم فيه لكانوا أعظم المتفجعين من فراقها. فكما أن المشي في الماء يقتضي بللاً لا محالة فإن ملابسة الدنيا تقتضي علاقة ما وظلمة في القلب، وعلاقة القلب بالدنيا تمنع حلاوة العبادة.

---

(١) نهج البلاغة.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد.

قال نبي الله عيسى عليه السلام:

«بحق أقول لكم: كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذّ به من شدة المرض، كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا.

بحق أقول لكم: الدابّة إذا لم تركب ولم تمتهن تصعب وتغيّر خلقها، كذلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت وبنصب العبادة تقسو وتغلظ.

بحق أقول لكم: إن الزق ما لم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء العسل، كذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات، أو يدنّسها الطمع، أو يقسيها النعيم، فسوف تكون أوعية للحكمة».

وقال النبي صلى الله عليه وسلم:

«إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة، وإنما مثل عمل أحدكم كمثل وعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله وإذا خبث أعلاه خبث أسفله»[1].

٥ ـ تورث الحسرة عند الموت:

إن شهوات الدنيا في القلب لذيذة كشهوات الأطعمة في المعدة، ولكن عند الموت سيجد العبد في قلبه أن لشهوات الدنيا من الكراهية والنتن، ما للأطعمة اللذيذة إذا بلغت في المعدة غايتها. فكما أن الطعام كلما كان ألذّ طعماً وأكثر دسماً وأظهر حلاوة كان رجيعه أقذر وأشد نتناً، فكذلك هي الشهوة في القلب فإن فتنتها أشهى وألذ وأقوى،

(١) مسند أحمد: ج٤ ص٩٤.

وكراهتها والتأذي بها عند الموت أشد. فكل ما كان عند الوجود أشهى وألذ فهو عند الفقد أدهى وأمرّ. وما للموت معنى إلا فقد ما في الدنيا. قال النبي ﷺ:

«إن الله تعالى ضرب الدنيا لمطعم بن آدم مثلاً، وضرب مطعم بن آدم للدنيا مثلاً، فانظر إلى ما يخرج من ابن آدم وأن قزحه وملحه إلى ما يصير»[1].

فمن عرف سنة الله في الدنيا علم أنها دار ضيافة سبّلت[*] على المجتازين لا على المقيمين ليتزودوا منها وينتفعوا بما فيها، فلا يصرفون إليها كل قلوبهم حتى لا تعظم مصيبتهم عند فراقها.

٦ ـ تنسي الآخرة:

إن أهل الدنيا باشتغالهم بنعيم الدنيا قد غفلوا عن الآخرة. وأنهم في غفلتهم هذه كمثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة وحذّرهم المقام وخوّفهم مرور السفينة واستعجالها. فتفرقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم الحاجة ورجع إلى السفينة فوجد المقام خالياً فأخذ أوسع الأماكن وأليقها وأوفقها لمراده. وبعضهم توقّف في الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة وإلى أشجارها ونغمات طيورها الطيبة وألحانها الموزونة الغريبة، ثم تنبه لخطر فوات السفينة فرجع إليها فلم يجد إلا مكاناً ضيقاً فاستقرّ فيه. وبعضهم أكبّ على التقاط أحجارها ومعادنها المختلفة الألوان ولم تسمح له نفسه بإهمالها فاستصحب منها كمية وعاد إلى السفينة فلم يجد فيها إلا مكاناً ضيقاً وزاده ما حمله ضيقاً وصارت ثقلاً عليه ووبالاً، فندم على أخذها ولم يقدر على رميها ولم يجد مكاناً لوضعها، فحملها

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير.

(*) سبّل: أباح. سبّل الطريق: أي جعل إليه طريقاً.

وهو متأسف على أخذها، وليس ينفعه التأسف بشيء. وبعضهم نسي المركب ولم يبلغه نداء الملاح لاشتغاله بأكل الثمار وتشمّم الأنوار والتفرّج على الأشجار، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع، وغير خال من السقطات والنكبات، فلما بلغهم نداء أهل السفينة انصرف بعضهم مثقلاً بما معه ولم يجد في المركب موضعاً فبقي على الشاطىء حتى مات جوعاً. وبعضهم لم يبلغهم النداء وسارت السفينة وتركتهم، فمنهم من افترسه السبع ومنهم من تاه على وجهه حتى هلك.

أما من وصل إلى المركب وهو مثقل بالأزهار والأحجار فقد استرقته وشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها، وقد ضيق عليه مكانه فلم تلبث أن ذبلت تلك الأزهار، وكمدت ألوان الأحجار وظهر نتن رائحتها حتى تأذى بنتنها فلم يجد حيلة إلا أن ألقاها في البحر، وقد أثر فيه ما أكل منها فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بسبب تلك الروائح النتنة. ومن رجع بعد حين لم يفته إلا سعة المحل فتأذى بضيق المكان مدّة ولكن لما وصل إلى الوطن استراح. ومن رجع أولاً وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالماً.

فهذا مثال أصناف أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم المقصد والغاية، وغفلتهم عن عاقبة أمورهم. فما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل وهو تغرّه أحجار الأرض من الذهب والفضة وهشيم النبت وهي زينة الحياة الدنيا، وهو عند الموت لا يصحب منها شيئاً، بل تكون عليه كلاً ووبالاً لاشتغاله به وخوفه وحزنه على فراقها. وهذا هو حال الخلق كلهم إلا من عصمه الله عز وجل.

٧ ـ تورث ضعف الإيمان بالله:

روي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه:

«إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة

غبراء حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أم ما بقي؟ أنفدوا الزاد وخسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة لا زاد ولا حمولة فأيقنوا المهلكة فبيناهم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حُلّة يقطر رأسه ماء فقالوا هذا قريب عهد بريف وما جاءكم هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء قالوا: يا هذا، قال: على ما أنتم؟ فقالوا: على ما ترى، قال: أرأيتم إن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضر ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً. قال: عهودكم ومواثيقكم بالله، فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً. قال: فأوردهم ماء رواء ورياضاً خضراً فمكث فيهم ما شاء الله، ثم قال: يا هؤلاء، قالوا: يا هذا، قال: الرحيل، قالوا: إلى أين، قال: إلى ماء ليس كمائكم وإلى رياض ليس كرياضكم فقال أكثرهم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أنّا لن نجده وما نصنع بعيش خيراً من هذا، وقالت طائفة وهم أقلّهم: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله أن لا تعصوه شيئاً؟ وقد صدقكم في أول حديثه، فوالله ليصدقنّكم في آخره، فراح فيمن اتّبعه وتخلّف بقيتهم، فبدر بهم عدوّ فأصبحوا من بين أسير وقتيل»[1].

٨ - تورث الانهماك باللذات الفانية:

ما أشبه حال الإنسان واغتراره بالدنيا وغفلته عن الموت وما بعده من الأهوال وانهماكه في اللذات العاجلة الفانية الممزوجة بالكدورات،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا.

بشخص مدلى في بئر، مشدود وسطه بحبل وفي أسفل ذلك البئر ثعبان عظيم متوجه إليه منتظر سقوطه، فاتح فاه لالتقامه، وفي أعلى البئر جرذان أبيض وأسود لا يزال يقرضان ذلك الحبل شيئاً فشيئاً ولا يفتران عن قرضه آناً من الآنات، وذلك الشخص مع أنه يرى ذلك الثعبان ويشاهد انقراض الحبل آناً فآناً فإنه قد أقبل على قليل عسل قد لطخ به جدار ذلك البئر وامتزج بترابه واجتمع عليه زنابير كثيرة، وهو مشغول بلطعه، منهمك فيه، ملتذ بما أصاب منه، مخاصم لتلك الزنابير عليه حتى صرف باله إلى ذلك، غير ملتفت إلى ما فوقه وإلى ما تحته. فالبئر هو الدنيا والحبل هو العمر والثعبان الفاتح فاه هو الموت والجرذان الليل والنهار القارضان للأعمار، والعسل المختلط بالتراب هو لذات الدنيا الممزوجة بالكدورات والآلام، والزنابير هم أبناء الدنيا المتزاحمون عليها.

حقيقة الدنيا المذمومة

إن ذم الدنيا لوحده لا يكفي ما لم تعرف ماهية الدنيا المذمومة وما الذي ينبغي أن يجتنب منها وما لا ينبغي أن يجتنب؟ فلا بد أن نبيّن إذاً ماهية الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله.

في الحقيقة؛ إن دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك، القريب الداني منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت، والمتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت. فكل ما لك فيه حظ وغرض ونصيب وشهوة ولذّة في عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا. إلا أنه ليس كل ما لك فيه ميل أو حظ ونصيب فهو مذموم بل إن الدنيا على ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

ما يصحبك في الدنيا وتبقى معك ثمرته بعد الموت وهو شيئان العلم والعمل. والمقصود بالعلم؛ العلم بالله وصفاته.وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت أرضه وسمائه والعلم بشريعة نبيّه.

والمقصود بالعمل؛ العبادة الخالصة لوجه الله. قد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك ألذّ الأشياء عنده فيهجر النوم والمنكح والمطعم لأن العلم صار أشهى عنده، فصار حظاً عاجلاً في الدنيا. ولكن ليس هذا في الدنيا المذمومة، بل من الآخرة.

وكذلك العابد فقد يأنس بعبادته ويستلذها بحيث لو منعت عنه

لكان ذلك من أعظم العقوبات عليه، حتى قال بعضهم: ما أخاف من الموت إلا من حيث إنه يحول بيني وبين قيام الليل. فصارت الصلاة من حظوظه العاجلة، وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطبق عليه من حيث الاشتقاق من الدنو، ولكنّا لسنا نعني بالدنيا المذمومة ذلك. وقد قال النبي ﷺ:

«حبب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرّة عيني في الصلاة»[1].

فجعل ﷺ الصلاة من جملة ملاذ الدنيا، ذلك لأن كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة وهو من الدنيا، والتلذّذ بتحريك الجوارح بالسجود والركوع إنما يكون في الدنيا ولذلك أضافها ﷺ إلى الدنيا. وهذه ليست من الدنيا المذمومة بل ليست من الدنيا.

القسم الثاني:

وهو المقابل للقسم الأول، وهو كل ما فيه حظ عاجل من دون أن تكون له ثمرة في الآخرة أصلاً؛ كالتلذذ بالمعاصي والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الضرورة والحاجة، الداخلة في الرفاهية والرعونات، كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسوّمة والأنعام والحرث والجواري والقصور والدور المشيّدة ورفيع الثياب ولذائذ الأطعمة و. . .

فحظ العبد من هذه كلها هو الدنيا المذمومة.

---

(١) مسند أحمد: ج٣ ص١٢٨.

القسم الثالث:

وهو الوسط بين الطرفين، فكل حظ عاجل معين على أعمال الآخرة كالقوت والملبس وكل ما لا بد منه ليحافظ الإنسان على بقائه والصحة التي بها يتوصل إلى العلم والعمل، فهذه ليست من الدنيا القسم الأول لأنها معين على القسم الأول ووسيلة إليه. فإذا كان قصد العبد الاستعانة على العلم والعمل لم يصر به من أبناء الدنيا. وإن كان باعثه الحظ العاجل لا الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثاني وصار من جملة الدنيا المذمومة.

وإن الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم:

١ ـ إلى ما يعرّض صاحبه لعذاب الله في الآخرة، ويسمّى ذلك حراماً.

٢ ـ إلى ما يحول بين الإنسان وبين الدرجات العلى، ويعرّضه لطول الحساب. ويسمّى ذلك حلالاً.

فالبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة هو أيضاً عذاب:

«فمن نوقش في الحساب عذّب»[1].

وقد قال علي عليه السلام:

«في حلالها حساب وفي حرامها عقاب»[2].

إلا أنه عذاب أخف من عذاب الحرام.

لكل من تنعم في الدنيا ولو بسماع صوت من طائر أو بالنظر إلى

---

(١) أخرجه البخاري: ج٨ ص١٣٩.

(٢) نهج البلاغة.

خضرة أو شربة ماء بارد فهو ينقص من حظه في الآخرة. والتعرض للسؤال فيه ذل وخوف وخطر ومشقة وانتظار وكل ذلك من نقصان الحظ.

فالدنيا قليلها وكثيرها حلالها وحرامها ملعونة إلا ما أعان على تقوى الله فإن ذلك القدر ليس من الدنيا. وكل من كانت معرفته أقوى وأتقن كان حذره من نعيم الدنيا أشد. حتى أن عيسى عليه السلام وضع رأسه على الحجر لما نام ثم رمى به لما تمثل له إبليس قائلاً: رغبت في الدنيا.

حتى أن سليمان عليه السلام كان في ملكه يطعم الناس من لذائذ الأطعمة وهو يأكل خبز الشعير. ولهذا زوى الله تعالى الدنيا عن نبينا ﷺ فكان يطوي أياماً وهو يشد الحجر على بطنه من الجوع. ولهذا سلط الله البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء ثم الأمثل فالأمثل. كل ذلك إكراماً لهم وامتناناً عليهم لكي ينالوا حظهم في الآخرة. أما لمعرفة ما يكون لله، فنقول إن الأشياء ثلاثة أقسام:

١ ـ منها ما لا يتصوّر أن يكون لله؛ وهو الذي يعبّر عنه بالمعاصي والمحظورات، وأنواع التنعمات في المباهاة وهي الدنيا المذمومة.

٢ ـ منها ما صورته لله ويمكن أن يجعل لغير الله وهو ثلاثة:

ـ الفكر.

ـ الذكر.

ـ الكف عن الشهوات.

فهذه الثلاثة إذا جرت ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهي لله وليست من الدنيا. وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة، أو كان الغرض من

ترك الشهوة حفظ المال أو الاشتهار بالزهد، فقد صار هذا من الدنيا وإن كان يظن بصورته أنه لله.

٣ ـ منها ما صورته لحظ النفس ولكن يمكن أن يجعل معناه لله، كالأكل والنكاح وكل ما يرتبط به بقاؤه. فإن كان القصد حظ النفس فهو من الدنيا، وإن كان القصد الاستعانة على التقوى فهو لله وإن كانت صورته صورة الدنيا. قال النبيﷺ:

«من طلب الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً لقي الله وهو عليه غضبان. ومن طلبها استعفافاً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر»(١).

فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد، فإذا الدنيا حظّ نفسك العاجل الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة ويعبّر عنه بالهوى وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾(٢).

وإن مجامع الهوى خمسة أمور وهي ما جمعه الله عز وجل في قوله:

﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾(٣).

والأعيان التي منها تحصل هذه الأمور الخمسة سبعة يجمعها قوله تعالى:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية.
(٢) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ ـ ٤١.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾[1].

إذاً فكل ما هو لله ليس من الدنيا. وقدر ضرورة القوت وما لا بد منه من مسكن وملبس فهو لله إن قصد به وجه الله. أما الاستكثار منها فهو تنعم وهو لغير الله، وبين التنعم والضرورة درجة يعبّر عنها بالحاجة ولها طرفان وواسطة:

١ ـ طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضرّ لأن الاقتصار دائماً على حدّ الضرورة غير ممكن.

٢ ـ طرف يزاحم جانب التنعم ويقرب منه وهو ما ينبغي الحذر منه.

٣ ـ وبينهما واسطة متشابهة، [ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه] لذا ينبغي الحزم في الحذر والتقوى والتقرّب من حد الضرورة ما أمكن اقتداءً بالأنبياء والأولياء، إذ كانوا يردّون أنفسهم إلى حدّ الضرورة.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

الاعتدال منهج أهل البيت في التعامل مع الدنيا

إن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة وللإنسان فيها حظ وله في إصلاحها شغل. وهذه الأعيان هي عبارة عن الأرض وما عليها، حيث قال الله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾[1].

فالأرض فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقرّ، وما عليها فهو لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح، ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام المعادن والنبات والحيوان.

فهذه هي الأعيان التي يعبّر عنها بالدنيا وقد جمع الله تعالى في قوله:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[2].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

فهذه هي أعيان الدنيا وللعبد معها علاقتان:

١ ـ علاقة مع القلب: وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همّه إليها حتى يصير قلبه كالعبد أو المحبّ المتيّم بالدنيا. وفي هذه العلاقة القلبية تنشأ جميع صفات القلب المتعلقة بالدنيا؛ كالكبر والغلّ والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر. وهذه هي الدنيا الباطنة، أما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها.

٢ ـ علاقة مع البدن: وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان ليصلح حظوظه وحظوظ غيره، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها.

والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومتعلقهم نتيجة هاتين العلاقتين: علاقة القلب بالحب وعلاقة البدن بالشغل. ولو عرف الإنسان نفسه وعرف ربّه وعرف حكمة الدنيا وسرّها، علم أن هذه الأعيان التي سميناها دنيا لم تخلق إلا لعلف الدابة التي تسير بها إلى الله، وأعني بالدابة البدن، فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن، كما لا يبقى الإبل في طريق الحج إلا بعلف وماء وجلال. ومثال العبد في نسيانه لنفسه ومقصده مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق ولا يزال يعلف الناقة ويتعهدها وينظفها ويكسوها ألوان الثياب ويحمل إليها أنواع الحشيش ويبرّد لها الماء بالثلج حتى تفوته القافلة وهو غافل عن مقصده الأصلي وهو الحجّ.

أما الحاج البصير فلا يهمّه من أمر الجمل إلا القدر الذي يقوى به على المشي فيتعهده وقلبه إلى الكعبة والحج فلا يلتفت إلى الناقة إلا بقدر الضرورة. فكذلك هو البصير بسفر الآخرة، فهو لا يشتغل بتعهد البدن إلا بقدر الضرورة. وإن أكثر ما شغل الناس عن الله هو البطن،

فإن القوت ضروري وأمر الملبس والمسكن أهون، فلو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور واقتصروا عليها لما انشغلوا بالدنيا، فإن الاستغراق بها دليل على الجهل بها وحكمتها ومقدار حظوظهم منها. ولكنهم جهلوا وغفلوا فتتابعت مشاغل الدنيا عليهم واتصل بعضها ببعض وتداعت إلى غير نهاية، فتاهوا في كثرة الأشغال ونسوا مقصودها والهدف منها. فنسوا في أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم ومآلهم فضلّوا وتاهوا وسبقت إلى عقولهم الضعيفة خيالات فاسدة بعد أن كدّرتها زحمة مشاغل الدنيا. فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدة أوجه:

ـ فطائفة غلب عليهم الجهل والغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمرهم فقالوا إن المقصود هو أن نعيش أياماً في الدنيا فنجهد حتى نكسب القوت ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ثم نكتسب حتى نأكل، فيأكلون ليكسبوا ويكسبون ليأكلوا. وهذا مذهب من ليس له تنعم في الدنيا ولا قدم في الدين، بل يتعب نهاراً ليأكل ليلاً ويأكل ليلاً ليتعب نهاراً، فهو عندهم سفر لا ينقطع إلا بالموت.

ـ وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطنوا لأمر وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل فلا يتنعّم بالدنيا، بل إن السعادة تكمن في أن يقضي الإنسان وطره من شهوات الدنيا وهي شهوة البطن والفرج. وهذه طائفة نسوا أنفسهم وصرفوا همّهم في اتباع النساء وجمع لذائذ الأطعمة، فيأكلون كما تأكل الأنعام ظناً منهم أنهم بذلك يكونون قد أدركوا غاية السعادة، فيشغلهم ذلك عن الله تعالى واليوم الآخر.

ـ وطائفة ظنوا أن السعادة في كثرة المال والاستغناء بكنز الكنوز، فأسهروا ليلهم ونهارهم في الجمع. فهم يتعبون في الأسفار طوال الليل والنهار ويقومون بالأعمال الشاقة ويكتسبون ويجمعون ولا يأكلون إلا

قدر الضرورة شحّاً وبخلاً خوفاً من أن ينقص ما جمعوا. فهذه هي لذتهم وذلك هو دأبهم وحركتهم إلى أن يدركهم الموت فيبقوا تحت الأرض ويظفر بما جمعوا من يأكله من الشهوات واللذات، فيكون عليهم تعب جمعه ووباله وعلى الأكل لذته وحسابه.

ثم إن الذين يجمعون الأموال ينظرون إلى مصير أمثالهم وأشباههم ولا يعتبرون!!

- وطائفة ظنوا أن السعادة في حسن الاسم وانطلاق الألسن بالثناء والمدح وبالتجمل والمروّة. فهؤلاء يتعبون في كسب المعايش ويضيقون على أنفسهم في المطعم والمشرب، ويصرفون جميع مالهم في الملابس الحسنة والدواب النفيسة، ويزخرفون أبواب الدور وما يقع عليه أبصار الناس حتى يقال: إن فلاناً غني، وإنه ذو ثروة. فيظنون أن السعادة في ذلك، فيكون همّهم في ليلهم ونهارهم في الاهتمام بنظر الخلق.

- وطائفة أخرى ظنوا السعادة في الجاه والكرامة بين الناس وانقياد الخلق إليهم بالتواضع والوقار. فصرفوا همّهم في جرّ الناس إلى طاعتهم وولايتهم ظناً منهم أنهم إذا اتسعت ولايتهم وانقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة وأن ذلك هو غاية المطلب.

وهذه من أغلب الشهوات على قلوب المتغافلين، فهؤلاء شغَلَهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته والتفكر في آخرتهم ومعادهم. ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها وهي تزيد عن نيّف وسبعين فرقة كلهم ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل. وإنما جرّهم إلى جميع ذلك الحاجة إلى المطعم والملبس والمسكن، فنسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة والقدر الذي يكفي منها، حتى تداعت بهم إلى مهاوي لا يمكن الرقيّ منها.

أما من عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال وعرف

غاية المقصود منها فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل إلا وهو عالم بمقصوده وبحظّه ونصيبه منها. وإن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة بقدر الضرروة حتى تندفع المشاغل عنه فيفرغ القلب ويغلب عليه ذكر الآخرة. وإن تعدى بها قدر الضرورة كثرت عليه الشواغل وتداعى بعضها إلى بعض وتسلسل إلى غير نهاية حتى تتشعّب به الهموم، ومن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا لم يبال الله في أي واد هلك، وهذا شأن المنهمكين في مشاغل الدنيا.

فتنبه لذلك طائفة، فأعرضوا عن الدنيا حتى حسدهم الشيطان فلم يدعهم حتى أضلهم فانقسموا إلى طوائف أيضاً:

ـ فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة وأن الآخرة دار سعادة، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا وإليه ذهبت طائفة من عباد الهند.

ـ وطائفة أخرى ظنت أن القتل لوحده لا يخلّص بل لا بد أولاً من إماتة الصفات البشرية وقلعها من النفس بالكامل، وأن السعادة في قطع الشهوة والغضب، فأقبلوا على المجاهدة فشدّدوا على أنفسهم حتى هلك بعضهم من شدة الرياضة. فبعضهم فسد عقله وجن، وبعضهم مرض وانسدّت عليه طرق العبادة، وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكامل فظن أن ما كلّفه الشرع محال وأن الشرع تلبيس لا أصل له، فوقع في الإلحاد والزندقة. وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله وأن الله مستغن عن عبادة العباد، فعادوا إلى الشهوات وسلكوا مسلك الإباحة فطووا بساط الشرع والأحكام وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد.

ـ وطائفة أخرى ظنت أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله، فإذا حصلت له المعرفة فقد وصل وبعد

الوصال يستغني عن الوسيلة والحيلة، فتركوا السعي والعبادة، زاعمين أنه قد ارتفع محلّهم في معرفة الله عن أن يمتهنوا بالتكليف، وإنما التكليف على عوام الخلق.

ووراء هذه الطوائف مذاهب باطلة وضلالة هائلة وخيالات فاسدة يطول إحصاؤها إلى أن تبلغ نيّفاً وسبعين فرقة وإنما الناجي منها فرقة واحدة هي السالكة طريق رسول الله ﷺ وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدّين، وما كانوا يترهّبون ويهجرون الدنيا بالكامل، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط، بل كان أمرهم بين ذلك قواماً. وذلك هو العدل والحد الوسط بين الطرفين، وهو أحب الأمور إلى الله.

لذا لا ينبغي للسالك أن يترك الدنيا بشكل كامل ولا يقمع الشهوات بالكامل أيضاً بل يأخذ منها قدر الزاد والضرورة. وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل، فلا يتّبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة بل يتبع العدل. وأما الدنيا فلا يترك كل شيء فيها ولا يطلب كل شيء، بل يعلم مقصود وغاية كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حدّ مقصوده. فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة، ومن المسكن ما يحفظه من الحرّ والبرد واللصوص، ومن الكسوة كذلك، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله بكنه همّه واشتغل بالذكر والفكر طوال العمر وبقي ملازماً لسياسة الشهوات ومراقبتها حتى لا يتعدى حدود الورع والتقوى، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية.

الصفات المنجية من العذاب

إن الإنسان لا يبقى معه عند الموت إلا ثلاث صفات تكون بها نجاته وفوزه وهي:

١ ـ صفاء القلب وطهارته من أدناس الدنيا.

٢ ـ أنس القلب بذكر الله.

٣ ـ حب القلب لله.

وإن صفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا. والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله والمواظبة عليه، أما الحب فلا يحصل إلا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر.

فهذه الصفات الثلاثة هي المنجية بعد الموت وهي الباقيات الصالحات.

ـ أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا: فهي من المنجيات لأنها جُنّة بين العبد وبين عذاب الله. كما جاء في الخبر:

«إن أعمال العبد تناضل عنه فإذا جاء العذاب من جهة رجليه جاء قيام الله يدفع عنه وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه..»[(١)].

---

(١) أخرجه الطبراني.

ـ أما الأنس والحب: فهما من المسعدات وهما موصلان إلى لذّة اللقاء والمشاهدة. وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت إلى أن يدخل الجنة فيصير القبر روضة من رياض الجنة. وكيف لا يكون قبره روضة ولم يكن له إلا محبوب واحد، وكانت العوائق في السابق تعوقه عن الأنس بدوام ذكره ومطالعة جماله فارتفعت العوائق وأفلت من السجن وخلِّي بينه وبين محبوبه، فقدم عليه مسروراً سالماً من الموانع آمناً من الفراق.

وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذّباً ولم يكن له محبوب إلا الدنيا، وقد غصبت منه وحيل بينه وبينها وسدّت عليه طرق الحيلة في الرجوع إليها. والموت ليس عدماً إنما هو فراق للدنيا وقدوم على الله تعالى. إذاً إن سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث وهي:

١ ـ الذكر.

٢ ـ الفكر.

٣ ـ العمل؛ الذي يفطمه عن الشهوات الدنيا ويبغض إليه ملاذها ويقطعه عنها. وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن وصحة البدن لا تنال إلا بالقوت والملبس والمسك. ولكل واحد من هذه الأسباب حدّ ما وقدر معين، والقدر الذي لا بد منه هو الذي ما إن أخذه العبد من الدنيا لأجل الآخرة لم يعد فيه أنه من أبناء الدنيا، فكانت الدنيا في حقه مزرعة الآخرة. أما إن أخذ ذلك على قصد التنعم ولحظ النفس صار من أبناء الدنيا الراغبين في حظوظها.

تربية النفس

مقدمة

إن الخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدين، وثمرة مجاهدة المتقين، ورياضة المتعبدين.

أما الأخلاق السيئة فهي السموم القاتلة، والمهلكات الدامغة، والمخازي الفاضحة، والرذائل الواضحة، والخبائث المبعدة عن جوار ربّ العالمين، المنخرطة بصاحبها في سلك الشيطان اللعين.

وهي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة. كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة في القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن.

والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس، إلا أنها أمراض تقضي على الحياة الأبدية السعيدة، وأين منها الأمراض التي تقضي على حياة الجسد فقط؟ فالأطباء مهما اشتدت عنايتهم بضبط قوانين علاج الأبدان وليس في مرضها إلا فوت حياة فانية. أما ضبط قوانين العلاج الخاصة بأمراض القلوب ففيها فوت الحياة الخالدة الأبدية، لذا كان هذا النوع من الطب واجب تعلّمه على كل ذي لب، إذ لا يخلو قلب من القلوب من أسقام وعلل لو أهملت لتراكمت وتظاهرت. لذا يحتاج العبد إلى تأنق في معرفة عللها وأسبابها ثم إلى

التشمير عن ساعد الجد في معالجتها وإصلاحها. فمعالجتها هي المراد من قوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾[1].

وإهمالها هو المراد بقوله تعالى:

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[2].

ونحن في هذا الفصل سنشير إلى جملة من أمراض القلوب، وذكر كيفية معالجتها بشكل عام من غير تفصيل. فغرضنا الآن النظر الكلي في تهذيب الأخلاق وتمهيد مناهجها. ويتضح ذلك من خلال بيان:

- فضيلة حسن الخلق.
- حقيقة حسن الخلق.
- إمكانية تغيير الأخلاق بواسطة الرياضة والمجاهدة.
- السبب الذي به ينال حسن الخلق.
- الطريق الذي يؤدي إلى تهذيب النفس.
- العلامات التي بها يعرف مرض القلوب.
- الطرق التي بها يعرف الإنسان عيوب نفسه.
- شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة.

---

(١) سورة الشمس، الآية: ٩.

(٢) سورة الشمس، الآية: ١٠.

فضيلة حسن الخلق

قال الله تعالى لنبيّه وحبيبه ﷺ مثنياً عليه ومظهراً نعمته لديه:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[1].

وسأل رجل رسول الله ﷺ عن حسن الخلق فتلا قوله عز وجل:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾[2].

وقال ﷺ عن حسن الخلق:

«هو أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك»[3].

وقال ﷺ:

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[4].

وقال ﷺ:

«أثقل ما يوضع في الميزان تقوى الله والخلق الحسن»[5].

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٣) الدر المنثور ج٣ ص١٥٤.

(٤) مجمع الزوائد: ج٨ ص٢٣.

(٥) الترمذي: ج٨ ص١٦٨.

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال:

«يا رسول الله ما الدين؟ فقال ﷺ: حسن الخلق. ثم آتاه من قبل يمينه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ فقال ﷺ: حسن الخلق. ثم آتاه من قبل شماله فقال: ما الدين، فقال ﷺ: حسن الخلق، ثم آتاه من ورائه فقال: ما الدين؟ فالتفت إليه فقال ﷺ: أما تفقه هو أن لا تغضب!»[(١)].

قال رجل: يا رسول الله أوصني، فقال ﷺ:

«اتّق الله حيث كنت، فقال: زدني، قال ﷺ: اتبع السيئة الحسنة تمحها. قال: زدني. قال ﷺ: خالق الناس بخلق حسن»[(٢)].

وسئل رسول الله ﷺ:

«أيّ الأعمال أفضل؟ قال: حسن الخلق»[(٣)].

وقال النبي ﷺ:

«ما حسّن الله خلق امرىء وخُلقه فيطعمه النار»[(٤)].

قيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها. فقال:

«لا خير فيها هي من أهل النار»[(٥)].

---

(١) الترغيب والترهيب: ج٣ ص٤٠٥.

(٢) مسند أحمد: ج٥ ص٢٢٨.

(٣) الترغيب والترهيب: ج٣ ص٤٠٥.

(٤) المصدر السابق: ص٤٠٧.

(٥) مجمع الزوائد: ج٨ ص١٦٩.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال:

«أفضل ما يوضع في الميزان حسن الخلق والسخاء، ولما خلق الله تعالى الإيمان قال: اللهم قوّني، فقواه بحسن الخلق والسخاء، ولما خلق الله الكفر قال: اللهم قوّني، فقواه بالبخل وسوء الخلق»[1].

وقال النبي ﷺ:

«إن الله تعالى استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق، ألا فزينوا دينكم بهما»[2].

وقال ﷺ:

«حسن الخلق خلق الله الأعظم»[3].

وقيل:

«يا رسول الله أي المؤمنين أفضلهم إيماناً؟ قال: أحسنهم خلقاً»[4].

وقال النبي ﷺ:

«سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخلُّ العسل»[5].

وكان الرسول ﷺ يكثر الدعاء فيقول:

«اللهم إني أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق»[6].

---

(١) أبو داود: ج٢ ص٥٥٢.
(٢) مجمع الزوائد: ج٨ ص٢٠.
(٣) الطبراني في الكبير.
(٤) الدارمي: ج٢ ص٣٢٣.
(٥) أخرجه الحاكم.
(٦) أخرجه الخرائطي في المكارم.

وعنه ﷺ أنه قال:

«كرم المرء دينه، ومروءته عقله، وحسبه حسن خلقه»[1].

وقال الرسول الأكرم ﷺ:

«إنّ أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً»[2].

وقال ﷺ:

«إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد»[3].

وقال ﷺ لأبي ذر:

«يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق»[4].

وقال ﷺ:

«إن المسلم المسدّد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم ضريبته»[5].

وقال ﷺ:

«إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة

---

(١) أخرجه الحاكم.

(٢) مجمع الزوائد: ج٨ ص٢١.

(٣) المصدر السابق: ٢٤.

(٤) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤٢١٨.

(٥) مسند أحمد.

وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة»[1].

وقال ﷺ:

«سوء الخلق ذنب لا يغفر وسوء الظن خطيئة تفوح».

وقال ﷺ:

«إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم».

---

(١) الترغيب: ج٢ ص٤٠٤.

حقيقة الخلق الحسن

الخَلق والخُلق عبارتان مستعملتان معاً فيقال: فلان حسن الخَلق والخُلق، أي حسن الظاهر والباطن. فيراد بالخَلق الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلق الصورة الباطنة. ذلك لأن الإنسان مركّب من جسد مدرك بالبصر ومن روح مدركة بالبصيرة، ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة. والروح المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظّم الله أمرها فقال عز اسمه:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾[1].

فنبّه تعالى على أنّ الجسد منسوب إلى الطين والروح منسوب إلى الله تعالى، والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد. فالخُلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويّة. فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سمّيت الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سمّيت الهيئة خلقاً سيئاً.

وإنما قلنا إنها هيئة راسخة، لأن من يصدر عنه بذل المال لأمر

---

(١) سورة ص، الآيتان: ٧١ ـ ٧٢.

عارض لا يقال له إن خلقه السخاء إلا أن يثبت ذلك في نفسه بشكل راسخ. وإنما الشرط كان أن تصدر عنه الأفعال بسهولة من غير رويّة لأن من تكلّف بذل المال والسكوت عند الغضب بجهد لا يقال إن خلقه السخاء والحلم.

فهذه أربعة أمور:

أحدها: فعل الجميل والقبيح.

الثاني: القدرة عليهما.

الثالث: المعرفة بهما.

الرابع: هيئة للنفس، بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين إما الحسن أو القبح. فليس الخلق عبارة عن الفعل، فربّ شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع ما آخر. وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء.

وليس الخلق أيضاً عبارة عن القدرة على الإمساك والإعطاء، فكل إنسان خلق بالفطرة قادراً على الإعطاء والإمساك وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء.

وليس هو عبارة عن المعرفة، لأن المعرفة تتعلق بالقبيح والجميل معاً على وجه واحد. بل الخلق عبارة عن المعنى الرابع؛ وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر عنها الإمساك والبذل.

فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة. وللباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتمّ حسن الخلق، فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهي:

١ ـ قوة العلم.

٢ ـ قوة الغضب.

٣ ـ قوة الشهوة.

٤ ـ قوة العدل.

قوة العلم؛ حسنها وصلاحها بأن يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحقّ والباطل في الاعتقادات، وبين القبيح والجميل في الأفعال. فإذا تحصّلت هذه القوّة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة، وهي التي قال الله تعالى فيها:

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(١).

أما قوة الغضب فحسنها في أن يقتصر انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة. وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة، أي إشارة العقل والدين.

وأما قوة العدل فهي في ضبط قوة الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع، فالعقل منزلته منزلة الناصح المشير.

فمن استوت فيه هذه الصفات واعتدلت فهو حسن الخلق. فحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة، وحسن القوة الشهوية واعتدالها يعبّر عنه بالعفة. فإن مالت قوّة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة سمي ذلك تهوّراً، وإن مالت إلى الضعف والنقصان سمي ذلك جبناً. وإن مالت قوّة الشهوة إلى طرف الزيادة سمّي شرهاً، وإن مالت إلى النقصان سمّي خموداً. والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة، والعدل إذا فات فليس له طرفان زيادة ونقصان بل له ضدّ واحد وهو الجور.

أما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة جربذة، ويسمى تفريطها بلها، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

إذن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة:

١ ـ الحكمة.

٢ ـ الشجاعة.

٣ ـ العفة.

٤ ـ العدل.

ـ ونعني بالحكمة: حالة للنفس بها تدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية.

ـ ونعني بالشجاعة: كون قوّة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها.

ـ ونعني بالعفة: تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

ـ ونعني بالعدل: حالة للنفس وقوّة تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة، وتضبطها من الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها.

فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها. فمن اعتدال قوّة العقل يصدر حسن التدبير والتفطّن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس. ومن إفراطها تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء، ومن تفريطها يصدر البله والحمق وقلة التجربة والجنون.

أما خلق الشجاعة فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار وأمثالها، وهي أخلاق محمودة. أما إفراطها فهو التهوّر الذي يصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب. وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلّة والجزع والخساسة وصغر النفس وتناول عن تناول الحق الواجب.

أما خلق العفة فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع والأمانة والمساعدة وقلة الطمع. وأما ميلها إلى الإفراط والتفريط فيصدر منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك.

فأمهات محاسن الأخلاق هي هذه الصفات والفضائل الأربعة؛ الحكمة، الشجاعة، العفة والعدل، والباقي بمثابة الفروع لها. ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الصفات الأربعة إلا رسول الله ﷺ وأهل البيت عليهم السلام. والناس من بعدهم متفاوتون في القرب والبعد. فكل من اقترب من هذه الأخلاق اقترب من الله تعالى، وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً يرجع الخلق كلهم إليه، ويقتدون به في جميع الأفعال.

ومن انفك عن جميع هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين العباد والبلاد، لأنه قد قرب من الشيطان.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾[1].

فالإيمان بالله ورسوله من غير ارتياب هو قوّة اليقين وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة. والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوّة الشهوة. والمجاهدة للنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال، وقد وصف الله تعالى بها أصحاب الرسول ﷺ فقال:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

فأشار تعالى إلى أن للشدة موضعاً وللرحمة موضعاً وليس الكمال في الشدة في كل الحالات ولا في الرحمة في كل الحالات أيضاً.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

قابلية الأخلاق للتغيير

إن بعض من غلبت عليه البطالة استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، لقصوره ونقصه وخبث داخله. فزعم أن الأخلاق لا يتصوّر تغييرها وأن الطباع لا تتغير، واستدل على ذلك بأمرين:

الأول: إن الخُلق هو صورة الباطن كما أن الخَلق هو صورة الظاهر. والخلقة الظاهرة لا يمكن تغييرها، فالطويل لا يقدر أن يجعل نفسه قصيراً، ولا القصير يقدر على أن يجعل نفسه طويلاً. فكذلك هي الأخلاق الباطنة تجري هذا المجرى فلا يمكن تغييرها.

الثاني: إن الغضب والشهوة في مقتضى المزاج والطبع، وأنهما قط لا ينقلعان عن الآدمي، فاشتغاله بقمعهما بطول المجاهدة تضييع للزمان بغير فائدة، لأن المطلوب قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة وهذا محال.

والصحيح أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت إذاً الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما قال رسول الله ﷺ:

«حسنوا أخلاقكم»[1].

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس.

وكيف ينكر ذلك في حق الآدمي وتغيير خلق الحيوان ممكن؛ فالفرس مثلاً يمكن أن ينتقل من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وهذا تغير في الأخلاق. إن الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكامل حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلاً، أما لو أردنا إسلاسهما وانقيادهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه، بل قد أمرنا بذلك فصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى.

نعم إن الجبلات مختلفة فبعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول، ولاختلافها سببان:

الأول: قوة الغريزة في أصل الخلقة والجبلّة، فإن قوّة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان، ولكن أصعبها أمداً وأعصاها على التغيير قوة الشهوة، فإنها أقدم وجوداً.

الثاني: إن الخُلق يتأكد من خلال كثرة العمل بمقتضاه والطاعة له، وباعتقاد كونه حسناً ومرضياً والناس فيه على أربع مراتب:

١ ـ هو الإنسان الذي بقي على فطرته الأولى، خالياً من الاعتقادات الفاسدة، ولم تتسم شهوته باتباع اللذات. فهذا الإنسان يكون سريع القبول للعلاج، بحيث إنه لا يحتاج إلى معلم مرشد وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة.

٢ ـ هو الإنسان الذي يعرف قبح القبيح، لكنه لم يتعوّد على القيام بالعمل الصالح، بل زين له سوء عمله، فتعاطاه انقياداً لشهواته، وهو يعلم أنه مقصّر في عمله. وأمر هذا الإنسان أصعب من الأول لأن عليه وظيفتين:

الأولى: قلع ما رسخ في نفسه من كثرة التعوّد على الفساد.

الثاني: أن يغرس في نفسه صفة التعوّد على الصلاح.

ولكنه بشكل عام قادر على الرياضة والمجاهدة إن هو نهض للقيام بهذا العمل بحزم فشمر عن ساعد الجد.

٣ ـ هو الإنسان الذي يعتقد أن الأخلاق القبيحة واجبة ومستحسنة وإنها حق فتربى على ذلك. مثل هكذا إنسان تكاد تمتنع معالجته، فلا يرجى صلاحه إلا نادراً بسبب تضاعف أسباب الضلال.

٤ ـ هو الإنسان الذي وقع نشوؤه على الرأي الفاسد وتربيته أيضاً على العمل الفاسد، وهو يرى أن الفضيلة في كثرة الشرّ وهلاك النفوس، فيباهي به ظناً منه أن ذلك يرفع من قدره. وهذا من أصعب المراتب، وفي مثله قيل: ومن العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذئب.

إذاً فتخيّل أن الإنسان ما دام حياً لا يمكن أن ينقلع عنه الغضب والشهوة وحب الدنيا وسائر الأخلاق غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود في المجاهدة قمع هذه الصفات ومحوها بالكامل!

هيهات إن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلّة. فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكامل لم يتمكن الإنسان من أن يدفع عن نفسه ما يهلكه...

فليس المطلوب إماطة ذلك بالكامل، بل المطلوب ردّ هذه الشهوات إلى حد الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط.

فالمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية، وذلك بأن يخلو من التهور والجبن، وبالجملة أن يكون في نفسه قوياً ومع ذلك تكون قوته هذه منقادة للعقل. ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1]. فوصف الله تعالى أصحاب الرسولﷺ بالشدة، وهذه الشدة إنما تصدر عن الغضب، فلو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفار!

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

وكيف يقصد قلع الغضب والشهوة بالكامل، والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك، وقد قال سيدهم صلى الله عليه وسلم:

«إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر»[1].

وقد كان يتكلم بين يديه بما يكرهه، فيغضب حتى تحمرّ وجنتاه، ولكن لا يقول إلا حقاً، فكان الغضب لا يخرجه عن الحق. قال الله تعالى:

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾[2].

إذن من الممكن ردّ الغضب والشهوة إلى الاعتدال، فيكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما، وهو المراد بتغيير الخلق. فإنه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها، وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال. والتجربة والمشاهدة تدلان على أن ذلك ممكن دلالة لا يشك فيها أبداً.

فالمطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين. إن السخاء خلق مطلوب شرعاً وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير، وقد أثنى الله تعالى عليه فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾[4].

---

(١) أخرجه مسلم: ج٨ ص٢٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

وكذلك فإن المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال أيضا دون الشره والخمود، حيث قال تعالى:

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[1].

وقد قال رسول الله ﷺ: «خير الأمور أوسطها»[2]، وهذا له سرّ وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب من عوارض هذا العالم، كما قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[3].

والبخل من عوارض الدنيا، وشرط القلب أن يكون سليماً وغير ملتفت إلى المال ولا الحرص على إنفاقه. فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إليه أيضاً. فكمال القلب في أن يصفو عن كلا الوصفين معاً.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.
(٢) أخرجه البيهقي في الشعب.
(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨ ـ ٨٩.

بعض علامات حسن الخلق

إن كل إنسان جاهل بعيب نفسه، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ربما يظن أنه قد هذب نفسه وحسّن خلقه حتى صار مستغنياً عن المجاهدة، لذا كان لا بد من إيضاح علامات حسن الخلق وبيانها. وباختصار؛ إن حسن الخلق هو الإيمان وسوء الخلق هو النفاق. وقد ذكر الله سبحانه صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق، ولنورد جملة منها ليعلم بها حسن الخلق.

قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾[1].

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١ ـ ١١.

وقال عز وجل:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾[1].

وقال عزّ اسمه:

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾﴾[3].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٢.

(٢) سورة الأنفال، الآيات: ٢ ـ ٤.

(٣) سورة الفرقان، الآيات: ٦٣ ـ ٦٨.

فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة على حسن الخلق. وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقال ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

وقال ﷺ:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[2].

وقال ﷺ:

«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً»[3].

وقال ﷺ:

«إذا رأيتم الرجل (المؤمن) قد أعطي الزهد في الدنيا وقلّة منطقٍ فاقتربوا منه فإنه يلقّن الحكمة»[4].

وقال ﷺ:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[5].

وفي رواية أخرى:

«فليكرم جاره»[6].

---

(١) البخاري: ج١ ص١١.
(٢) صحيح مسلم: ج١ ص٤٩.
(٣) أخرجه أبو داود: ج٢ ص٥٢٣.
(٤) أخرجه ابن ماجة في السنن.
(٥) (٦) صحيح مسلم: ج١ ص٤٩.

وقال النبي ﷺ:

«من سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»[1].

وقال ﷺ:

«لا يحلّ لمؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه»[2].

وقال ﷺ:

«لا يحلّ لمسلم أن يروّع مسلماً»[3].

وقال ﷺ:

«إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عز وجل، فلا يحلّ لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكرهه»[4].

وسئل رسول الله ﷺ عن علامة المؤمن والمنافق فقال:

«إن المؤمن همّته في الصلاة والصيام والعبادة، والمنافق همّته في الطعام والشراب كالبهيمة».

وروي:

«إن علياً عليه السلام دعا غلاماً له فلم يجبه، فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعاً فقال عليه السلام: أما تسمع يا غلام، فقال: نعم. قال: فما حملك على ترك جوابي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال عليه السلام: امض فأنت حرّ لوجه الله»[5].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد.

(٣) أخرجه أبو داود: ج٢ ص٥٩٧.

(٤) أخرجه أبو الشيخ في الجامع الصغير.

(٥) أورده ابن شهرآشوب في المناقب.

حسن الخلق مرجعه الاعتدال

إن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوّة العقل بكمال الحكمة، وإلى اعتدال قوّة الغضب والشهوة من خلال طاعتهما للعقل والشرع. وهذا الاعتدال يحصل على وجهين:

● الأول: بجود إلهي وكمال فطري بحيث إن الإنسان يخلق ويولد منذ البداية كامل العقل، حسن الخلق، قد كفي سلطان الشهوة والغضب، فهما معتدلتين ومنقادتين للعقل والشرع، فيصير بغير معلم عالماً وبغير مؤدّب متأدِّباً، كعيسى ويحيى عليهما السلام وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام. ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب وذلك من خلال إما:

- التعلم.
- مخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق.

● الثاني: من خلال الرياضة والمجاهدة. وذلك من خلال حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب.

فمن أراد الحصول على الجود عليه أن يتكلف في البداية فعل الجود، فيواظب عليه فترة تكلفاً، مجاهداً نفسه حتى يصير ذلك طبعاً له فيصبح جواداً. وكذلك من أراد أن يحصل له خلق التواضع فطريقه المواظبة على أفعال المتواضعين مدّة مديدة حتى يصير ذلك خلقاً له وطبعاً.

وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق، وغايتها وعلامتها أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً. فالسخي هو الذي يستلذ ببذل المال، والمتواضع هو الذي يستلذ التواضع. ولن تترسخ الأخلاق الدينية في النفس ما لم تتعود على القيام بجميع العادات الحسنة وترك جميع العادات السيئة، وما لم يواظب عليها مواظبة من يشتاق معها إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم منها.

ثم لا يكفي في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون كذلك على الدوام.

وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل. ولذلك لما سئل رسول الله ﷺ عن السعادة قال: «طول العمر في طاعة الله»[1]، ولذلك كره الأنبياء والأولياء عليهم السلام الموت، فإن الدنيا مزرعة الآخرة. فكلما كانت العبادات أكثر بسبب طول العمر، كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر، والأخلاق أقوى وأرسخ.

وإن غاية الأخلاق أن ينقلع حب الدنيا من النفس ويترسخ فيها حب الله تعالى. فلا يكون شيء أحب إليه من الله سبحانه ومن لقائه. فلا يستعمل ماله إلا على الوجه الذي يوصله إلى هذا الهدف، وكذلك غضبه وشهوته لا يستعملهما إلا على الوجه الذي يوصله إلى الله سبحانه، وذلك من خلال موازنتهما بميزان الشرع والعقل.

وإن ميل القلب إلى حب الله ومعرفته وعبادته هو مقتضى الفطرة الإنسانية والطبع، فهو أمر رباني. أما ميله إلى مقتضيات الشهوات فهو غريب وعارض على طبعه. فغذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله تعالى.

---

(١) أخرجه القصاعي في مسند الشهاب.

ولكن انصرف القلب عن مقتضى طبعه بمرض حلّ به، فكل قلب مال إلى حب شيء سوى الله فلا ينفك عن مرض بقدر ميله، إلا أن يحب ذلك الشيء لكونه معيناً له على حب الله وطاعته.

إذن الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً في النهاية. وهذا من عجيب العلاقة التي بين القلب والجوارح أو النفس والبدن، بمعنى آخر فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى تتحرك على وفقها، وبدوره كل فعل يجري على الجوارح فإنه يرتفع منه أثر إلى القلب. ويتضح ذلك بمثال وهو: إن من أراد أن يصير الحذق في الكتابة صفة نفسية له حتى يصير كاتباً بالطبع؛ فلا طريق له إلى ذلك إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدّة فيقلد الخط الحسن ويتشبه به تكلفاً، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير ذلك صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه في النهاية الخط الحسن طبعاً. فالخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً ولكن الأول بتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى النفس ثم انخفض من النفس أثر إلى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع.

إذن قد عرفت أن الأخلاق الحسنة:

١ ـ تارة تكون بالطبع والفطرة.

٢ ـ وتارة باعتياد الأفعال الجميلة.

٣ ـ وتارة بمشاهدة أرباب الأفعال الجميلة ومصاحبتهم. وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح.

فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلّما فهو في غاية الفضيلة.

ومن كان رذيلاً بالطبع واتفق له أقران السوء فتعلم منهم وتيسّرت

له أسباب الشرّ حتى تعوّدها، فهو في غاية البعد عن الله تعالى.

ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صفته وحالته:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[1].

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ ـ ٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٣.

طريق معرفة عيوب النفس

إن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً بصّره بعيوب نفسه. ومن كملت بصيرته لم تخف عليه عيوبه. وإذا عرف الإنسان عيوبه أمكنه علاجها. ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه. ومن أراد أن يقف على عيب نفسه فله أربعة طرق:

الأول: أن يجلس بين يدي بصير بعيوب النفس، مطّلع على خفايا الآفات، فيحكّمه على نفسه، ويتّبع إشارته في مجاهداته، وهذا قد عزّ في هذا الزمان وجوده.

الثاني: أن يطلب صديقاً؛ صدوقاً بصيراً متديناً، فينصّبه رقيباً على نفسه ليراقب أحواله وأفعاله، فينبّهه على ما يكرهه في أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة.

وكل من كان أوفر عقلاً وأعلى منصباً كان أقل إعجاباً بنفسه وأكثر اتهاماً لها. إلا أن هذا أيضاً قد عزّ، فقل من الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب، أو يترك الحسد فلا يزيد على القدر الواجب!! وقد كانت رغبة ذوي الدين وسرورهم في أن ينبهوا على عيوبهم بنصيحة غيرهم، أما نحن فقد صار أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرّفنا عيوبنا، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على ضعف الإيمان! فإن الأخلاق السيئة حيات وعقارب لادغة، فإن نبهنا منبّه على وجود عقرب تحت

ثوبنا لتقلدنا منه منّة وفرحنا به واشتغلنا بإبعاد العقرب وقتله، رغم أن أذاها على البدن فقط وألمها لا يدوم طويلاً. أما الأخلاق السيئة فإن أذاها يقع في صميم القلب، ويمكن أن يدوم إلى ما بعد الموت.

ثم إننا لا نفرح بمن ينبهنا على هذه الأخلاق الردية، ولا نشتغل بإزالتها بل نعمد إلى مقابلة الناصح بالمثل، فنقول له مثلاً: أنت أيضاً تصنع كيت وكيت، فتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه. والسبب في ذلك قساوة القلب التي أثمرته كثرة الذنوب، وأصل كل ذلك كما ذكرنا هو ضعف الإيمان.

الثالث: أن يطلع على عيوب نفسه من لسان أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساوىء. ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره بعيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه. إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو، وحمل ما يقوله على الحسد. ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع من أقوال أعدائه فإن مساويه لا بد وأن تنتشر على ألسنتهم.

الرابع: أن يخالط الناس، فما يجده مذموماً بينهم يطالب نفسه بتركه، وما يراه محموداً يطالب نفسه بفعله والتحقق به.

فإن المؤمن مرآة المؤمن فيرى في عيوب غيره عيوب نفسه. وليعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى، فما يتصف به أحد الأقران لا ينفك من أصله القرين الآخر أو عن شيء منه. فعليه أن يتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمّه في غيره.

وناهيك بهذا تأديباً، إذ لو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدِّب.

قيل لعيسى عليه السلام من أدّبك؟ فقال عليه السلام:

«ما أدبني أحد، رأيت جهل الجاهل فجانبته».

هذا كله حال من قد فقد شيخاً زكياً عارفاً، بصيراً بعيوب النفس، شفقاً ناصحاً في الدين، فارغاً من تهذيب نفسه، مشغولاً بتهذيب عباد لله، فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذي يخلّصه من رضه، وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده.

الشروط والمقدمات الأساسية لحسن الخلق

إن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريداً حرث الآخرة، مشتاقاً إليها، سالكاً سبيلها، مستهيناً بنعيم الدنيا ولذاتها. ومن لم يكن مريداً لحرث الآخرة ولا طالباً للقاء الله لعدم إيمانه بالله ورسوله واليوم الآخر.

فالمانع من الوصول هو عدم السلوك والمانع من السلوك عدم الإرادة، والمانع من الإرادة عدم الإيمان، والسبب في عدم الإيمان عدم وجود الهداة المُذَكِّرين والعلماء بالله الهادين إلى طريقه والمنبهين إلى حقارة الدنيا وزوالها وإلى عِظم أمر الآخرة ودوامها.

فالخلق غافلون قد انهمكوا في شهواتهم وغاصوا في رغباتهم، وليس في علماء الدين من ينبههم. فإن تنبّه منهم متنبّه عجز عن سلوك الطريق لجهله. وإن طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين إلى الهوى عادلين عن نهج الطريق. فصار ضعف الإرادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سبباً لخلو طريق الله من السالكين.

فكلما كان المطلوب محجوباً والدليل مفقوداً والهوى غالباً والطالب غافلاً، امتنع الوصول وتعطلت الطرق. وإن تنبّه متنبه من نفسه أو من تنبيه غيره فانبعثت في داخله إرادة لحرث الآخرة وتجارتها، فينبغي أن يعلم أن له شروطاً لا بد من الالتزام بها، وله معتصم لا بد من التمسك به، وله حصن لا بد من التحصّن به لكي يأمن من الأعداء

القطاع لطريقه. كما أن عليه وظائف لا بد له من ملازمتها عند سلوك الطريق.

أما الشروط التي لا بد من الالتزام بها ورعايتها لنيل إرادة السلوك والمجاهدة فترجع في مجموعها إلى أمر أساسي وهو: رفع السدّ والحجاب الذي بين العبد والحق.

فإن حرمان الخلق وبعدهم عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السدّ على طريق الله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾[1].

والسد الذي يفصل بين المريد والحق له أربع ركائز:

١ ـ المال.

٢ ـ الجاه.

٣ ـ التقليد.

٤ ـ المعصية.

ـ وإنما يرتفع حجاب المال بأن يفرّقه ويخرجه عن ملكه حتى لا يبقى معه إلا قدر ضرورته. فما دام عنده درهم يلتفت إليه قلبه فهو مقيّد به محجوب عن الله تعالى.

ـ وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن مواضع الجاه وبالتواضع والهرب من أسباب الذكر.

ـ وإنما يرتفع حجاب التقليد بترك التعصب، وذلك بأن يترفّع عن كل معبود له سوى الله، وأعظم معبود له هو الهوى. فإذا فعل ذلك

---

(١) سورة يس، الآية: ٩.

انكشفت له حقيقة اعتقاده الذي تلقفه تقليداً. وينبغي أن يطلب كشف ذلك بالمجاهدة لا بالمجادلة، وبالتمسك بحبل أهل البيت عليهم السلام، الذين هم مشايخنا وحصوننا، فالانتماء إليهم شرط الاهتداء لأحكام الدين.

ـ وأما المعصية فهي حجاب أيضاً لا يرفع إلا بالتوبة والخروج عن المظالم، والتصميم على ترك العود إليها، والندم على ما مضى وردّ المظالم. فإن من لم يصحح التوبة ولم يهجر المعاصي الظاهرة، وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة، كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وهو لا يعلم لغة العرب!!

كذلك لا بد عليه من تصحيح ظاهر الشريعة من خلال امتثال الأوامر والانزجار عن النواهي، ثم الترقي إلى أغوارها وأسرارها.

فإذا قدم هذه الشروط كان حينئذ كمن تطهر وتوضّأ ورفع الحدث، فصار صالحاً للصلاة.

ثم لا بد لمن أراد الشروع في تحصيل العلم المكنون أن يكون شاباً صحيح المزاج، ذكياً أميناً عفيفاً صدوقاً مهذّب الأخلاق مبرّءاً عن الرياء والنفاق، مبغضاً لفضول الدنيا معرضاً عن المكر والغدر والخيانة ونحوها، معظماً للعلم والعلماء، مقبلاً على الوظائف الشرعية فرائضها ونوافلها بعد تعلم أحكامها ومعرفة حلالها وحرامها. فقد قال إمامنا الصادق عليه السلام:

«إن آية الكذاب أن يخبرك بخبر السماء والأرض فإذا سئل عن شيء من مسائل الحلال والحرام لم يكن عنده شيء»[1].

ثم بعد ذلك يعمد إلى الاشتغال بتحصيل هذا العلم من طريقه وعلى وجهه من خلال تقديم الإتيان بالفرائض أولاً ثم النوافل ثم مراعاة

---

(١) الكافي: ج٢ ص٣٤٠.

الآداب والسنن ثم الصبر على البلايا والمحن وملازمة الذكر ومداومة الفكر حسب الميسور، والتخلي عن الشهوات النفسانية والخواطر الشيطانية بحسب المقدور، وجعل الهموم هماً واحداً مع إخلاص النية والعمل بما يتعلمه شيئاً فشيئاً، ومراقبة النفس آناً فآناً حتى يصير العلم عياناً له بعد يقين، فيترقى من علم اليقين إلى عين اليقين ثم إلى حق اليقين. والعمدة فيه إذاً الزهد في الدنيا ومتابعة الشرع عن طريق أئمة الهدى عليهم السلام وملازمة التقوى. قال الله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[2].

وقال عز وجل:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[3].

وقال عزّ اسمه:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٤) سورة الطلاق، الآيتان: ٢ ـ ٣.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«إن من أحبّ عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه... قد خلع سرابيل الشهوات وتخلى من الهموم إلا هماً واحداً انفرد به، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى وصار من مفاتيح أبواب الهدى، ومغاليق أبواب الرَّدى، قد أبصر طريقه، وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع غماره، واستمسك من العرى بأوثقها، ومن الحبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس»[1].

إذن منتهى الرياضة أن يجد المريد قلبه مع الله أبداً، ولا يمكن ذلك إلا بعد خلوّه من غير الله، ولا يخلو من غيره إلا بطول المجاهدة. فإذا صار قلبه مع الله انكشف له جلال الحضرة الربوبية وتجلّى له الحق وظهر له من لطائف رحمة الله ما لا يجوز أن يوصف بل لا يحيط الوصف به أصلاً. وإذا انكشف للمريد شيء من ذلك فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظاً أو نصحاً أو يتصدى للتذكير، حيث تجد النفس فيه لذّة ليس وراءها لذّة، فتدعوه تلك اللّذة إلى أن يتفكر في كيفية إيراد تلك المعاني وتحسين الألفاظ المعبّرة عنها وترتيب ذكرها وتزيينها بالحكايات والشواهد القرآنية والأخبار، وتحسين صورة الكلام لتميل إليه القلوب والأسماع. وربما يخيل إليه الشيطان أن هذا منك إحياء لقلوب الموتى الغافلين عن الله، وإنما أنت واسطة بين الله والخلق لدعوة عباده إليه، فليس لك فيه نصيب ولا لنفسك فيه لذة. ويتضح كيد الشيطان عندما يظهر في أقرانه من هو أحسن كلاماً منه وأجزل لفظاً، وأقدر على

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ٨٥.

جلب قلوب العوام، فيتحرك في باطنه عقرب الحسد لأن محركه في البداية لم يكن إلا لذة القبول. أما إن كان محركه هو الحق حرصاً منه على دعوة عباد الله عز وجل إلى صراطه فإنه سيعظم به فرحه حتى يقول: الحمد لله الذي عضدني وأيدني بمن يوآزرني على إصلاح عباده. ولكن هذا عزيز الوجود جداً، لذا على المريد أن يكون على حذر من هذه المكيدة فإنها من أعظم حبائل الشيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل هذا الطريق. فإن إيثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان ولذلك قال الله تعالى:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾[1].

ثم بين سبحانه أن الشرّ قديم في الطباع وهو غالب على الإنسان فقال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾[2].

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ١٦.

(٢) سورة الأعلى، الآيتان: ١٨ ـ ١٩.

طريق حسن الخلق

إن مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل وكسب الفضائل مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه.

فكل مولود يولد معتدلاً صحيحاً على الفطرة وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، فكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بواسطة الغذاء، فإن النفس كذلك تخلق ناقصة ولكن عندها قابلية للكمال. وإنما تكمل النفس بالتزكية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم.

وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب المحافظة على صحته، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه، فكذا النفس إن كانت زكية وطاهرة، مهذبة الأخلاق فينبغي المحافظة على طهارتها والسعي لاكتساب الزيادة، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن يسعى الإنسان لتكميلها وتهذيبها. والرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها، فيعالج مرض الجهل بالتعلم ومرض البخل بالتسخي ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره بالكف عن المشتهيات تكلفاً.

وكما أنه لا بد من تحمّل مرارة الدواء عند المرض، فكذلك لا بد من تحمّل مرارة المجاهدة والصبر عند مداواة مرض القلب. بل إن مرض القلب أولى بالتحمل والصبر، فمرض البدن يحصل منه الموت

ومرض القلب والعياذ بالله يحصل منه عذاب يدوم إلى ما بعد الموت وربما إلى أبد الآباد.

والنقيض الذي يعالج به الخلق الفاسد لا بد له من عيار يناسب حال المريض، فإن عيار الدواء مأخوذ من عيار العلة. لذا على الشيخ الذي يطبّب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم. فكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم، بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي سنّه وحاله ومزاجه وما يحتمله من الرياضة ثم بعد ذلك يصف له التكليف المناسب له.

إن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق لأجله، فمرض العين بأن يتعذر عليها الإبصار ومرض الرِّجل بأن يتعذر عليها السير. فكذلك مرض القلب هو أن يتعذر عليه القيام بوظيفته التي خلق من أجلها وهي العلم والحكمة والمعرفة وحب الله وعبادته والتلذذ بذكره. قال الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[(١)].

فالإنسان لم يتميّز عن الحيوان بالقوة على الأكل والوقاع والإبصار وغيرها، بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه، وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله تعالى، فلو عرف الإنسان كل شيء ولم يعرف الله فكأنه لم يعرف شيئاً. وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله أحبّه، وعلامة المحبة أن لا يؤثر على الله تعالى الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى:

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

فمن كان عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض. فهذه علامات المرض وبهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله.

وميزة أمراض القلب أنها قد تخفى على صاحبها فيغفل عنها فتكون معرفته بها أمراً صعباً. وإن علم بها صعب عليه الصبر على مرارة علاجها، فإن دواؤها مخالفة الشهوات، وهو بمثابة نزع الروح من البدن.

وإن وجد من نفسه قوّة الصبر لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى المرض عليهم أيضاً!!

ولهذا صار الداء عضالاً والمرض مزمناً واندرس هذا العلم وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها وأقبل الخلق على حب الدنيا وهذه علامة أصل المرض. أما علامة الرجوع إلى الصحة فهو أن ينظر الإنسان في العلة التي يعالجها، فإن كان يعالج داء البخل فعلاجه ببذل المال وإنفاقه، ولكنه قد ينفق المال إلى حد يصير مبذراً فيكون التبذير أيضاً داء، فالمطلوب إذاً الاعتدال بين التقتير والتبذير حتى يكون على الحد الوسط في ذلك.

وإن أردت أن تعرف الحد الوسط المطلوب فانظر إلى الفعل الذي يوجبه الخلق المذموم، فإن كان أسهل عليك وألذّ من الذي يضاده

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

فالغالب عليك إذاً ذلك الخلق المذموم الموجب لهذا الفعل. مثل أن يكون إمساكك عن المال وجمعه ألذ عندك وأيسر من بذله لمستحقه، عندها اعلم أن الغالب عليك خلق البخل، فزد في المواظبة على البذل فإن صار البذل على غير المستحق ألذّ عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير، فارجع إلى المواظبة على الإمساك، ولا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسّر الأفعال وتعسّرها حتى تنقطع علاقة قلبك بالمال فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه بل يصير عندك كالماء، فلا تمسكه أو تبذله إلا لحاجة محتاج، وعندها لا يترجح عندك البذل على الإمساك ولا الإمساك على البذل. وكل قلب صار كذلك فقد أتى الله بقلب سليم. فالقلب ينبغي أن يكون سليماً من الأخلاق الفاسدة حتى ينقطع تعلقه بالدنيا، فترتحل النفس عن الدنيا وهي خالية من شوب العلائق غير ملتفتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها، فعند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة، الراضية المرضية، الداخلة في زمرة عباد الله من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض بل هو أدقّ من الشعر وأحد من السيف، فلا جرم إذاً أن من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا جاز على مثله في الآخرة.

وقلّما ينفك العبد عن ميل إلى أحد الجانبين ولذلك لا ينفك الإنسان عن عذاب ما واجتياز على النار وإن كان اجتيازه سريعاً كالبرق ولذلك قال الله تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾[١].

(١) سورة مريم، الآيتان: ٧١ ـ ٧٢.

إذاً فمن أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة، فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه، وليعدّدها وليشتغل بعلاجها على الترتيب.

وشواهد الشرع على أن طريق معالجة أمراض القلب هو بترك الشهوات منها قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾[2]. قيل: أي نزع منها حب الشهوات.

وقال رسول الله ﷺ:

«المؤمن بين خمس شدائد: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وكافر يقتله، وشيطان يضلّه، ونفس تنازعه»[3] فبيّن ﷺ أن النفس عدو منازع يجب مجاهدته.

وروي أن الله عز وجل أوحى إلى داود عليه السلام:

«يا داود حذّر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة»[4].

---

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ ـ ٤١.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ٣.
(٣) أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق.
(٤) رواه المفيد في الاختصاص: ص٣٣٥.

وقال عيسى عليه السلام:

«طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غائب لم يره»[1].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقوم قدموا في الجهاد:

«مرحباً بكم قدمتم من الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فقيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس»[2].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل»[3].

وقال علي عليه السلام:

«من اشتاق إلى الجنّة سلا عن الشهوات»[4].

إذن الطريق إلى سعادة الآخرة لا يتم إلا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات. وحاصل الرياضة وسرّها أن لا تتمتع النفس بشيء مما لا يوجد معها في القبر إلا بقدر الضرورة، فيكون مقتصراً من الأكل والنكاح واللباس والمسكن وكل ما هو مضطر إليه على قدر الحاجة والضرورة.

أما لو تمتع بشيء منها فأنس به وألفه فإنه إذا مات تمنى الرجوع إلى الدنيا بسببه، ولا يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا من لا حظّ له في الآخرة، ولا خلاص له من هذه التعلقات إلا بعد أن يصير القلب

---

(١) تنبيه الخواطر: ج١ ص٩٦.

(٢) الكافي: ج٥ ص١٢ ح٣.

(٣) أخرجه الترمذي.

(٤) نهج البلاغة: باب المواعظ والحكم رقم ٣٠.

مشغولاً بمعرفة الله تعالى وحبّه والتفكر فيه، ويقتصر من الدنيا على ما يدفع به عوائق الفكر والذكر فقط. ومن لم يقدر على حقيقة ذلك فليسعى للاقتراب منه والتحقق به، فالناس فيه أربعة:

١ ـ رجل استغرق قلبه بذكر الله فلا يلتفت إلى الدنيا إلا فيما هو من ضرورات العيش فهو من الصديقين. ولا ينتهي أحد إلى هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة والصبر عن الشهوات مدّة مديدة.

٢ ـ رجل استغرق قلبه بالدنيا فلم يبق لله عز وجل فيه ذكر إلا من حيث يذكره باللسان فقط، وهذا من الهالكين.

٣ ـ رجل اشتغل بالدنيا والدين ولكن الغالب على قلبه هو الدين، فهذا لا بد له من ورود النار إلا أنه ينجو منها سريعاً بقدر قوّة غلبة ذكر الله على قلبه.

٤ ـ رجل اشتغل بهما ولكن غلبت الدنيا على قلبه، فهذا يطول مقامه في النار، ولكن يخرج منها في النهاية لقوّة ذكر الله في قلبه وتمكنه منه. فالدنيا رأس كل خطيئة، والمباح الخارج عن قدر الحاجة هو من الدنيا أيضاً. وإصلاح القلب لا يتحقق ما لم تمتنع النفس عن التنعم بالمباحاة غير الضرورية، فإن النفس إذا لم تمتنع عن هذه المباحاة طمعت شيئاً فشيئاً في المحظورات.

فمن أراد أن يحفظ لسانه عن الغيبة والفضول فحقّه أن يلزم السكوت إلا عن الأمور الهامة حتى تموت شهوة الكلام عنده، فلا يتكلم إلا بالحق، فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة. وكذلك هو الأمر بالنسبة لسائر الشهوات، لأن ما يُشتهى به الحلال هو بعينه ما يشتهى به الحرام، فالشهوة واحدة. فإن لم يتعود العبد على الاقتصار على قدر الضرورة في الشهوات غلبته الشهوة. فهذه إحدى آفات المباحاة، ووراء هذه الآفة آفة أخرى أعظم هي أن النفس تفرح بالتنعم بالدنيا وتركن إليها

وتطمئن بها حتى تصير كالسكران الذي لا يفيق من السكر، ذلك لأن الفرح بالدنيا سمّ قاتل يسري في العروق فيخرج الحزن والخوف وذكر الموت وأهوال القيامة من القلب، وهذا هو معنى موت القلب. قال الله تعالى:

﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾[2].

فأولو الحزم من أرباب القلوب جرّبوا قلوبهم في حالة الفرح عند مؤاتاة الدنيا فوجدوها قاسية وبعيدة عن التأثر بذكر الله تعالى واليوم الآخر. وجربوها في حالة الحزن فوجدوها لينة رقيقة صافية قابلة لأثر الذكر، فعلموا أن النجاة في الحزن الدائم والتباعد عن أسباب البطر والفرح بالدنيا، ففطموا أنفسهم عن ملاذها وعوّدوها الصبر على شهواتها حلالها وحرامها، وعلموا أن حلالها حساب وهو نوع من العذاب، فخلّصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم في الدنيا والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورقها، والأنس بذكر الله تعالى والاشتغال بطاعته.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

فالنفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره إلا إذا فطمت عن عاداتها بالخلوة والعزلة أولاً لتحفظ السمع والبصر عن المألوفات.

ثم تعوّدت على الثناء والذكر والدعاء ثانياً في الخلوة حتى يغلب عليها الأنس بذكر الله عوضاً عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات. وهذا يكون ثقيلاً عليه في البداية ولكن لا يلبث أن يسهل عليه فيتنعم به في النهاية، وكل ذلك يتم بالصبر أياماً قلائل، فالعمر قليل بالإضافة إلى مدّة حياة الآخرة. فكل العمر بالنسبة إلى الأبد أقل من الشهر بالنسبة إلى عمر الدنيا، فلا بد من الصبر والمجاهدة: «فعند الصباح يحمد القوم السرى».

وطرق المجاهدة والرياضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله. والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا. فالذي يفرح بالمال أو الجاه أو العزّ أو بكثرة الأتباع، فينبغي أن يترك هذه الأمور التي بها فرحه أولاً، ثم يعتزل الناس وينفرد بنفسه ليراقب قلبه ثانياً، حتى لا يشتغل إلا بذكر الله والفكر فيه، وليترصد ما يبدو له في نفسه من شهوة ووسواس حتى يقمع مادتها. فإن لكل وسوسة سبباً، فلا تزول هذه الوسوسة إلا بقطع السبب، وعليه أن يلازم ذلك إلى بقية العمر، إذ ليس للجهاد نهاية ولا آخر إلا الموت.

تربية الأولاد وكيفية تأديبهم

إن الصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه.

فإن عوّد الخير نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب.

وإن عوّد الشر وأهمل شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيّم عليه. قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[1].

ومهما كان الأب يصون ولده من نار الدنيا فصونه من نار الآخرة أولى. وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوّده التنعم ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد.

بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا وقع عليه نشوء الصبي انعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث.

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

وإذا بدأت تظهر فيه علامات التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأوّل ذلك ظهور أوائل الحياء. فإذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل فيه. وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ. فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه.

وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدّب فيه. فيقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه من يكثر الأكل بالبهائم، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويمدح الصبي المتأدب القليل الأكل. ويحبب إليه الإيثار بالطعام وقلّة المبالاة به. ويحفظ الصبي من الصبيان الذين تعودوا التنعم والترفه ولبس الثياب الفاخرة.

فإن الصبي إذا أهمل في ابتداء نشوئه خرج في الأكثر رديء الأخلاق، فينبغي أن يحفظ بحسن التأديب. فيشتغل بتعلم القرآن وأحاديث الأخيار وحكايات الأبرار وأحوالهم حتى ينغرس في نفسه حب الصالحين.

ثم إذا ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود ينبغي أن يُكرم عليه ويجازى لأجله بما يفرحه ويمتدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشف به، لاسيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه، فإن إظهار ذلك ربما يؤدي به إلى الجسارة والجرأة حتى لا يبالي بالمكاشفة بعد ذلك، وإن عاد ثانية فينبغي أن يعاتب سراً، ولا تكثر عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهوّن عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه. وليكن الأب حافظاً لهيبة الكلام معه ولا يوبخه إلا أحياناً. وينبغي للأم أن تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح. وينبغي أن يمنع النوم نهاراً فإنه يورث الكسل.

وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في الخفية. ويعوّد المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل. ويعوّد التواضع والإكرام لكل من يعاشره، والتلطف معهم في الكلام، ويعلم أن الرفعة في العطاء لا في الأخذ.

وينبغي أن يمنع كثرة الكلام ويبيّن له أن ذلك يدل على الوقاحة. ويمنع من اليمين رأساً صدقاً أو كذباً حتى لا يتعود عليه في الصغر. ويمنع من أن يبتدىء بالكلام ويعوّد أن لا يتكلم إلا جواباً وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر سناً منه. وأن يقوم لمن فوقه، ويمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسبّ، ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك، فإنه يسري لا محالة إليه من قرناء السوء، فأصل تأديب الصبيان الحفاظ عليهم من قرناء السوء.

وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان. وينبغي أن يؤذن له بعد الفرغ من الدرس والتحصيل أن يلعب ويستريح من تعب الدرس. فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه بالتعلم الدائم يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه عيشه حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً.

وينبغي أن يعلّم طاعة والديه ومعلّمه ومؤدّبه وكل من هو أكبر سناً منه. وإذا بلغ سن التمييز ينبغي أن لا يسمح له بترك الطهارة والصلاة والصوم، ويجنب لبس الحرير والذهب، ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع، ويخوف من السرقة والكذب والخيانة والفحش وأكل الحرام، فيذكر له أن الأطعمة أدوية المقصود منها أن يقوى بها الإنسان على عبادة الله، وأن الدنيا كلها لا أصل لها إذ لا بقاء لها، وأن الموت

يقطع نعيمها، وأنها دار ممر لا دار مقرّ، وأنّ الآخرة دار مقرّ. وأن الموت ينتظر في كل ساعة، وأن الكيّس العاقل من تزوّد من الدنيا للآخرة حتى تعظم عند الله درجته ويتسع في الجنان نعيمه. فإذا كان النشوء صالحاً كان وقع هذا الكلام عند البلوغ مؤثراً فيثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر. فالصبي خلق بجوهره قابلاً للخير والشر وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين، لذا قال الرسول ﷺ:

«كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه»[1].

---

(١) صحيح مسلم: ج٨ ص٥٢.

شهوة
الطعام والنكاح

مقدمة

إن أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار. إذ نهيا عن الأكل من الشجرة، فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما.

والبطن ينبوع الشهوات ومنبت العلل والآفات، إذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات، ثم تتبع شهوة المطعم والمنكح شدة الرغبة في المال والجاه اللذين هما الوسيلة إلى التوسع في المطعومات والمنكوحات، ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات، ثم يتولّد من ذلك آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحسد والحقد والعداوة والبغضاء، ثم يفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء.

وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولّد منها من بطر الشبع والامتلاء، ولو ذلّل العبد نفسه بالجوع وضيّق به مجاري الشيطان لأذعنت لطاعة الله، ولم تسلك سبيل البطر والطغيان، ولم ينجرّ به الإنسان إلى الانهماك في الدنيا وإيثار العاجلة على العقبى ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا. وإذا صارت شهوة البطن عظيمة

إلى هذا الحد، وجب شرح غوائلها وآفاتها تحذيراً منها، ووجب إيضاح طريق مجاهدتها والتنبيه منها. وكذلك شرح شهوة الفرج فإنها تابعة لها، وهذا ما سنوضحه في الفصول اللاحقة.

فضيلة الجوع ومذمة الشبع

قال رسول الله ﷺ:

«جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش، فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله، وإنه ليس من عمل أحب إلى الله تعالى من جوع وعطش»[1].

وقال النبي ﷺ:

«لا يدخل ملكوت السماوات قلب من ملأ بطنه»[2].

وقال ﷺ:

«إن الله يباهي الملائكة بمن قلّ طعمه في الدنيا، يقول: انظروا إلى عبدي ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فتركهما لأجلي، اشهدوا يا ملائكتي ما من أكلة تركها لأجلي إلا أبدلته بها درجات في الجنة»[3].

وقال ﷺ:

«لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب

---

(١) ورد مضمونه في تحف العقول.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل.

كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء»[١].

وقال ﷺ:

«ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم لُقَيْمات يقمن صلبه فإن كان هو فاعلاً لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[٢].

وقال ﷺ لأسامة بن زيد:

«إن أقرب الناس إلى الله تعالى يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا، هم الأصفياء الأتقياء الذين إن شهدوا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا تعرفهم بقاع الأرض، وتحفّ بهم ملائكة السماء، نعم الناس بالدنيا ونعموا بطاعة الله، افترش الناس الفرش الوثيرة وافترشوا الجباه والركب، ضيعوا الناس فعل النبيين وأخلاقهم وحفظوها هم، تبكي الأرض إذا فقدتهم، ويسخط الله تعالى على كل بلدة ليس فيها منهم أحد، لم يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيف، أكلوا العلق ولبسوا الخرق شعثاً غبراً يراهم الناس فيظنون أن بهم داء وما بهم داء، ويقال: قد خولطوا وذهبت عقولهم، وما ذهبت عقولهم ما خولِطوا ولكن نظر القوم بقلوبهم إلى أمر الله الذي أذهب عنهم الدنيا فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول. عقلوا حيث ذهبت عقول الناس، لهم الشرف في الدنيا ولهم الشرف في الآخرة.

---

(١) الطبرسي في المكارم باب آداب الأكل ص١٧١.

(٢) الترمذي: ج٩ ص٢٢٤.

يا أسامة إذا رأيتهم في بلدة فاعلم أنهم أمان لأهل تلك البلدة، ولا يعذب الله تعالى قوماً هم فيهم. الأرض بهم فرحة، والجبار عنهم راض، اتخذهم لنفسك إخواناً عسى أن تنجو بهم. وإن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فافعل، فإنك تدرك بذلك شرف المنازل وتحلّ مع النبيين، ويفرح بقدوم روحك الملائكة، ويصلي عليك الجبار»[1].

وقال نبي الله عيسى عليه السلام:

«أجيعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم فلعل قلوبكم ترى الله عز وجل».

وفي التوراة مكتوب:

«إن الله يبغض الحبر السمين»، لأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل، وذلك قبيح في حق الحبر.

وفي الحديث:

«إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش».

وقال النبي صلى الله عليه وآله:

المؤمن يأكل في معي واحد والمنافق يأكل في سبعة أمعاء»[2].

أي يأكل سبعة أضعاف ما يأكله المؤمن، وتكون شهوته سبعة

(١) أخرجه الخطيب في الزهد.

(٢) البخاري: ج٧ ص٩٢. والصدوق في الخصال.

أضعاف شهوته. وروي أن أحدهم تجشأ في مجلس رسول الله ﷺ فقال له:

«أقصر في جشائك فإن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنيا»[1].

وقال ﷺ:

«أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة، وإن أبغض الناس إلى الله تعالى المتخمون الملأى، وما ترك عبد أكلة يشتهيها إلا كانت له درجة في الجنة»[2].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«قال رسول الله: بئس العون على الدين: قلب نخيب، وبطن رغيب، ونعظ شديد»[3].

وعن الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«كثرة الأكل مكروه»[4].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«إن البطن ليطغى من أكله، وأقرب ما يكون العبد إلى الله تعالى إذا جفّ بطنه، وأبغض ما يكون العبد إلى الله تعالى إذا امتلأ بطنه»[5].

---

(١) مجمع الزوائد: ج٥ ص٣١.

(٢) أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية.

(٣) الكافي: ج٦ ص٢٦٩. النخيب: الجبان الذي لا فؤاد له، وقيل فاسد العقل. الرغيب: الواسع، ويكنى به من كثرة الأكل. النعظ: الشبق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

وعن الإمام الباقرعليه السلام قال:

«إذا شبع البطن طغى»[1].

وعنه عليه السلام أنه قال:

«ما من شيء أبغض إلى الله من بطن مملوء»[2].

وعن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال:

«قلة الأكل محمود على كل حال وعند كل قوم، لأن فيه المصلحة للباطن والظاهر، والمحمود في المأكول أربعة: ضرورة وعدة وفتوح وقوت، فالضرورة للأصفياء، والعدّة لقوام الأتقياء، والفتوح للمتوكلين، والقوت للمؤمنين.

وليس شيء أضرّ لقلب المؤمن من كثرة الأكل، وهي مورثة شيئين: قسوة القلب وهيجان الشهوة. والجوع إدام للمؤمنين وغذاء للروح وطعام للقلب، وصحة للبدن. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما ملأ ابن آدم وعاء أشرّ من بطنه»[3].

(١) الكافي: ج٦ ص٢٧٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) مصباح الشريعة باب الأكل.

فوائد الجوع

إن للجوع عشر فوائد:

■ الفائدة الأولى: صفاء القلب:

إن الجوع يؤدي إلى صفاء القلب، وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة. والشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ فيؤدي إلى حالة تشبه السكر، فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار فيحرم الإنسان من سرعة الإدراك. قال النبي ﷺ:

«من شبع ونام قسا قلبه، ثم قال: إن لكل شيء زكاة وزكاة البدن الجوع»[1].

وقال ﷺ:

«أحيوا قلوبكم بقلّة الضحك والشبع، وطهروها بالجوع تصفو وتدق».

وقال ﷺ:

«نور الحكمة الجوع والبعد من الله الشبع، والقربة إلى الله حب المساكين والدنو منهم. لا تشبعوا فينطفىء نور المعرفة في قلوبكم، ومن بات يصلي في خفّة من

---

(١) أخرجه ابن ماجة: رقم ١٧٤٥.

الطعام باتت الحور العين حوله حتى يصبح»[١].

■ الفائدة الثانية: التلذذ والمناجاة والذكر:

إن رقة القلب وصفاءه يهيئه لإدراك لذّة المناجاة والتأثر بالذكر. فكم من ذكر يجري على اللسان ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر، حتى كأن بينه وبينه حجاباً من قساوة القلب، وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة. وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه.

■ الفائدة الثالثة: إدراك عجز النفس وضعفها:

إن الجوع يولد الإنكسار والذل وزوال الفرح والبطر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله. فالنفس لا تنكسر ولا تذل بشيء كما تذلّ بالجوع. فعندها تستكين لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها بسبب ما أصابها من الضعف لفوات الطعام عليها وتأخر الشراب عنها.

وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لن يرى عزة مولاه وقهره. وإنما تكمن سعادته في أن يشاهد نفسه ويراها دائماً بعين الذلّ والعجز وينظر إلى مولاه بعين العز والقدرة والقهر.

ولذلك لما عرض على رسول الله ﷺ الدنيا وخزائنها قال:

«لا بل أجوع يوماً وأشبع يوماً، فإذا جعت صبرت وتضرّعت وإذا شبعت شكرت»[٢].

■ الفائدة الرابعة: تذكر ألم الجائعين والمحتاجين:

إن الجوع سبب لتذكر بلاء الله وعذابه فيكون بذلك ذاكراً أهل

---

(١) الطبرسي في المكارم: ص١٧١.

(٢) أخرجه الترمذي.

البلاء فلا ينساهم. فالشبعان ينسى الجائعين كما وأنه ينسى الجوع أيضاً. والعبد الفطن لا يشاهد بلاء إلا ويتذكر معه بلاء الآخرة، فيتذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة، ومن جوعه جوع أهل النار. ولا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها، فإنه هو الذي يهيج الخوف من الله واليوم الآخر في النفس.

ومن لم يكن في قلة ولا علّة ولا ذلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة، فلم يحضر في نفسه ولم يغلب على قلبه.

بل ينبغي للعبد أن يقاسي البلاء ويشاهده دائماً، وأول ما ينبغي أن يقاسيه من البلاء بلاء الجوع، فإن فيه فوائد جمّة سوى تذكر عذاب الآخرة. ولهذا السبب اختص الأنبياء بالبلاء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل. ولذلك لما قيل ليوسفعليه السلام: لم تجوع وفي يديك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع. فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع التي تدعوه إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله. أما الشبعان ففي غفلة عن ألم الجائع.

■ الفائدة الخامسة: كسر مادة الشهوات:

وهي من أكبر الفوائد وأهمها، لأن الجوع سبب لكسر شهوات المعاصي كلها ولسيطرة النفس الأمارة بالسوء. فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات ومادة الشهوات لا محالة الأطعمة، فتقليلها يضعف الشهوة. فالسعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه والشقاوة كلها في أن تملكه نفسه.

وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج والكلام، فالجائع لا تتحرك عليه شهوة فضول الكلام، فيتخلص من آفات اللسان، كالغيبة والنميمة والكذب والفحش وغيرها. وقد قال النبيﷺ:

«لا يكبّ الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم»[1].

أما شهوة الفرج فلا تخفى غائلتها والجوع يكفي شرّها، فإذا شبع الرجل لا يملك فرجه وإن منعته التقوى فلا يملك عينيه، فالعين تزني كما يزني الفرج، وإن ملك عينيه بغطاء التقوى لم يملك فكره، فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث ما يشوش به مناجاته وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة. وإنما ذكرنا آفة الفرج واللسان مثالاً، وإلا فجميع معاصي الأعضاء السبعة سببها الشبع.

■ الفائدة السادسة: قلة النوم:

إن من شبع شرب كثيراً ومن كثر شربه كثر نومه. وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب. والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد الذي به يتّجر. ثم إن فضيلة التهجد ليست خافية وفي النوم فواتها.

■ الفائدة السابعة: الجوع ييسر المواظبة على العبادة:

إن كثرة الأكل تمنع من المواظبة على العبادات، لأن الإنسان يحتاج أن يشتغل فيه بالأكل، وإلى شراء الطعام وطبخه أيضاً، ثم إلى غسل الأواني، ثم يكثر تردداه إلى بيت الماء لكثرة شربه، والأوقات المصروفة على هذه الأمور لو صرفها في الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه.

■ الفائدة الثامنة: صحة البدن:

يستفاد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض. فإن سبب

---

(١) الكافي: ج٢ ص١١٥.

الأمراض كثرة الأكل الذي يمنع أيضاً من العبادات كما ذكرنا، ويشوش القلب ويمنع من الفكر والذكر وينغّص العيش، فيحوج إلى الدواء والطيب وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يخلو الإنسان منها بعد التعب من أنواع المعاصي واقتحام الشبهات وفي الجوع ما يدفع عنه كل ذلك.

قال النبي ﷺ:

«البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء، وعودوا كل بدن ما اعتاد»[1].

■ الفائدة التاسعة: خفة المؤونة:

فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير، والذي تعوّد الشبع صار بطنه غريماً ملازماً له يأخذ بمخنقه كل يوم فيقول له: ماذا تأكل اليوم؟ فيحتاج إلى أن يدخل المداخل..

■ الفائدة العاشرة:

قلة الطعام تمكن الإنسان من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على المحتاجين، فيكون يوم القيامة في ظل صدقته كما جاء في الخبر. أما ما يأكله فخزانته الكنيف، وما يتصدق به فخزانته فضل الله. فليس للعبد من ماله إلا ما تصدّق فأبقى، أو أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، التصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع.

نظر رسول الله ﷺ إلى رجل سمين البطن فأومأ بإصبعه إلى بطنه وقال:

---

(١) نقله صاحب المكارم: باب آداب المريض.

«لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك»[1].

أي لو قدمته لآخرتك وآثرت به غيرك.

فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعب عن كل فائدة فوائد لا تنحصر حدودها ولا تتناهى فروعها. فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة. ولذلك قيل: الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة.

---

(١) أخرجه الطيالسي: ص١٧١.

مراعاة منهج الاعتدال

إن المطلوب الأقصى في جميع الأحوال والأخلاق الحد الوسط، إذ خير الأمور أوسطها. وما أوردناه في فضائل الجوع ربما يومي إلى أن الإفراط فيه مطلوب، ولكن هيهات. فإن من أسرار حكمة الشريعة أن كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد ما جاء الشرع ومنعه على وجه يومي للجاهل أن المطلوب العمل بضده ما أمكن، والعالم يدرك أن المقصود هو الحد الوسط وهو الاعتدال.

إن قمع الطبع بشكل كامل أمر بعيد وقد نهى الشرع عن الإسراف في مفادّة الطبع. فالشرع كما أنه بالغ في الثناء على قيام الليل وصيام النهار ولكن لما علم النبيﷺ في حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن الأفضل إلى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بألم الجوع، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلاً. فإن المقصود من الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة، وثقل المعدة يمنع من العبادة، كما أن ألم الجوع أيضاً يشغل القلب ويمنع منها.

فالمقصود أن يأكل أكلاً معتدلاً بحيث لا يبقى للأكل فيه أثر فيتشبّه بالملائكة المقدسين عن ثقل الطعام وألم الجوع.

فالشهوات محيطة بالإنسان ولا مطمع للإنسان في التشبه بالملائكة إلا باختيار النحو الوسط والبعد عن الأطراف. ولذلك قال النبيﷺ:

«خير الأمور أوسطها»[1].

وقال الله تعالى مشيراً إلى هذا الأمر:

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[2].

فإذا لم يعد يحس الإنسان بجوع ولا شبع تيسّرت له العبادة والفكر وقوي على العمل، ولكن هذا يتم بعد اعتدال الطبع.

أما في بداية الأمر إذا كانت النفس جموحاً، متشوقة إلى الشهوات، مائلة إلى الإفراط، فالاعتدال لا ينفعها بل لا بد من المبالغة في إيلامها بالجوع، فإذا ارتاضت واستوت ورجعت إلى الاعتدال، ترك تعذيبها وإيلامها. ولأجل هذا السرّ قد يأمر الشيخ مريده بما لا يتعاطاه هو بنفسه، فيأمره بالجوع وهو لا يجوع، ويمنعه المشتهيات وهو لا يمتنع عنها، لأنه قد فرغ من تأديب نفسه فاستغنى عن التعذيب.

ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والامتناع عن العبادة كان الأصلح لها الجوع الذي تحس معه بالألم لكي تنكسر. والمقصود بالانكسار الاعتدال.

وإنما يمتنع عن ملازمة الجوع من سالكي طريق الآخرة: إما صديق وإما مغرور أحمق. فالصديق لاستقامة نفسه على الصراط المستقيم واستغنائه عن أن يساق بسياط الجوع في سيره نحو الحق.

وأما المغرور فلظنه بنفسه أن الصدّيق المستغني عن تأديب نفسه، الظّان بنفسه خيرا؛ وهذا غرور عظيم وهو الغالب.

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

كان معروف الكرخي يهدى إليه طيبات الطعام فيأكل فيقال له: إن أخاك بشراً لا يأكل من هذا. فيقول: أخي بشراً قبضه الورع، وأنا بسطتني المعرفة. ثم قال: إنما أنا ضيف في دار مولاي، إذا أطعمني أكلت وإذا جوّعني صبرت، مالي وللاعتراض والتمييز؟!

وظائف السالك في مأكوله

إن على كل مريد في مأكوله وبطنه أربع وظائف:

• الوظيفة الأولى: تقليل الطعام بشكل تدريجي:

إن تقليل الطعام ينبغي أن يتم بشكل تدريجي. فمن تعود الأكل الكثير ثم انتقل إلى الأكل القليل دفعة واحدة، لم يحتمله مزاجه، وعظمت بسببه مشقّته. بل ينبغي التدرج فيه شيئاً فشيئاً وذلك بأن ينقص قليلاً قليلاً من طعامه المعتاد. فإن كان يأكل رغيفين مثلاً وأراد أن يردّ نفسه إلى واحد، ينقص كل يوم جزءاً منه حتى يرجع إلى رغيف في مدة شهر فلا يتضرر بذلك ولا يظهر أثره.

فليس المطلوب ولا الصحيح ترك الطعام بل مراعاة حد الاعتدال فيه كما ذكرنا. والصواب أن يحافظ السالك على قوته مهما أمكنه كما يحافظ على حياته وعقله.

قال الله عز وجل:

﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾[1].

وقال تعالى:

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1].

● **الوظيفة الثانية: تأخير الطعام:**

وهو على ثلاث درجات:

١ ـ الدرجة العليا: أن يترك الطعام لثلاثة أيام وما فوقها.

٢ ـ الدرجة الثانية: أن يطوي يومين إلى ثلاثة، وليس ذلك خارجاً عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالجد والمجاهدة.

٣ ـ الدرجة الثالثة: وهي أدناها؛ أن يقتصر على اليوم والليلة. وما جاوز ذلك فهو إسراف ومداومة على الشبع وهذا فعل المترفين. قال النبي ﷺ لعائشة:

«إياك والإسراف فإن أكلتين في اليوم من السرف»[2].

وذلك بشرط أن لا يجعل ذلك صوم وصال بل عليه أن يفطر بعد المغرب، فإن الوصال في خصائص النبي ﷺ وهو حرام على أمّته.

ولكن لا ينبغي ترك العشاء على كل حال فقد روي أن رجلاً قال:

«شكوت إلى أبي عبد الله عليه السلام ما ألقى من الأوجاع والتخم، فقال لي: تغدّ وتعشّ ولا تأكل بينهم شيئاً فإن فيه فساد البدن. أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾»[3].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) الدر المنثور: ج٣ ص٨٠.

(٣) الكافي: ج٦ ص٢٨٨.

وعنه عليه السلام قال:

«قال أمير المؤمنين عليه السلام: عشاء الأنبياء عليهم السلام بعد العتمة فلا تدعوه، فإن ترك العشاء خراب البدن»[1].

وعنه عليه السلام أنه قال:

«ترك العشاء مهرمة، وينبغي للرجل إذا أسنّ أن لا يبيت إلا وجوفه من الطعام ممتل»[2].

وعن الإمام الرضا عليه السلام قال:

«إن في الجسد عرقاً يقال له: العشاء، فإذا ترك الرجل العشاء لم يزل يدعو عليه ذلك العرق إلى أن يصبح يقول: أجاعك الله كما أجعتني، وأظمأك الله كما أظمأتني، فلا يدعنّ أحدكم العشاء ولو بلقمة من خبز أو بشربة من ماء»[3].

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«ما بال أصحابي لا يأكلون اللّحم ولا يشمون الطيب ولا يأتون النساء؟ أما أني آكل اللحم وأشمّ الطيب وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[4].

وقال النبي صلى الله عليه وآله:

«من أتى عليه أربعون يوماً ولم يأكل اللحم فليستقرض على الله وليأكله»[5].

---

(١) الكافي: ج٦ ص٢٨٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق: ص٢٨٩.
(٤) الكافي: ج٥ ٤٩٦.
(٥) الكافي: ج٦ ص٣٠٩.

● الوظيفة الثالثة: ترك المشتهيات:

إن عادة سالكي طريق الآخرة الامتناع عن الشهوات، فإن كل لذيذ يشتهيه الإنسان إن أكله اقتضى ذلك بطراً في نفسه وقسوة في قلبه، وأنساً بلذائذ الدنيا حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله. فتصير الدنيا جنة في حقّه ويكون الموت سجناً له. وإذا منع نفسه من شهواتها وضيّق عليها وحرمها لذاتها صارت الدنيا عليه سجناً ومضيقاً له واشتهت نفسه الانفلات منها، فيكون الموت إطلاقها.

فإن شهوة الطعام على قدر تجويع النفس، وكل ما ذكرناه من آفات الشبع يجري في أكل الشهوات وتناول اللذات، لذلك عظم الثواب في ترك الشهوات من المباحاة. أما من داوم عليها فلا يعصى بتناولها ولكن تتربى نفسه على التنعم، فتأنس بالدنيا وتألف اللذات فيسعى في طلبها فيجرّه ذلك إلى المعاصي.

قال النبي ﷺ:

«شرار أمتي الذين غذّوا بالنعيم ونبتت عليها أجسامهم وإنما همّتهم ألوان الطعام وأنواع اللباس ويتشدقون في الكلام»[١].

وأوحى الله تعالى إلى موسى:

«اذكر أنك ساكن القبر فيمنعك ذلك عن كثير من الشهوات».

وعن النبي ﷺ قال:

«أيّما امرىء اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك.

نفسه غفر الله له»[1].

وقال علي عليه السلام:

«من ترك اللحم أربعين يوماً ساء خلقه، ومن داوم عليه أربعين يوماً قسا قلبه»[2].

وفي الحديث:

«أذيبوا طعامكم بالصلاة والذكر ولا تناموا عليه فتقسوا قلوبكم»[3].

وإذا اشتهت النفس شيئا من طيبات الفواكه فينبغي أن يترك الخبز ويأكل الفاكهة بدلاً عن الخبز ليكون قوتاً له لا تفكها. وبالجملة لا ينبغي إهمال النفس واتباعها فيما ترغب فيه من الشهوات والمباحاة، فبقدر ما يتبع العبد شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة:

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[4].

وبقدر ما يجاهد العبد نفسه ويترك شهوته يتمتع في الآخرة بشهواته، حيث يقول الله تعالى لم أسلف ترك الشهوات:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾[5].

لذلك قيل: إن ترك شهوة من شهوات النفس أنفع من صيام سنة وقيامها.

---

(١) أخرجه ابن حبان في كتاب الثواب.
(٢) الكافي: ج٦ ص٣٠٩.
(٣) أخرجه ابن السني في اليوم والليلة: ص١٣١.
(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.
(٥) سورة الحاقة، الآية: ٢٤.

الآفات الخفية لترك الشهوات!

قد يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان، هما أعظم من كل الشهوات:

الأولى: الرياء:

أن لا تقدر النفس على ترك الشهوات فتشتهيها ولكن لا يريد أن يعرف بأنه يشتهيها فيخفي الشهوة ويأكل في الخلوة ما لا يأكله في الجماعة، وهذا هو الشرك الخفي، وهذه آفة عظيمة.

بل حق العبد إذا ابتلي بالشهوات وحبها أن يظهره فإن هذا صدق الحال وهو يدل على فوات المجاهدة في الأعمال. إذ إن إخفاء النقص وإظهار ضده من الكمال نقص مضاعف، والكذب مع الإخفاء كذب، فيكون مستحقاً لمقتين، ولا يرضى عنه إلا بتوبتين صادقتين. ولذلك شدد الله تعالى على المنافقين فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

فالكافر كفر وأظهر كفره، أما المنافق كفر وستر كفره فكان ستره لكفره كفراً آخر لأنه استخف بنظر الله إلى قلبه وعظم أعين المخلوقين،

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٤.

فمحي الكفر عن ظاهره وأثبت في باطنه. والعارفون يبتلون بالشهوات بل بالمعاصي ولا يبتلون بالرياء والغش والإخفاء.

الثانية: الجاه:

أن يقدر على ترك الشهوات ولكنه يفرح بأن يعرف به ويشتهر بالتعفف عن الشهوات. فخالف إذا شهوة ضعيفة هي شهوة الأكل وأطاع شهوة أخرى شرّ منها هي شهوة الجاه، وهي الشهوة الخفية.

لذا كان كسر هذه الشهوة أهم من كسر شهوة الطعام، فليأكل فهذا أولى له. فمن ترك شهوة الطعام ووقع في شهوة الرياء والجاه، كان كمن هرب من العقرب وفزع إلى الحية، لأن شهوة الرياء والجاه أضرّ كثيراً من شهوة الطعام.

فوائد النكاح وآفاته

إن شهوة الوقاع سلطت على الإنسان لفائدتين:

الأولى: أن يدرك لذّاته فيقيس بها لذات الآخرة. فإن لذّة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الجسد.

الثانية: بقاء النسل ودوام الوجود.

ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا إن لم تضبط وتقهر ولم ترد إلى حدّ الاعتدال. فقد قال رسول الله ﷺ:

«اللهم إني أعوذ بك من شرّ سمعي وبصري وقلبي ومنّيي»[1].

وقال ﷺ:

«النساء حبائل الشيطان، ولولا هذه الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرجال»[2].

وقد قيل: إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله.

وروي أن موسى عليه السلام كان جالساً في بعض مجالسه إذ أقبل عليه

---

(١) أخرجه النسائي: ج٨ ص٢٥٥.

(٢) أخرجه الأصفهاني في الترغيب.

إبليس وعليه برنس يتلوّن فيه ألوان، فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه، ثم أتاه فقال: السلام عليك، فقال موسى عليه السلام: من أنت. فقال: أنا إبليس. قال عليه السلام: فلا حياك الله ما جاء بك؟

قال: جئتك لأسلّم عليك لمنزلتك من الله ومكانتك منه. قال عليه السلام: فما الذي رأيت عليك؟ قال: به أختطف قلوب بني آدم. قال عليه السلام: فما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه؟

قال: إذا أعجب بنفسه واستكثر عمله ونسي ذنوبه، وأحذّرك ثلاثاً: لا تخل بامرأة لا تحلّ لك، فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابه حتى أفتنه بها وأفتنها به.

ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به، ولا تخرجنّ صدقة إلا أمضيتها فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابه حتى أحول بينه وبين الوفاء بها، ثم ولّى وهو يقول: يا ويلتا علم موسى ما يحذّر به بني آدم.

وقيل: إن الشيطان قال للمرأة: أنت نصف جندي، وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطىء وأنت موضع سرّي وأنت رسولي في حاجتي.

فنصف جنده الشهوة، ونصفه الآخر الغضب، وأعظم الشهوات شهوة النساء. ولهذه الشهوة أيضاً إفراط وتفريط واعتدال.

فالإفراط ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجل إلى التمتع بالنساء والجواري، فيحرم من سلوك طريق الآخرة. أو يخالف أوامر الدين حتى يجرّ إلى اقتحام الفواحش. وقد ينتهي الإفراط بطائفة إلى الوقوع في أمرين شنيعين:

الأول: أن يتناولوا ما يقوي شهواتهم ليستكثروا من الوقاع.

الثاني: قد تنتهي هذه الشهوة ببعض الجهال إلى العشق. وهو غاية

الجهل بالهدف الذي لأجله وضع الوقاع، وهو مجاوزة في النهمة لحد البهائم لأن المتعشق ليس يقنع بإراقة شهوة الوقاع التي هي أقبح الشهوات. فليس منبع العشق إلا إفراط الشهوة، وهو مرض القلب الفارغ الذي لا همّة له. وإنما ينبغي الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والفكر، وإلا فإن استحكم عسر دفعه. وكذلك هو الأمر بالنسبة لعشق الجاه والمال والأولاد، فإن هذه الأمور قد تستولي على طائفة بحيث تنغّص عليهم الدين والدنيا فلا يصبرون عنها البتة. فينبغي الاحتياط في بدايات الأمور، أما في أواخرها فلا تقبل العلاج إلا بجهد شديد يكاد يوازي نزع الروح.

إذن إفراط الشهوة إلى هذا الحد مذموم جداً. وأما تفريطها فبالعنت أو الضعف عن امتاع المنكوحة وهو أيضاً مذموم.

وإنما المحمود أن تكون الشهوة معتدلة ومطيعة للعقل والشرع في انبساطها وانقباضها، ومهما أفرطت فكسرها بالجوع وبالنكاح. قال النبي ﷺ:

«معاشر الشباب عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء»[1].

والعين كالفرج أيضاً تزني وزناها في كبار الصغائر، بل وتؤدي إلى الكبائر الفاحشة إن أهملت وتركت. فمن لم يقدر على غضّ بصره لم يقدر على حفظ فرجه.

قال نبي الله عيسى عليه السلام:

«إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب شهوة وكفى بها فتنة».

---

(١) أخرجه البخاري: ج٧ ص٣.

وقال داود لابنه عليه السلام:

«يا بني امش خلف الأسد والأسود، ولا تمش خلف المرأة».

وقيل ليحيى بن زكريا عليه السلام:

«ما بدء الزنى قال: النظر والتمنّي».

وقال النبي ﷺ:

«النظر سهم مسموم من سهام إبليس فمن تركها خوفاً من الله أعطاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه»[1].

وقال ﷺ:

«ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء»[2].

وقال ﷺ:

«اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء، فإن أوّل فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء»[3].

وقال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾[4].

وقال النبي ﷺ:

«لكلّ ابن آدم حظ من الزنى، فالعينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرجلان

---

(١) الترغيب والترهيب: ج٣ ص٣٤.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) سورة النور، الآية: ٣١.

تزنيان وزناهما المشي، والفم يزني وزناه القبلة، والقلب يهمّ ويتمنّى ويصدّق ذلك الفرج أو يكذّبه»[1].

وقالت أم سلمة: استأذن ابن أم مكتوم الأعمى على رسول الله ﷺ وأنا وميمونة جالستان، فقال النبي ﷺ:

«احتجبا عنه، فقلنا: أوليس بأعمى لا يبصرنا؟ فقال: وأنتما لا تبصرانه»[2].

---

(١) أبو داود: ج١ ص٤٩٦.

(٢) أبو داود: ج٢ ص٣٨٤.

فضيلة من يخالف شهوته

إن هذه الشهوة أغلب الشهوات على الإنسان وأعصاها عند الهيجان على العقل. إلا أن مقتضاها قبيح يستحيى منه ويخشى من اقتحامه، وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها إما لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه، وليس في شيء من ذلك ثواب، فإنه إيثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر. نعم إن في هذه العوائق فائدة وهي دفع الإثم فإن من ترك الزنى اندفع عنه إثمه بأي سبب كان تركه. وإنما الفضل والثواب الجزيل في تركه خوفاً من الله تعالى مع القدرة عليه وارتفاع الموانع وتيسّر أسبابه لاسيما عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين، ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«من عشق فعفّ فكتم فمات فهو شهيد»[1].

وقال ﷺ:

«سبعة يظلّهم الله يوم لا ظل إلا ظلّه وعدّ منهم رجلاً دعته امرأة ذات حسب وجمال إلى نفسها فقال: إني أخاف الله رب العالمين»[2].

---

(١) الجامع الصغير.
(٢) رواه مسلم.

وقصة يوسف عليه السلام وامتناعه عن زليخا مع القدرة ورغبتها بذلك، إذ أثنى الله تعالى عليه في كتابه، وهو عليه السلام إمام كل من وفق لمجاهدة الشيطان في هذه الشهوة العظيمة.

روي عن عبد الله بن عمر أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار، فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. فقال رجل منهم: اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق[1] قبلهما أهلاً ولا ولداً ولا مالاً، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً وولداً أو مالاً، فلبثت والقدح في يدي أنتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية يتضاغون بين قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج، وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عمّ وكانت من أحب الناس إليّ، فراودتها عن نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها مائة وعشرين ديناراً على أن تخلّي بيني وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت: اتق الله يا عبد الله، لا يحل لك أن تفضّ الخاتم إلا بحقّه، فتحرّجت من

---

(١) أغبق: سقى. الغبوق: ما يشرب بالعشي.

الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت تعلم أني فعلت هذا ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. وقال الثالث: اللهم إنك تعلم أني استأجرت أُجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجرته حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله هات أجري فقلت: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرَّقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزىء بي فقلت: إني لا أستهزىء بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون»[1].

فهذا فضل من تمكن من مخالفة شهوته فعفّ نفسه، ويقرب منه من تمكن من مخالفة شهوة العين، فإن النظر مبدأ الزنى فحفظه مهمّ وهو عسير من حيث إنه قد يستهان به فلا يخاف منه رغم أن كل الآفات تنشأ منه. والنظرة الأولى إذا لم يقصدها لم يؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها. قال النبي ﷺ:

«يا علي إن لك كنزاً في الجنة وإنك ذو قرنيها فلا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: ج٨ ص٣.

(٢) رواه الدارمي: ج٢ ص٢٩٨.

مراعاة الحال شرط في صحة النكاح

ذكر في قصة أن بعضهم قال:

غلبت عليّ شهوتي في بدء إرادتي بما لم أطق فأكثرت الضجيج إلى الله تعالى، فرأيت شخصاً في المنام فقال: ما لك؟ فشكوت إليه، فقال: تقدم إليّ فتقدمت إليه فوضع يده على صدري فوجدت بردها في فؤادي وجميع جسدي فأصبحت وقد زال ما بي وبقيت معافى سنة، ثم عاودني ذلك فأكثرت الاستغاثة فجاءني شخص في المنام فقال: أتحب أن يذهب ما تجد واضرب عنقك؟ فقلت: نعم، قال: مدّ رقبتك فمددتها فجرّد سيفاً من نور وضرب به عنقي فأصبحت وقد زال ما بي، فبقيت معافى سنة ثم عاودني ذلك أو أشد منه فرأيت شخصاً في المنام يخاطبني فيما بين صدري وجنبي ويقول: ويحك كم تسأل الله رفْعَ ما لا يحب رفعه؛ تزوج!

قال: فتزوجت فانقطع ذلك لي وولد لي.

فالحاجة إلى النكاح في الابتداء أكثر منها في الانتهاء فينبغي لمن أراد المعرفة أن يتزوّج تزوجا لا يشغله.

وإن قدر على الترك فهو له أولى إذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق، إذا علم أن ذلك يشغله عن حاله.

بالجملة على المريد أن ينظر إلى حاله، فإن وجد أن حاله في

العزوبة خالياً من الشهوات بحيث لم يتشوش حاله بسبب العزوبة، فهو الأقرب له.

وإن عجز عن ذلك فالنكاح أولى به. ودواء هذه العلة ثلاثة أمور:

١ ـ الجوع.

٢ ـ غض البصر.

٣ ـ الاشتغال بأمر يستولي على القلب، فيلهيه.

فإن لم تنفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الذي يستأصل مادّتها فقط.

آداب الأكل

مقدمة

إن مقصد ذوي الألباب لقاء الله سبحانه في دار الثواب، ولا طريق إلى لقاء الله إلا بالعلم والعمل، ولا يمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن، ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات والتناول منها بقدر الحاجة. لذا قال بعض الصالحين: إن الأكل من الدين وعليه نبّه ربّ العالمين بقوله:

﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾[1].

فمن يقدم على الأكل ليستعين به على العلم والعمل ويقوى به على التقوى لا ينبغي له أن يترك نفسه مهملة تسترسل بالأكل استرسال البهائم في المرعى. إن ما هو ذريعة إلى الدين ووسيلة إليه ينبغي أن تظهر عليه أنوار الدين. وإنما أنوار الدين آدابه وسننه التي على العبد أن يلتزم بها حتى تتزن شهوة الطعام في أقوامها وأحجامها بميزان العقل. فيدفع بذلك عن نفسه الوزر ويجلب لها الأجر، وإن كان فيها أوفى حظّ للنفس.

وقد قال النبي ﷺ:

«ومهما أنفقت فهو لك صدقة حتى اللقمة ترفعها في فيّ امرأتك»[2].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.

(٢) أخرجه البخاري: ج٧ ص٨٠.

وإنما ذلك يكون إذا رفعها بالدين وللدين وكان مراعياً لآدابه ووظائفه. ونحن في هذا الفصل من الكتاب سنرشد إلى وظائف الدين في الأكل، فنوضح فرائضه وسننه وآدابه ومروّته وهيئته.

آداب الطعام قبل البدء بالأكل

إن الآداب التي تقدّم على الأكل سبعة وهي:

الأول: أن يكون الطعام بعد كونه حلالاً في نفسه، مكسبه موافقاً للسنّة والورع، لم يكتسب بسبب مكروه في الشرع، ولا بحكم هوى ومداهنة. وقد أمر الله تعالى بأكل الحلال ونهى عن الأكل بالباطل فقال:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[1].

وقال النبيﷺ:

«العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال»[2].

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«التقوى على ثلاثة أوجه: تقوى بالله [في الله] وهو ترك الحلال فضلاً عن الشبهة وهو تقوى خاصّ الخاصّ، وتقوى من الله وهو ترك الشبهات فضلاً عن الحرام وهو تقوى الخاص، وتقوى من خوف النار والعقاب وهو ترك الحرام وهو تقوى العام»[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

(٢) الكافي: ج٥ ص٧٨ رقم ٦.

(٣) مصباح الشريعة: الباب ٨٢.

وعن الإمام الحسن بن علي عليه السلام قال:

«في المائدة اثنتا عشرة خصلة يجب على كل مسلم أن يعرفها، أربع منها فرض وأربع منها سنّة وأربع تأديب. فأما الفرض فالمعرفة والرضا والتسمية والشكر، وأما السنّة فالوضوء قبل الطعام والجلوس على الجانب الأيسر والأكل بثلاث أصابع ولعق الأصابع، وأما التأديب فالأكل مما يليك وتصغير اللقمة والمضغ الشديد وقلّة النظر في وجوه الناس»[1].

أراد عليه السلام بالمعرفة معرفة حلّه وبالشكر التحميد، وتمام الشكر عرفان الحرمة وصرف قوّته في الطاعة، وبالوضوء غسل اليد كما فسّر في حديث آخر، وبالأكل بثلاث أصابع أن لا يأكل بإصبعين كما يفعله الجبارون، وليس المراد أن لا يأكل بأكثر من ثلاث بل إن أكل بأصابعه أجمع فقد أتى بالأفضل والأكمل لأنه أقرب إلى حرمة الطعام، فالتحديد بالثلاث تحديد إلى جانب القلّة يعني بأقل من ذلك.

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«أنه كان يجلس جلسة العبد ويضع يده على الأرض، ويأكل بثلاث أصابع، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأكل هكذا ليس كما يفعله الجبارون أحدهم يأكل بإصبعيه»[2].

الثاني: غسل اليد: قال النبي صلى الله عليه وآله:

«الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي اللّمم

---

(١) الكافي: ج٥ ص٤٠٣ رقم ٣٣.

(٢) رواه البرقي في المحاسن: ص٤١، رقم ٣٠٧.

ويصحّ البصر»[1].

ولأن اليد لا تخلو من لوث بسبب تعاطي الأعمال فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة. ولأن الأكل بقصد الاستعانة على الدين عبادة فهو جدير بأن يقدم الغسل عليه، فيجري منه مجرى الطهارة من الصلاة.

وقد قال النبي ﷺ أيضاً:

«من أراد أن يكثر خيره فليتوضأ عند حضور طعامه»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«من غسل يده قبل الطعام وبعده بورك له في أوّله وآخره، وعاش ما عاش في سعة وعوفي من بلوى في جسده»[3].

وعن صفوان الجمال قال:

«كنا عند أبي عبد الله عليه السلام فحضرت المائدة، فأتى الخادم بالوضوء فناوله المنديل فعافه ثم قال: منه غسلنا»[4].

الثالث: أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض فهو أقرب إلى فعل رسول الله ﷺ من رفعه على المائدة.

وقد قيل:

---

(١) الطبرسي في المكارم ص١٥٩.
(٢) من لا يحضره الفقيه.
(٣) الكافي: ج٦ ص٢٩٠.
(٤) رواه الطبرسي في المكارم: ص١٦٠.

«كان رسول الله إذا أتي بطعام وضعه على الأرض»[1]. فهذا أقرب إلى التواضع.

الرابع: أن يحسن الجلسة على السفرة. فقد كان رسول الله ﷺ يقول:

«أنا لا آكل متكئاً إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد»[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«إذا جلس أحدكم على الطعام فليجلس جلسة العبد، وليأكل على الأرض ولا يضع إحدى رجليه على الأخرى يتربّع فإنها جلسة يبغضها الله عز وجل ويمقت صاحبها»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ما أكل رسول الله ﷺ متكئاً منذ بعثه الله إلى أن قبضه، وكان يأكل أكلة العبد، ويجلس جلسة العبد، قيل: ولم ذلك؟ قال عليه السلام: تواضعاً لله»[4].

الخامس: أن ينوي بأكله أن يتقوّى به على طاعة الله ليكون مطيعاً بالأكل. فلا يقصد التلذذ والتنعم. ويعزم مع ذلك على تقليل الأكل، فإنه إن أكل لأجل التقوى على العبادة لم تصدق نيته في ذلك إلا بترك الطعام قبل الشبع، فإن الشبع يمنع من العبادة.

---

(١) أخرجه أحمد في كتاب الزهد.
(٢) الكافي: ج٦ ص٢٧٠.
(٣) الكافي: ج٦ ص٢٧٢ رقم ١٠.
(٤) المصدر السابق.

فمن ضروريات هذه النية كسر الشهوة وإيثار القناعة على الاتساع. قال النبي ﷺ:

«ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن لم يفعل فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس»[1].

ومن ضروراتها أن لا يمد اليد إلى الطعام إلا وهو جائع، ثم ينبغي أن يرفع اليد عنه قبل الشبع، ومن يفعل ذلك فقد استغنى عن الطبيب.

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«قلّة الأكل محمودة في كل حال وعند كل قوم لأن فيها المصلحة للباطن والظاهر. والمحمود من المأكولات أربعة: ضرورة، وعدّة، وفتوح، وقوت. فالضرورة للأصفياء، والعُدّة للقوّام الأتقياء، والفتوح للمتوكلين، والقوت للمؤمنين. وليس شيء أضرّ لقلب المؤمن من كثرة الأكل وهي مورثة شيئين: قسوة القلب، وهيجان الشهوة. والجوع إدام للمؤمنين وغذاء للروح وطعام للقلب وصحّة للبدن، قال رسول الله ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء أشرّ من بطنه». وقال داود عليه السلام: «تؤكل اللّقمة مع الضرورة إليها أحبُّ إليَّ من قيام عشرين ليلة». وقال النبي ﷺ: «المؤمن يأكل بمعاء واحدة والمنافق يأكل بسبعة أمعاء». وقال النبي ﷺ: «ويل للناس من القبقبين[2]، فقيل: وما هما

---

(١) أخرجه ابن ماجة: رقم ٣٣٤٩.

(٢) القبقب: البطن.

يا رسول الله؟ قال: الحلق والفرج». وقال عيسى ابن مريم عليه السلام: «ما أمرض قلب بأشد من القسوة، وما اعتلت نفس بأصعب من بغض الجوع وهما زِماما الطرد والخذلان»[1].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«ما من شيء أبغض إلى الله من بطن مملوء»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إن البطن ليطغى من أكله، وأقرب ما يكون العبد من الله إذا خفّ بطنه، وأبغض ما يكون العبد إلى الله إذا امتلأ بطنه»[3].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«إن الله تعالى يبغض كثرة الأكل»[4].

وقال عليه السلام أيضاً:

«ليس لابن آدم بدٌّ من أكلة يقيم بها صلبه، فإذا أكل أحدكم طعاماً فليجعل ثلث بطنه للطعام وثلث بطنه للشراب وثلثه للنفس ولا تسمنوا سمن الخنازير للذبح»[5].

---

(١) مصباح الشريعة: الباب ٤١.
(٢) الكافي: ج٦ ص٢٧٠ رقم ١١.
(٣) الكافي: ج٦ ص٢٧٠.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

وقال رسول الله ﷺ:

«أطولكم جشاءً في الدنيا أطولكم جوعاً في الآخرة»[1].

السادس: أن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام ولا يجتهد في التنعم وطلب الزيادة. فعن النبي ﷺ أنه قال:

«أكرموا الخبز، فقيل: يا رسول الله وما إكرامه؟ قال: إذا وضع لا ينتظر به غيره»[2].

السابع: أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده. قال النبي ﷺ:

«اجتمعوا على طعامكم يبارك لكم فيه»[3].

وقال النبي ﷺ أيضاً:

«الطعام إذا جمع أربع خصال فقد تمّ: إذا كان من حلال، وكثرت الأيدي، وسمّي في أوّله، وحمد الله في آخره»[4].

---

(١) الكافي: ج٦ ص٢٧٠.

(٢) المصدر السابق: ص٢٨٧ رقم ٦.

(٣) أخرجه ابن ماجة: رقم ٣٢٨٦.

(٤) الكافي: ج٦ ص٢٧٣.

آداب الطعام حال الأكل والشرب

□ إن الآداب التي ينبغي على العبد مراعاتها حال الأكل:

١ ـ أن يبدأ باسم الله في أوّله وبالحمد في آخره. عن الإمام الصادقعليه السلام قال: قال رسول اللهصلى الله عليه وآله:

«إذا وضعت المائدة حفّتها أربعة أملاك: فإذا قال العبد: «بسم الله» قالت الملائكة للشيطان: اخرج يا فاسق فلا سلطان لك عليهم، فإذا فرغوا فقالوا: «الحمد لله» قالت الملائكة للشيطان: قوم أنعم الله عليهم. فأدّوا الشكر لربّهم، وإذا لم يقل «بسم الله» قالت الملائكة للشيطان: أدن يا فاسق وكل معهم، فإذا رفعت المائدة فلم يحمدوا الله قالت الملائكة: قوم أنعم الله عليهم فنسوا ربّهم»[1].

وعن أمير المؤمنينعليه السلام قال:

«ضمنت لمن سمّى على طعامه ألا يشتكي منه، فقال ابن الكوّا: يا أمير المؤمنين لقد أكلت البارحة طعاماً فسمّيت عليه ثم آذاني، فقال: أكلت ألواناً فسمّيت

---

(١) الكافي: ج٦ ص٢٩٢.

على بعضها ولم تسمّ على بعض يا لكع»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إن من نسي أن يسمّي على كل لون فليقل: بسم الله على أوّله وآخره»[2].

وعنه عليه السلام قال:

«ما أتخمت قط وذلك أني لم أبدأ بطعام إلا قلت: بسم الله، ولم أفرغ منه إلا قلت: الحمد لله»[3].

وقال عليه السلام:

«إن البطن إذا شبع طغى»[4].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«إذا حضرت المائدة وسمّى رجل منهم أجزأ عنهم أجمعين»[5].

٢ ـ أن يأكل العبد باليمين ويبدأ بالملح ويختم به. فقد ورد عن الإمام الصادق أنه قال:

«إنه كره للرّجل أن يأكل بشماله أو يشرب بها أو يتناول بها»[6].

---

(١) اللكع: اللؤم، الحمق. الكافي: ج٦ ص٢٩٥.
(٢) الفقيه: ص٤٠٢، رقم ١٨.
(٣) الفقيه: ٤٠٢، رقم ١٩.
(٤) المصدر السابق.
(٥) الكافي: ج٦ ص٢٩٣.
(٦) الكافي: ج٦ ص٢٧٢، رقم ١.

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال:

«ابدأوا بالملح في أوّل الطعام فلو علم الناس ما في الملح لاختاروه على الترياق المجرّب»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إنا نبدأ بالملح ونختم بالخلّ»[2].

٣ ـ أن يصغّر اللقمة ويجوِّد مضغها، وما لم يبتلعها فلا يمد يده إلى الأخرى فإن ذلك عجلة في الأكل، وأن لا يذم مأكولاً.

٤ ـ أن لا ينفخ في الطعام الحار فهو منهي عنه، بل يصبر إلى أن يسهل أكله، وأن لا يكثر الشرب في أثناء الطعام إلا إذا غصّ بلقيمة.

٥ ـ ومن الآداب أيضاً أن يطيل الجلوس على المائدة، فعن الصادق عليه السلام قال:

«أطيلوا الجلوس على الموائد فإنها ساعة لا تحسب من أعماركم»[3].

وعن الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«ما عذّب الله قوماً قط وهم يأكلون، وإن الله تعالى أكرم من أن يرزقهم شيئاً ثم يعذِّبهم عليه حتى يفرغوا عنه»[4].

---

(١) الكافي: ج٦ ص٣٢٦ رقم ٤.

(٢) الكافي: ج٦ ص٣٣٠ رقم ١٢.

(٣) رواه الطبرسي في المكارم: ص١٦١ في كتاب طب الأئمة.

(٤) الكافي: ج٦ ص٢٧٤، باب حرمة الطعام.

□ آداب الشرب:

١ ـ أن يأخذ الكوز بيمينه ويقول: «بسم الله» ويشربه مصّاً لا عبّاً[١].

قال النبي ﷺ:

«مصّوا الماء مصّاً ولا تعبّوه عبّاً فإن الكُباد[٢] من العبّ»[٣].

٢ ـ أن يراعي أسفل الكوز حتى لا يقطر عليه، وينظر في الكوز قبل الشرب، ولا يتجشأ في الكوز ولا يتنفس فيه بل ينحيه عن فمه بالحمد ويردّه بالتسمية، وقال النبي ﷺ بعد الشرب:

«الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا»[٤].

٣ ـ أن يتنفّس ثلاثاً عند الشرب. فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إن الرجل منكم ليشرب الشربة من الماء فيوجب الله له بها الجنّة. ثم قال: إنه ليأخذ الإناء فيضعه على فيه فيسمّي ثم يشرب فينحيه وهو يشتهيه فيحمد الله ثم يعود فيشرب، ثم ينحّيه فيحمد الله ثم يعود فيشرب، ثم ينحيه فيحمد الله فيوجب الله عز وجل بها له الجنّة»[٥].

---

(١) العب: الشرب بلا مصّ.

(٢) الكُباد: وجع الكبد.

(٣) الكافي: ج٦ ص٣٨١.

(٤) الكافي: ج٦ ص٣٨٤.

(٥) الكافي: ج٦ باب القول على شرب الماء.

وعنه عليه السلام أيضاً قال:

«أتى أبي جماعة فقالوا له: زعمت أن لكلّ شيء حدّاً ينتهي إليه؟ فقال لهم أبي نعم، قال: فدعا بماء ليشربوا، فقالوا: يا أبا جعفر هذا الكوز من الشيء هو؟ قال: نعم قالوا: فما حدّه؟ قال: حدّه أن يشرب من شفته الوسطى ويذكر الله عليه ويتنفس ثلاثاً كلما تنفّست حمدت الله ولا تشرب من أُذن الكوز فإنه مشرب الشيطان، ثم قال: الحمد لله الذي سقاني ماءً عذباً ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبي»[1].

٤ ـ أن لا يشرب من موضع الكسر. فعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه سئل عن حد الإناء فقال:

«حدّه أن لا تشرب من موضع كسر إن كان به فإنه مجلس الشيطان، فإذا شربت سمّيت فإذا فرغت حمدت الله»[2].

---

(١) الكافي: ج٦ ص١٧٣.

(٢) الكافي: ج٦ ص١٧٤.

آداب الطعام بعد الفراغ من الأكل

يستحب بعد الطعام:

١ ـ أن يمسك قبل الشبع.

٢ ـ أن يلعق القصعة وأصابعه ثم يمسحها بالمنديل: قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إنه كره أن يمسح الرجل يده بالمنديل وفيها شيء من الطعام تعظيماً للطعام حتى يمصّها أو يكون إلى جنبه صبي يمصّها»[١].

وقال النبي صلى الله عليه وآله:

«من لعق قصعة صلت عليه الملائكة ودعت له بالسعة في الرزق ويكتب له حسنات مضاعفة»[٢].

٣ ـ أن يغسل يديه بعد الفراغ من الطعام: عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إذا توضأت بعد الطعام فامسح عينيك بفضل ما في يديك فإنه أمان من الرمد»[٣].

---

(١) الكافي: ج٦ ص٢٩١ رقم ٣.

(٢) الكافي: ج٦ ص١٦٨.

(٣) الكافي ص١٦٠.

٤ ـ أن يلتقط فتات الطعام: قال النبي ﷺ:

«من أكل ما يسقط من المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده»[1].

٥ ـ أن يتخلّل ولا يبتلع ما يخرج من بين أسنانه بالخلال إلا ما جمع من أصول أسنانه بلسانه ثم يتمضمض بعد الخلال.

فعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«قال رسول الله ﷺ: تخلّلوا على إثر الطعام فإنه مصحّة للفم والنواجذ ويجلب الرزق على العبد»[2].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام قال:

«قال رسول الله ﷺ: تخلّلوا فإنه ليس شيء أبغض إلى الملائكة من أن يرون في أسنان العبد طعاماً»[3].

٦ ـ أن يشكر الله تعالى في قلبه على ما أطعمه، فيرى الطعام نعمة منه تعالى.

قال الله عز وجل:

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾[4].

وقال النبي ﷺ:

«إذا رفعت المائدة فقل: الحمد لله رب العالمين، اللهم اجعلها نعمة مشكورة»[5].

---

(١) الطبرسي في المكارم.

(٢) مكارم الأخلاق: ص١٧٥.

(٣) المصدر السابق: ص١٧٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٢.

(٥) مكارم الأخلاق: ص١٦٥.

آداب الاجتماع على الأكل

إن آداب الاجتماع على الأكل ستة وهي:

الأول: أن لا يبدأ بالطعام ومعه من يستحق التقدم عليه، لكبر سنّه، أو زيادة فضل.

الثاني: أن لا يسكتوا على الطعام فإن ذلك سيرة العجم، بل يتكلمون بالمعروف ويتحدثون بحكايات الصالحين.

الثالث: أن يقصد الإيثار في طعامه، فلا يأكل زيادة على ما يأكله رفيقه، إذ ليس من الآداب الزيادة عليه. أما الحلف عليه بالأكل ممنوع، قال الحسن بن علي عليه السلام:

«الطعام أهون من أن يحلف عليه».

الرابع: أن لا يحوج رفيقه إلى أن يقول به: «كلّ». فأحسن الآكلين أكلاً من لا يحوج صاحبه إلى تفقده في الأكل، وحمل مؤونة القول عن أخيه، ولا ينبغي أن يدع شيئاً مما يشتهيه لأجل نظر الغير إليه فإن ذلك تصنّع، بل يجري على العادة فلا ينقص من عادته عندما يكون وحيداً شيئاً. بل عليه أن يعوّد نفسه حسن الأدب في الخلوة والوحدة حتى لا يحتاج إلى التصنع عند الاجتماع.

نعم لو قلّل من أكله إيثاراً لإخوانه ونظراً لهم عند الحاجة إلى ذلك

فهو حسن. ولو زاد في الأكل بنية المساعدة وتحريك نشاط القوم في الأكل فلا بأس به بل هو حسن.

فعن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام قال:

«أحب إخواني إليّ أكثرهم أكلاً وأعظمهم لقمة، وأثقلهم عليّ من يحوجني إلى تعاهده في الأكل»[1].

وقال عليه السلام أيضاً:

«يتبيّن محبّة الرجل لأخيه بجودة أكله في منزله»[2].

وعن عبد الرحمن بن الحجاج قال:

«أكلت مع أبي عبد الله عليه السلام فأتينا بقصعة من أرز فجعلنا نعذر، فقال عليه السلام: ما صنعتم شيئاً إن أشدّكم حباً لنا أحسنكم أكلاً عندنا. قال عبد الرحمن: فرفعت كصيمة المائدة فأكلت فقال: نعم الآن ثم أنشأ يحدّثنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله أهدي إليه قصعة أرز من ناحية الأنصار فدعا سلمان والمقداد وأبا ذر (رحمهم الله) فجعلوا يُعذِّرون في الأكل فقال لهم: ما صنعتم شيئاً أشدكم حباً لنا أحسنكم أكلاً عندنا، فجعلوا يأكلون أكلاً جيداً، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: رحمهم الله ورضي الله عنهم وصلّى عليهم»[3].

الخامس: أن لا ينظر إلى أصحابه ولا يراقب أكلهم فيستحيون بل يغضّ بصره عنهم ويشتغل بنفسه ولا يمسك قبل إمساك إخوانه إذا كانوا

(١) الكافي: ج٦ ص٢٧٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

يحتشمون الأكل بعده. وإن امتنع لسبب فليعتذر إليهم دفعاً للخجل عنهم.

السادس: أن لا يفعل ما يستقذره غيره ولا ينفض يده في القصعة. وإذا خرج شيء من فيه صرف وجهه عن الطعام.

فضيلة تقديم الطعام

إن تقديم الطعام إلى الإخوان فيه فضل كبير. قال جعفر بن محمد عليه السلام:

«إذا قعدتم مع الإخوان على المائدة فأطيلوا الجلوس فإنها ساعة لا تحسب عليكم من أعماركم».

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا يزال الملائكة تصلي على أحدكم ما دامت مائدته موضوعة بين يديه حتى ترفع»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحب إليَّ من أن أعتق رقبة»[2].

وفي الخبر، يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة:

«يا بن آدم جعتُ فلم تطعمني فيقول: كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول: جاع أخوك المسلم فلم تطعمه ولو أطعمته كنت أطعمتني»[3].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط.

(٢) رواه البرقي في المحاسن.

(٣) أخرجه أبو هريرة: ج٨ ص١٣.

وقال النبي ﷺ:

«إذا جاءكم الزائر فأكرموه»[1].

وقال النبي ﷺ:

«إن في الجنّة غرفاً يُرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وصلّى باللّيل والناس نيام»[2].

وقال النبي ﷺ:

«خيركم من أطعم الطعام»[3].

وقال ﷺ:

«من أطعم أخاه المؤمن حتى يشبعه وسقاه حتى يرويه بعّده الله من النار سبعة خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«المنجيات إطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام»[5].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«من أحب الأعمال إلى الله عز وجل إشباع جوعة

---

(١) مكارم الأخلاق: الخرائطي.
(٢) الترمذي: ج١٠ ص٥.
(٣) مسند أحمد: ج٦ ص١٦.
(٤) أخرجه الطبراني.
(٥) خصال الصدوق: ج١ ص٤٢.

المؤمن وتنفيس كربته وقضاء دينه»[1].

وعنه عليه السلام أنه قال:

«إن الله عز وجل يحبّ الإطعام في الله ويحبّ الذي يطعم الطعام في الله، والبركة في بيته أسرع من الشفرة في سنام البعير»[2].

وعنه عليه السلام أيضاً قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الطعام إذا جمع أربع خصال فقد تمّ إذا كان من حلال وكثرت الأيدي وسمّي في أوّله وحمد الله عز وجل في آخره»[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الثلاثة، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة»[4].

---

(١) الكافي ج٢ ص١٩٢.
(٢) رواه البرقي في المحاسن: ص٣٩٠.
(٣) الكافي: ج٦ ص٢٧٣.
(٤) المصدر السابق.

آداب تقديم الطعام

إن آداب تقديم الطعام وهي:

الأول: ترك التكلّف، وتقديم ما حضر عنده من الطعام، فإن لم يحضره شيء ولم يملك شيئاً فلا يستقرض لذلك فيشقّ على نفسه.

وإن كان عنده ما هو محتاج إليه لقوته ولم تسمح نفسه بالتقديم فلا ينبغي أن يقدّمه.

ومن التكلّف أن يقدّم جميع ما عنده فيجحف بعياله ويؤذي قلوبهم.

قال سلمان (رضي الله عنه):

«أمرنا رسول الله ﷺ أن لا نتكلّف للضيف ما ليس عندنا وأن نقدّم إليه ما حضرنا»[١].

وقال بعضهم: دخلنا على جابر بن عبد الله فقدّم إلينا خبزاً وخلاً وقال:

«لولا أنّا نُهينا عن التكلف لتكلّفت لكم»[٢].

---

(١) مسند أحمد: ج٥ ص٤٤١.

(٢) المصدر السابق.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«المؤمن لا يحتشم من أخيه ولا يدرى أيهما أعجب الذي يكلّف أخاه إذا دخل أن يتكلّف له، أو المتكلّف لأخيه»[1].

وعن الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«هلك امرؤ احتقر لأخيه ما يحضره، وهلك امرؤ احتقر من أخيه ما قدّم إليه»[2].

وعنه عليه السلام قال:

«يهلك المرء المسلم أن يستقلَّ ما عنده للضيف»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال:

«إذا أتاك أخوك فأته مما عندك، وإذا دعوته فتكلّف له»[4].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من تكرمة الرجل لأخيه أن يقبل تحفته وأن يتحفه بما عنده ولا يتكلف له شيئاً، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إني لا أحب المتكلفين»[5].

الثاني: أن لا يقترح الزائر ولا يتحكم بشيء بعينه، فربما يشق على المستضيف إحضاره له. وإن خيّره المستضيف بين طعامين فليختر أيسرهما عليه. ففي الخبر:

---

(١) الكافي: ج٦ ص٢٧٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

«إنه ما خيّر رسول الله ﷺ بين شيئين إلا اختار أيسرهما»[1].

الثالث: أن يشهي المزور أخاه الزائر ويتلمس منه الاقتراح. فذلك حسن وفيه أجر وفضل جزيل. قال النبي ﷺ:

«من صادف من أخيه شهوة غفر له»[2].

وقال ﷺ:

«ومن سرّ أخاه المؤمن فقد سرّ الله عز وجل»[3].

وقال ﷺ:

«من لذّذ أخاه بما يشتهي كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة، وأطعمه الله من ثلاث جنان جنّة الفردوس، وجنّة الخلد، وجنة عدن»[4].

الرابع: أن لا يقول للزائر هل أقدم لك طعاماً، بل ينبغي أن يقدّم إن كان عنده، فإن أكل وإلا رفع. وإن كان لا يريد أن يطعمهم طعاماً فلا ينبغي أن يظهر عليهم أو يصفه لهم.

فعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إذا دخل عليك أخوك فاعرض عليه الطعام، فإن لم يأكل فاعرض عليه الماء، فإن لم يشرب فاعرض عليه الوضوء»[5].

---

(١) مسند أحمد: ج٦ ص١١٣.
(٢) مجمع الزوائد: ج٥ ص١٨.
(٣) الكافي: ج٢ ص١٨٨.
(٤) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات.
(٥) الكافي: ج٦ ص٢٧٥ رقم ٢. الوضوء هنا (بالفتح): ما يغسل به وجهه أو الطيب.

آداب الدخول على الطعام

ليس من السنّة أن يقصد الإنسان قوماً متربصاً وقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل. فإن ذلك من المفاجأة وقد نهي عنه.

قال الله تعالى:

«لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه»[(١)]، أي منتظرين نضجه.

وفي الخبر:

«من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقاً وأكل حراماً»[(٢)].

فحق الداخل إذا لم يتربص واتفق أن صادفهم على الطعام أن لا يأكل ما لم يؤذن له. فإن دعي إلى الطعام فلينظر فإن علم أنهم يقولون ذلك للمحبة فليأكل، وإن كانوا يقولون ذلك حياء منه فلا ينبغي له أن يأكل بل عليه أن يتعلّل.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

(٢) البيهقي في شعب الإيمان.

فعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«من أكل طعاماً لم يدع إليه فإنما أكل قطعة من النار»[1].

وعنه عليه السلام أيضاً قال:

«إذا دُعي أحدكم إلى الطعام فلا يستتبعنّ ولده فإنه إن فعل أكل حراماً ودخل عاصياً»[2].

أما إذا كان جائعاً فقصد بعض إخوانه ليطعمه ولم يتربص له وقت أكله فلا بأس به، والدخول على مثل هذه الحال إعانة لذلك المسلم على حيازة ثواب الإطعام.

فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا﴾ ـ إلى آخر الآية[3] ـ ما يعني بقوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾؟

فقال عليه السلام:

«هو والله الرجل يدخل بيت صديقه فيأكل بغير إذنه»[4].

وفي رواية أخرى:

«للمرأة أن تأكل وأن تتصدق وللصديق أن يأكل من منزل أخيه ويتصدّق»[5].

---

(١) الكافي: ج٦ ص٢٧٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) سورة النور، الآية: ٦١.
(٤) الكافي: ج٦ ص٢٧٧.
(٥) المصدر السابق.

فضيلة الضيافة وآدابها

عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال:

«قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: إن الضيف إذا جاء فنزل بالقوم جاء برزقه معه من السماء فإذا أكل غفر الله لهم بنزوله عليهم»[1].

وقال رسول اللهصلى الله عليه وآله:

«ما من ضيف حلّ بقوم إلا ورزقه في حجره»[2].

وعن الإمام الكاظمعليه السلام قال:

«إنما تنزل المعونة على القوم على قدر مؤونتهم وإن الضيف لينزل بالقوم فينزل رزقه معه في حجره»[3].

عن محمد بن قيس عن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«ذكر أصحابنا قوماً فقلت: والله ما أتغذّى ولا أتعشّى إلا ومعي منهم اثنان أو ثلاثة أو أقلّ أو أكثر فقالعليه السلام: فضلهم عليك أكثر من فضلك عليهم،

---

(١) الكافي: ج٦ ص٢٨٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

قلت: جعلت فداك كيف ذا وأنا أطعمهم طعامي وأنفق عليهم من مالي ويخدمهم خدمي فقال(ع): إذا دخلوا عليك دخلوا من الله بالرزق الكثير وإذا خرجوا خرجوا بالمغفرة لك»[1].

والأخبار الواردة في فضل الضيافة والإطعام لا تحصى فلنذكر آدابها:

١ ـ ينبغي للداعي أن يقصد بدعوته الأتقياء دون الفساق، قال النبي(ص):

«أكل طعامكم الأبرار»[2].

وقال النبي(ص) أيضاً:

«لا تأكل إلا طعام تقيّ ولا يأكل طعامك إلا تقيّ»[3].

٢ ـ ينبغي للداعي أن يقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص.

٣ ـ وينبغي أن لا يهمل أقاربه في ضيافته فإن إهمالهم إيحاش وقطع رحم.

٤ ـ وعلى الداعي أن يراعي الترتيب في أصدقائه ومعارفه، فإن في تخصيص البعض إيحاشاً للباقين.

٥ ـ وعلى الداعي أن لا يقصد في دعوته المباهاة والتفاخر، بل استمالة قلوب الإخوان والتسنن بسنّة رسول الله(ص) في إطعام الطعام وإدخال السرور على قلوب المؤمنين.

---

(١) الكافي: ج٦، ص٢٨٤.

(٢) أخرجه أبو داود في آخر كتاب الأطعمة ج٢ ص٣٣٠.

(٣) أخرجه الدارمي: ج٢ ص١٠٣.

٦ ـ وينبغي أن لا يدعو الداعي من يعلم أنه يشقّ عليه الإجابة. وإذا حضر تأذّى بالحاضرين، لسبب من الأسباب.

٧ ـ وعليه أن لا يدعو إلا من يحب إجابته. وإطعام التقي إعانة له على طاعة الله عز وجل، وإطعام الفاسق تقوية له على الفسق.

آداب إجابة الدعوة

إن الإجابة من السنّة المؤكّدة، وقد قال النبيﷺ:

«لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدي إليَّ ذراع لقبلت»[1].

وللإجابة خمسة آداب:

الأول: أن لا يميّز الغني عن الفقير في الإجابة. فذلك هو التكبّر المهني عنه، وهو خلاف السنّة. «فقد كان النبيﷺ يجيب دعوة الحر والعبد والفقير والمسكين»[2].

«ومرّ الحسن بن عليعليه السلام بقوم من المساكين الذي يسألون الناس على قارعة الطريق، وقد نشروا كسراً على الأرض في الرمل وهم يأكلون، وكانعليه السلام على بغلته فسلّم عليهم فقالوا: هلمَّ إلى الغداء يا بن بنت رسول الله، فقالعليه السلام: نعم إن الله لا يحبّ المستكبرين، فنزل وقعد معهم على الأرض فأكل ثم سلّم عليهم وركب، وقال: قد أجبتكم فأجيبوني، قالوا: نعم. فوعدهم وقتاً معلوماً فحضروا فقدم إليه فاخر الطعام وجلس يأكل معهم»[3].

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي: ج٧ ص٢٧٣.

(٢) أخرجه الترمذي.

(٣) مناقب الساروي: ج٤ ص٢٣.

الثاني: لا ينبغي للمدعو الامتناع عن الإجابة لبعد المسافة. بل كل مسافة يمكن احتمالها في العادة فلا ينبغي أن يمتنع بسببها. قال رسول الله ﷺ:

«لو دعيت إلى كراع الغميم لأجبت».

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«قال رسول الله ﷺ: أوصي الشاهد من أمتي والغائب أن يجيب دعوة المسلم ولو على خمسة أميال فإن ذلك من الدين»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إن من حقّ المسلم الواجب على أخيه إجابة دعوته»[2].

الثالث: أن لا يمتنع لكونه صائماً بل يحضر، فإن كان يسرُّ أخاه إفطاره فليفطر وليحتسب في إفطاره بنيّة إدخال السرور على قلب أخيه ما يحتسب في الصوم وأفضل، وذلك في صوم التطوع. وإن لم يتأكد له سرور قلبه بإفطاره فليصدقه في الظاهر وليفطر. وإن تحقق له أنه متكلّف فليتعلّل وقد قال النبي ﷺ لمن امتنع بعذر الصوم:

«تكلّف لك أخوك وتقول إني صائم!»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«من دخل على أخيه وهو صائم فأفطر عنده ولم يعلمه بصومه فيمنَّ عليه كتب الله له صوم سنة»[4].

---

(١) الكافي: ج٦ ص٢٧٤ رقم ٤.

(٢) الكافي: ج٦ ص٢٧٤ رقم ٥.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

(٤) الكافي: ج٦ ص١٧٠ رقم ١٦.

الرابع: أن يمتنع عن الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة أو كان الموضع أو البساط المفروش غير حلال، أو كان يقام في المكان منكر ما كوجود إناء فضة أو تصوير حيوان أو سماع شيء من المزامير والملاهي و... فكل ذلك مما يمنع عن الإجابة واستحبابها بل يوجب تحريمها أو كراهيتها. وكذا لو كان الداعي ظالماً أو مبتدعاً أو فاسقاً أو شريراً أو متكلفاً طلباً للمباهاة والفخر.

فعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«لا ينبغي للمؤمن أن يجلس مجلساً يعصى الله فيه ولا يقدر على تغييره»[1].

وعن هارون بن الجهم قال:

«كنا مع أبي عبد الله عليه السلام بالحيرة حين قدم على أبي جعفر فختن بعض القواد ابناً له ووضع طعاماً ودعا الناس وكان أبو عبد الله عليه السلام ممن دُعي فبينا هو على المائدة يأكل ومعه عدّة على المائدة، فاستسقى رجل منهم ماء فأُتي بقدح فيه شراب لهم، فلما أن صار القدح في يد الرجل قام أبو عبد الله عليه السلام عن المائدة، فسئل عن قيامه فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ملعون من جلس على مائدة يشرب عليها الخمر - وفي رواية أخرى - ملعون من جلس طائعاً على مائدة يشرب عليها الخمر»[2].

---

(١) الكافي: ج١ ص٣٧٤.

(٢) الكافي: ج٦ ص٢٦٨.

وعن أبي إبراهيم عليه السلام قال:

«نهى رسول الله ﷺ عن طعام وليمة يخصّ بها الأغنياء ويترك الفقراء»[1].

الخامس: أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن فيكون عاملاً في أبواب الدنيا بل يحسّن نيته ليصير بالإجابة عاملاً للآخرة، وذلك بأن:

١ ـ ينوي الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ لقوله ﷺ:

«لو دعيت إلى كراع لأجبت».

٢ ـ وينوي إكرام أخيه المؤمن لقوله ﷺ:

«من أكرم أخاه المؤمن فقد أكرم الله سبحانه»[2].

٣ ـ وينوي الحذر من معصية الله لقول النبي ﷺ:

«من لم يجب الداعي فقد عصى الله ورسوله»[3].

٤ ـ وأن ينوي إدخال السرور على قلب أخيه المؤمن امتثالاً لقوله ﷺ:

«من سرّ مؤمناً فقد سرّ الله».

٥ ـ وينوي زيارته ليكون من المتحابين في الله، إذ شرط رسول الله ﷺ في الإجابة قصد التزاور والتباذل لله.

٦ ـ وينوي أن يصون نفسه من أن يساء الظن به إذا امتنع عن إجابة الدعوة كأن تحمل عدم تلبيته للدعوة على التكبّر وسوء الخلق.

---

(١) الكافي: ج٦ ص٢٨٢ رقم ٤.
(٢) الكافي: ج٢ ص٢٠٦.
(٣) البخاري: ج٧ ص٣٢.

آداب حضور الطعام

إن آداب حضور الطعام ثمانية وهي:

١ ـ أن لا يتصدّر فيأخذ أحسن الأماكن بل يتواضع.

٢ ـ أن لا يطوّل الانتظار عليهم ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد.

٣ ـ أن لا يضيّق المكان على الحاضرين بالزحمة، بل إن أشار إليه صاحب الدار بموضع لا يخالفه البتّة، فإنه قد يكون رتّب بنفسه موضع كل واحد، بحيث إن مخالفته قد تسبب له مشكلة.

٤ ـ وإن أشار إليه بعض الضيوف بالارتفاع إكراماً فليتواضع، فقد قال رسول الله ﷺ:

«إن من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس»[1].

٥ ـ ولا ينبغي أن يجلس مقابل باب حجرة النساء وسترهنّ.

٦ ـ ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام فإنه دليل على الشره.

٧ ـ أن يخصّ بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس.

---

(١) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق.

٨ ـ أن لا يستخدم المضيف ضيفه. فعن الإمام الرضاعليه السلام:

«إنه نزل به ضيف وكان جالساً عنده يحدّثه في بعض اللّيل فتغيّر السراج فمدّ الرجل يده ليعلمه فزبره أبو الحسنعليه السلام ثم بادر بنفسه وأصلحه، ثم قال له: إنا قوم لا نستخدم أضيافنا»[١].

وعن الإمام الباقرعليه السلام قال:

«إن من التضعيف ترك المكافأة ومن الجفاء استخدام الضيف فإذا نزل بكم الضيف فأعينوه وإذا رحل فلا تعينوه فإنه من النذالة، وزوّدوه وطيّبوا زاده فإنه من السخاء»[٢].

---

(١) الكافي: ج٦ ص٢٨٣.

(٢) المصدر السابق.

آداب إحضار الطعام

إن لإحضار الطعام خمسة آداب هي:

الأول: تعجيل الطعام فذلك من إكرام الضيف وقد قال النبي ﷺ:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

وإذا حضر الأكثرون وغاب البعض أو تأخروا عن الوقت، فحق الحاضرين بالتعجيل أولى من حق أولئك في التأخير. إلا أن يكون المتأخر فقيراً فينكسر قلبه عندها لا بأس بالتأخير.

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾[1]، إنهم أكرموا بتعجيل الطعام إليهم ودلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦﴾[3]، والرّوغان الذهاب بسرعة.

الثاني: ترتيب الأطعمة بحيث تقدم الفاكهة أولاً، فذلك أوفق للطب لأنها أسرع استمالة فتقع في أسفل المعدة. وفي القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة في قوله تعالى:

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٤.

(٢) سورة هود، الآية: ٦٩.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٢٦.

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾[1].

فذكر أولاً الفاكهة ثم اللحم، واللحم هو أفضل ما يقدم بعد الفاكهة. ودلّ على حصول الإكرام باللحم قوله تعالى في ضيف إبراهيم: ﴿جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ وقال تعالى في وصف الطيبات:

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾[2].

فالمن: العسل، والسلوى: اللحم، وسمي سلوى لأنه يسلى به على جميع الإدام ولا يقوم غيره مقامه. ولذلك قال النبي ﷺ:

«سيد الإدام اللحم»[3].

الثالث: أن يقدم من ألوان الطعام ألطفها حتى يستوفي منه من يريد فلا يكثر الأكل من بعده، ولا ينتظر أطيب منه.

الرابع: أن لا يبادر إلى رفع ألوان الطعام حتى يرفعوا الأيدي عنها. ولهذا أمر أن لا يرفع صاحب المائدة يده قبل القوم كي لا يستحوا فيرفعوا أيديهم عنه، بل ينبغي أن يكون آخرهم أكلاً.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«كان رسول الله ﷺ إذا أكل مع القوم أوّل من يضع يده مع القوم وآخر من يرفعها إلى أن يأكل القوم»[4].

وعن الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«إن الزائر إذا زار المزور فأكل معه ألقى عنه الحشمة وإذا لم يأكل معه ينقبض قليلاً»[5].

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٧.

(٣) الكافي: ج٦ ص٣٠٨.

(٤) الكافي: ج٦ ص٢٨٥.

(٥) المصدر السابق.

الخامس: أن يقدّم من الطعام قدر الكفاية فإن التقليل عن الكفاية نقص في المروّة والزيادة عليها تصنّع ومراءاة. فعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ليس في الطعام سرف»[1].

وعنه عليه السلام قال:

«إعمل طعاماً وتنوّق فيه وادع عليه أصحابك»[2].

وعنه عليه السلام قال:

«ثلاثة لا يحاسب عليهنّ المؤمن: طعام يأكله، وثوب يلبسه وزوجة صالحة تعاونه ويحصن بها فرجه»[3].

وعن أبي حمزة قال:

«كنا عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة فدعا بطعام ما لنا عهد بمثله لذاذة وطيباً وأُتينا بتمر ينظر فيه إلى وجوهنا في صفائه وحسنه، فقال رجل: لتسألنّ عن هذا النعيم الذي نعّمتم به عند ابن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال عليه السلام:

إن الله تعالى أجل وأكرم من أن يطعمكم طعاماً فيسوّغكموه ثم يسألكم عنه ولكن يسألكم عما أنعم عليكم بمحمد وآل محمد عليهم السلام»[4].

---

(١) الكافي: ج٦ ص٢٨٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.

آداب الانصراف عن الطعام

إن آداب الانصراف عن الطعام ثلاثة وهي:

الأول: أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار فهو سنّة، وهو من إكرام الضيف.

فعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن من حق الداخل على أهل البيت أن يمشوا معه هنيئة إذا دخل وإذا خرج»[1].

الثاني: أن ينصرف الضيف طيب النفس من عنده.

الثالث: أن لا يخرج إلا برضا صاحب المنزل وإذنه، ويراعي قلبه في مقدار الإقامة. وإذا نزل ضيفاً فلا يزيد على قدر ثلاثة أيام فربما يتبرّم به فيضطر إلى إخراجه. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«الضيافة ثلاثة أيام فما زاد فصدقة»[2].

نعم إن ألحّ عليه رب المنزل بالجلوس عن إخلاص قلب فله المقام في هذه الحالة.

---

(١) الكافي: ج٢ ص٦٥٩.

(٢) أخرجه الترمذي: ج٨ ص١٤٥.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الضيافة أول يوم والثاني والثالث، وما بعد ذلك فهو صدقة تصدّق بها عليه. ثم قال: ولا ينزل أحدكم على أخيه حتى يؤثمه معه، قيل: يا رسول الله كيف يؤثمه؟ قال: حتى لا يكون عنده ما ينفق عليه»[1].

وقال النبي صلى الله عليه وآله:

«الضيف يلطف ليلتين فإذا كانت ليلة الثالثة فهو من أهل البيت يأكل ما أدرك»[2].

(١) الكافي: ج٦ ص٢٨٣.

(٢) المصدر السابق.

آداب النكاح

فضيلة النكاح

في الآيات الكريمة:

قال الله تعالى:

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾[1].

وقال عز وجل:

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾[2] وهذا نهي عن المنع منه.

وقال الله تعالى في وصف الرسل ومدحهم:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾[3].

ومدح عز اسمه أولياءه لدعائهم:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[4].

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٢.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٨.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.

في الروايات الشريفة:

قال رسول الله ﷺ:

«النكاح سنتي فمن أحب فطرتي فليستنّ بسنتي»[1].

وقال النبي ﷺ أيضاً:

«تناكحوا تكثروا فإني أُباهي بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط»[2].

وقال ﷺ:

«من ترك التزويج مخافة العيلة قد أساء بالله الظن»[3].

وقال ﷺ:

«من كان ذا طول فليتزوّج»[4].

وقال ﷺ:

«من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج ومن لا طول له فليصم فإن الصوم له وجاء»[5].

وهذا يدل على أن سبب الترغيب خوف الفساد في العين والفرج، والوجاء هو عبارة عن رضّ الخصيتين للفحل حتى تزول فحولته، فهو مستعار للضعف عن الوقاع بالصوم.

---

(١) مجمع الزوائد: ج٤ ص٢٥٢.
(٢) أخرجه البيهقي في السنن: ج٧ ص٧٨.
(٣) الكافي: ج٥ ص٢٣٠.
(٤) أخرجه ابن ماجة: رقم ١٨٤٦.
(٥) البخاري: ج٦ ص٣.

وقال ﷺ:

«إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[1].

وقال ﷺ:

«من أعطى لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل إيمانه»[2].

وقال ﷺ:

«من تزوّج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الثاني»[3].

وهذا أيضاً إشارة إلى أن فضيلته لأجل التحرّز من المخالفة، تحصّناً من الفساد. وكأن المفسد لدين المرء في الأغلب هو فرجه وبطنه وقد كفي بالتزويج أحدهما.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«قال رسول الله ﷺ: ما استفاد امرؤ مسلم فائدة بعد الإسلام أفضل من زوجة مسلمة تسرّه إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها، وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال:

«قال رسول الله ﷺ: تزوجوا وزوجوا ألا فمن حظ

---

(١) الكافي: ج٥ ص٣٤٧.
(٢) رواه أحمد من حديث معاذ بن أنس.
(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط.
(٤) الكافي: ج٥ ص ٣٢٧.

امرىءٍ مسلم إنفاق قيمة أيمة[1]، وما من شيء أحب إلى الله عز وجل من بيت يعمر في الإسلام بالنكاح، وما من شيء أبغض إلى الله عز وجل من بيت يخرب في الإسلام بالفرقة (الطلاق) ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: إن الله عز وجل إنما أكّد في الطلاق وكرّر فيه القول من بغضه للفرقة»[2].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«ركعتان يصلّيهما المتزوّج أفضل من سبعين ركعة يصليها أعزب»[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«رُذال موتاكم العزاب»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«لما لقي يوسف عليه السلام أخاه قال: يا أخي كيف استطعت أن تتزوّج النساء بعدي؟ فقال: إن أبي أمرني وقال: إن استطعت أن تكون لك ذريّة تثقل الأرض بالتسبيح فافعل»[5].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«تزوجوا فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من أحب أن يتبع

---

(١) الأيم: التي لا زوج لها. الإنفاق: التزويج.
(٢) الكافي: ج٥ ص٣٢٨.
(٣) المصدر السابق.
(٤) الكافي: ج٥ ص٣٢٩.
(٥) المصدر السابق.

سنتي فإن من سنتي التزويج»[1].

وعن الإمام الصادق قال:

«جاء رجل إلى أبي عليه السلام فقال له: هل لك زوجة؟ فقال: لا. فقال أبي: وما أحب أن الدنيا وما فيها لي وإني بتّ ليلة ليست لي زوجة، ثم قال: الركعتان يصليهما رجل متزوج أفضل من رجل أعزب يقوم ليله ويصوم نهاره، ثم أعطاه أبي سبعة دنانير وقال: تزوّج بهذه، ثم قال أبي عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اتخذوا الأهل فإنه أرزق لكم»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال:

«جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فشكا إليه الحاجة فقال: تزوّج، فتزوّج فوسّع عليه»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«إنه سئل عن الحديث الذي يرويه الناس من أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله فشكى إليه الحاجة فأمره بالتزويج ففعل، ثم أتاه فشكى إليه الحاجة فأمره بالتزويج حتى أمره ثلاث مرات؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: نعم هو حق. ثم قال: الرزق مع النساء والعيال»[4].

---

(١) الكافي: ج٥ ص٣٢٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الكافي: ج٥ ص٣٣٠.
(٤) المصدر السابق.

قال رسول الله ﷺ:

«من ترك التزويج مخافة العيلة فقد أساء ظنّه بالله، إن الله عــز وجــل يــقــول: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾»[1].

(١) الكافي: ج٥ ص٣٣٠.

فوائد النكاح

للنكاح ستة فوائد هي:

الفائدة الأولى: الولد:

وهو الأصل ولأجله شرّع النكاح. والمقصود به بقاء النسل، وأن لا يخلو العالم من جنس الإنسان. وفي التوصل إلى الولد قربة من أربعة أوجه هي الأصل في الترغيب فيه عند الأمن من غوائل الشهوة حتى لا يحب أحدهم أن يلقى الله عزباً وهي:

□ الوجه الأول: موافقة محبّة الله بالسعي في تحصيل الولد لبقاء جنس الإنسان. وهذا الوجه هو أدق الوجوه وأبعدها عن أفهام الناس وهو أحقها وأقواها عند ذوي البصائر النافذة في عجائب صنع الله عز وجل ومجاري حكمه.

فمن كشف له عجائب المصنوعات وتنبّه لسرّ خلق الله الأرض والسماوات علم أنّ الله سبحانه مريد لبقاء جنس الإنسان وأنه رتّب لذلك أسباباً ممهّدة، والراغب عن النكاح راغب عن مراد الله تعالى ومعطّل لأسبابه.

لذا فحقيق على الراغب عن النكاح أن يستحقّ من الله المقت. فالناكح ساع في إتمام ما أحب الله، والمعرض معطل ومضيّع لما كره الله ضياعه.

□ الوجه الثاني: طلب محبة رسول الله ﷺ في تكثير من به مباهاته. إذ قد صرّح رسول الله ﷺ بذلك، ويدل على مراعاة أمر الولد ما روي في الأخبار من مدح المرأة الولود.

قال النبي ﷺ:

«خير نسائكم الولود الودود»[1].

وقال ﷺ:

«سوداء ولود خيرٌ من حسناء لا تلد»[2].

وهذا كله يدل على أن طلب الولد أدخل في اقتضاء فضل النكاح من طلب دفع غائلة الشهوة، لأن الحسناء أصلح للتحصين وغضّ البصر وقطع الشهوة.

□ الوجه الثالث: أن يبقى بعده ولد صالح يدعو له، كما ورد في الخبر:

«إن جميع عمل ابن آدم ينقطع إلا من ثلاث».

وفي الخبر:

«إن الأدعية تعرض على الموتى على أطباق من نور»[3].

وقد قال الله تعالى:

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾[4].

---

(١) السنن الكبرى: ج٧ ص٨٢.
(٢) الكافي: ج٥ ص٣٣٥.
(٣) مجمع الزوائد: ج٣ ص١٣٩.
(٤) سورة الطور، الآية: ٢١.

أي ما نقصنا من أعمالهم وجعلنا أولادهم مزيداً في إحسانهم.

□ الوجه الرابع: أن يموت الولد صغيراً فيكون له شفيعاً.

فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إن الطفل يجرّ بأبويه إلى الجنّة»(١).

وقال النبي ﷺ:

«إن المولود يقال له: ادخل الجنّة، فيقف على باب الجنّة فيظلّ محبنطئاً ـ أي ممتلئاً غيظاً وغضباً ـ ويقول: لا أدخل الجنّة إلا وأبواي معي، فيقال: أدخلوا أبويه معه الجنّة»(٢).

وقال ﷺ:

«ولد يموت قبلك خيرٌ من سبعين ولداً تخلفهم بعدك يجاهدون في سبيل الله»(٣).

وقال ﷺ

«من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم، قيل: يا رسول الله واثنان، قال: واثنان»(٤).

الفائدة الثانية: كسر الشهوة:

إن من فوائد النكاح التحصّن من الشيطان وكسر التوقان ودفع

---

(١) مجمع الزوائد: ج٣ ص٩.
(٢) مجمع الزوائد: ج٣ ص١١.
(٣) الكافي: ج٣ ص٢١٨.
(٤) مستدرك أحمد: ج١ ص٣٧٥.

غوائل الشهوة، وغضّ البصر وحفظ الفرج، وإليه الإشارة بقوله ﷺ:

«من تزوّج فقد أحرز نصف دينه فليتق الله في النصف الآخر».

وقوله ﷺ:

«عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء».

فالنكاح لأجل دفع غائلة الشهوة مهم في الدين. فالشهوة إن غلبت ولم تقاومها قوّة التقوى دفعت بالإنسان إلى اقتحام الشهوات وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[1].

وإن كان ملجماً بلجام التقوى فغايته أن يكف الجوارح عن إجابة الشهوة فيغض البصر ويحفظ الفرج. أما حفظ القلب عن الوساوس والتفكر فلا يدخل تحت اختيار الإنسان، بل إن النفس تبقى تجاذب الإنسان وتحدّثه بأمور الوقاع فلا يفتر عنه الشيطان الموسوس في أكثر الأوقات. وقد تعترضه هذه الوساوس أثناء الصلاة وتحدثه بأمور الوقاع ما لو صرح به بين أيدي الناس لأستحيى منهم. أما المواظبة على الصوم فلا تقطع مادة الوسوسة في حق أكثر الخلق إلا أن يضاف إليه ضعف في البدن وفساد في المزاج، ولذلك قال ابن عباس: لا يتمّ نسك الناسك إلا بالنكاح. وهذه محنة عامة قلّ من يتخلّص منها.

وقد قيل في معنى قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[2]، أنه لا يصبر عن النساء. وقيل: إنه إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله،

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٨.

وبعضهم قال: ذهب ثلث دينه. فهذه بلية غالبة إذا هاجت لا يقاومها عقل ولا دين، وهي مع أنها صالحة لأن تكون باعثة على الحياتين إلا أنها أقوى آلة للشيطان. وإليه الإشارة بقول النبي ﷺ:

«ما رأيت ناقصات عقل ودين أغلب لذوي الألباب منكنّ»[1].

وإنما ذلك لهيجان الشهوة.

وكان بعض الصالحين يكثر النكاح حتى لا يخلو من اثنتين وثلاث وأربع، فأنكر عليه بعض الصوفية، فقال له الرجل الصالح: هل جلس أحد منكم بين يدي الله جلسة أو وقف بين يديه موقفاً فخطر على قلبه خاطر شهوة؟! فقال الصوفية: يصيبنا من ذلك كثير، فقال الرجل: لو رضيت في عمري كله بمثل حالكم لما تزوجت؛ لكني ما خطر على قلبي خاطر شغلني عن حالي إلا نفذته لأستريح منه وأرجع إلى شغلي، ومنذ أربعين سنة ما خطر على قلبي معصية.

فالحاجة إلى الجماع كالحاجة إلى القوت، والزوجة كالقوت وهي سبب لظهارة القلب، ولذلك أمر رسول الله ﷺ كل من وقع بصره على امرأة فتاقت إليها نفسه أن يجامع أهله لأن ذلك يدفع الوساوس عن النفس.

قال النبي ﷺ:

«إن المرأة إذا أقبلت أقبلت في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن معها مثل الذي معها»[2].

---

(١) مجمع الزوائد: ج٣ ص١١٨.

(٢) أخرجه الترمذي ج٥ ص١٠٦.

ولما كانت الشهوة أغلب على أمزجة العزب كان استكثار الصالحين منهم للنكاح أشدّ، ولأجل فراغ القلب أبيح نكاح الأمة عند خوف العنت مع أن فيه إرقاقاً للولد، ولكن إرقاق الولد أهون من إهلاك الدين. ففي إرقاق الولد تنغيص الحياة عليه مدّة، أما اقتحام الفاحشة ففيها تفويت الحياة الأخروية.

روي أنه انصرف الناس ذات يوم من مجلس ابن عباس وبقي شاب لم يبرح فقال ابن عباس: هل من حاجة؟ قال: نعم أردت أن أسأل مسألة فاستحييت من الناس وأنا الآن أهابك وأجلّك، فقال: إني شاب لا زوجة لي ولكن خشيت العنت على نفسي فربما استمنيت بيدي فهل في ذلك معصية، فأعرض عنه ابن عباس وقال: أفّ وتفّ نكاح الأمة خيرٌ منه وهو خير من الزنى.

فإذاً في النكاح فضل من هذا الوجه. لكن هذا لا يعم الكل بل الأكثر. فربّ شخص فترت شهوته بكبر السنّ أو مرض أو غيره فينعدم هذا الباعث عنده. ومن الطباع ما يغلب عليها الشهوة بحيث لا تحصّنه المرأة الواحدة، فيستحب لصاحبه الزيادة على الواحدة إلى الأربع.

ويقال إن الحسن بن علي عليه السلام كان مناكحاً، وقد قال رسول الله ﷺ له: «أشبهت خَلقي وخُلقي»[١] وقال ﷺ: «حسن مني وحسين من علي»[٢]، قيل إن كثرة نكاحه أحد ما أشبه به خلق رسول الله ﷺ.

الفائدة الثالثة: الترويح عن النفس:

إن ترويح النفس وأنسها بالمجالسة والنظر والملاعبة إراحة للقلب وتقوية له على العبادة. فإن النفس ملولة وهي تنفر عن الحق لأنه على

---

(١) البخاري: ج٥ ص٢٤.

(٢) مسند أحمد: ج٤ ص١٣٢.

خلاف طبعها. فلو أكرهت على مداومة ما يخالفها جمحت وتأبّت. أما إذا روّحت باللذات في بعض الأوقات قويت ونشطت. وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ويريح القلب. وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات إلى المباحاة، ولذلك قال الله تعالى:

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[1].

وقال علي عليه السلام:

«روّحوا القلوب فإنها إذا أُكرهت عميت»[2].

عن أبي ذر (رضوان الله تعالى عليه) أنه قال:

«على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يخلو فيها لمطعمه ومشربه. فإن في هذه الساعة عون على تلك الساعات»[3].

وقال النبي صلى الله عليه وآله:

«لكل عامل شرة[4] ولكل شرة فترة فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى»[5].

وقال صلى الله عليه وآله أيضاً:

«حبّب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرّة عيني في الصلاة»[6].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩.
(٢) نهج البلاغة: المختار من الحكم: رقم ١٩٣.
(٣) الكافي: ج٥ ص٨٧.
(٤) الشرة: الجدّ والمكابدة بحدة وقوّة.
(٥) الكافي: ج٢ ص٧٥.
(٦) مسند أحمد.

فهذه فائدة لا ينكرها من جرّب إتعاب نفسه في الأفكار والأذكار وصنوف الأعمال. ثم ربّ شخص يستأنس بالنظر إلى الماء الجاري والخضرة وأمثالها فلا يحتاج إلى الترويح عن النفس بمحادثة النساء وملاعبتهن، فهذا يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فليتنبّه له.

الفائدة الرابعة: تفريغ القلب عن تدبير أمور المنزل وتهيئة أسباب المعيشة:

إن الإنسان لو لم يكن له شهوة الوقاع لتعذر عليه العيش في منزله لوحده، إذ لو تكفل بجميع أشغال المنزل لضاع منه أكثر وقته، فلم يقدر على التفرغ للعلم والعمل. لذا كانت المرأة الصالحة المصلحة للمنزل عوناً على الدين.

قال رسول الله ﷺ:

«ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة مؤمنة صالحة تعينه على آخرته»[1].

الفائدة الخامسة: مجاهدة النفس وتهذيبها:

إن مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهنّ واحتمال الأذى منهنّ والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهنّ والقيام بتربية الأولاد، كل هذه تعدّ من الأعمال العظيمة الفضل. فقد قال رسول الله ﷺ:

«ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[2].

---

(١) ابن ماجة: رقم ١٨٥٦.

(٢) مجمع الزوائد: ج٥ ص١٩٧.

وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط. ولا من صبر على الأذى كمن رفّه نفسه وأراحها. فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله عز وجل. فقد قال النبيﷺ:

«الكاد في نفقة عياله كالمجاهد في سبيل الله عز وجل»[1].

وقالﷺ:

«ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة وأن الرجل ليؤجر في رفع اللقمة إلى في امرأته».

وقالﷺ:

«إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال»[2].

وقالﷺ:

«من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهمّ بطلب المعيشة»[3].

وقالﷺ:

«من كانت له ثلاث بنات فأنفق عليهن وأحسن إليهنّ حتى يغنيهنّ الله عنه أوجب الله تعالى له الجنة البتة إلا أن يعمل عملاً لا يغفر الله له»[4].

وفي أخبار الأنبياء عليهم السلام إن قوماً دخلوا على يونس على نبينا وآله

---

(١) الكافي: ج٥ ص٨٨.

(٢) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤١٢١.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط.

(٤) أخرجه أبو داود: ج٢ ص٦٣٠.

وعليه السلام فأضافهم، وكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت فتعجبوا من ذلك فقال لا تعجبوا فإني سألت الله عز وجل وقلت: ما أنت معاقب لي به في الآخرة فعجّله لي في الدنيا، فقال: إن عقوبتك بنت فلان فتزوّج بها، فتزوجت بها وأنا صابر على ما ترون منها.

وفي الصبر على ذلك رياضة للنفس وكسر للغضب وتحسين للخلق. وأن المنفرد بنفسه أو المشاكل لمن حسن خلقه لا تترشح منه خبائث باطنه ولا تنكشف له عيوبه الباطنة. فحق على سالك طريق الآخرة أن يجرّب نفسه ويمتحنها في مثل هذه المواقف حتى يعتاد على الصبر لكي تعتدل أخلاقه وترتاض نفسه، فيصفو باطنه ويطهر من الصفات الذميمة.

الفائدة السادسة: السعي نحو اللّذة الحقيقية:

إن من فوائد النكاح أيضاً أن يدرك الإنسان لذّة النكاح ثم يقيسها مع لذات الآخرة. فلعمري في الشهوة حكمة أخرى غير الإرهاق إلى الإيلاد، فهي لذّة لا توازيها لذّة وهي مع ذلك منبّهة على اللذات الأخرى الموعودة في الجنان. فإحدى فوائد لذات الدنيا هي الرغبة في دوامها في الجنة، فإن هذه اللذّة الناقصة بسبب سرعة الإنصرام تحرّك الرغبة في اللذّة الكاملة بسبب الميل نحو اللذة الدائمة.

آفات النكاح

آفات النكاح ثلاثة:

الأولى: العجز عن طلب الحلال:

إن طلب الحلال لا يتيسّر لكل أحد سيّما في هذه الأوقات، فيكون النكاح سبباً للتوسع في طلب الحرام الذي فيه هلاكه وهلاك أهله. أما الأعزب فهو في مأمن من ذلك، بخلاف المتزوّج الذي غالباً ما يدخل في مداخل السوء ويتبع هوى زوجته ويبيع آخرته بدنياه. حتى قيل: إن العبد ليوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال، فيسأل عن رعاية عياله والقيام بهنّ وعن ماله من أين كسبه وفيم أنفقه؟ حتى تفني تلك الطلبات تمام أعماله فلا يبقى له حسنة، فتنادي الملائكة؛ هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا وارتهن اليوم بأعماله.

ويقال: إن أوّل ما يتعلّق بالرجل في القيامة أهله وولده فيوقفونه بين يدي الله تعالى ويقولون: يا ربنا خذ لنا بحقنا منه فإنه ما علّمنا ما نجهل، وكان يطعمنا من الحرام ونحن لا نعلم، فيُقتصُّ لهم منه.

وقال النبي ﷺ:

«لا يلقى الله سبحانه أحد بذنب أعظم من جهالة أهله وأولاده»[1].

---

(١) ذكره صاحب الفردوس.

فهذه آفة عامة قلّ من يتخلّص منها إلا من قدر على كسب الحلال أو كان له من القناعة ما يمنعه عن الزيادة أو من له مال موروث.

الثانية: التقصير في القيام بحقوق الأزواج:

إن القصور في القيام بحقوق الأزواج والصبر على أخلاقهنّ واحتمال الأذى منهنّ كلها تعد من آفات النكاح. وهذه الآفات هي دون الآفة الأولى. لأن تحسين الخلق مع النساء والقيام بحقوقهنّ أهون من طلب الحلال. ولكن في هذه الآفة أيضاً خطو عظيم أيضاً لأنه راع ومسؤول عن رعيته، وقد قال النبيﷺ:

«كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول»[1].

وروي أن العبد الهارب من عياله بمنزلة العبد الهارب الآبق، فلا تقبل له صلاة ولا صيام حتى يرجع إليهم. ومن يقصّر عن القيام بحقوقهنّ وإن كان حاضراً فهو هارب، وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[2].

الآفة الثالثة: أن يصبح الأهل والولد شاغلاً له عن الله تعالى:

إن من آفات النكاح أيضاً أن يكون الأهل والولد شاغلاً للإنسان عن الله تعالى، وجاذباً له إلى طلب الدنيا وتدبير حسن المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره لهم وطلب التفاخر والتكاثر بهم. فكل ما يشغل عن الله من أهل ومال وولد فهو شؤمٌ على صاحبه. وقد يصل انشغاله إلى حد يدعوه إلى التنعم بالمباح بل إلى الاستغراق في ملاعبة

---

(١) الحاكم في المستدرك: ج١ ص٤١٥.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.

النساء ومؤانستهنّ والإمعان في التمتع بهنّ حتى يصبح القلب مستغرقاً بذلك فينقضي اللّيل والنهار دون أن يتفرّغ المرء إلى التفكر في الآخرة والاستعداد لها.

فهذه هي آفات النكاح وفوائده، والحكم على شخص بأن الأفضل له هو النكاح أو العزوبة بشكل مطلق قصور عن الإحاطة بمجامع هذه الأمور التي ذكرناها. بل على الإنسان أن يتخذ هذه الآفات والفوائد معياراً ومحكاً يعرض نفسه عليها، فإن انتفت في حقّه الآفات واجتمعت فيه الفوائد، بأن كان له مثلاً مالٌ حلال وخلق حسن وجدّ في الدين بحيث لا يشغله النكاح عن الله تعالى، وبأن كان شاباً يحتاج إلى تسكين الشهوة، ويعش لوحده فاحتاج إلى من يعينه على تدبير المنزل، عندها لا ينبغي أن يتمارى في أن النكاح أفضل له.

وإن انتفت عنده الفوائد واجتمعت الآفات فالعزوبة له أفضل. وإن تقابل الأمران وتساويا فينبغي أن يوزن بالميزان القسط حظّ تلك الفائدة في الزيادة في دينه وحظ تلك الآفة في النقصان منه، فإذا غلب عليه الظن في رجحان أحدهما حكم به. وأظهر الفوائد الولد وتسكين الشهوة، وأظهر الآفات الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله.

☐ المتعة:

ويمكن لمن احتاج إلى كسر الشهوة فقط مع خوفه من الوقوع في آفات النكاح أن يستمتع بالنساء بالعقد المنقطع ليحصل له التحصّن من الزنى ونحوه. ولهذا السبب شرّع العقد المنقطع نعمة من الله تعالى ورسوله ﷺ على عباده. ولكن العامة بسبب متابعتهم لعمر حُرِموا من بركة ذلك ووقعوا بسبب ذلك في المهالك، حيث قال عمر:

«متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا أحرّمهما وأعاقب عليهما»[1].

أراد بالمتعتان، متعة النساء ومتعة الحج جرأة منه على الله ورسوله ﷺ، حتى قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«لولا ما سبقني به بنيّ الخطاب ما زنى إلا شفى»[2] أي قليل.

وعن علي عليه السلام أيضاً أنه سئل عن المتعة فقال عليه السلام:

«نزلت في القرآن: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ﴾»[3].

وعن زرارة قال:

«جاء عبد الله بن عمر الليثي إلى أبي جعفر عليه السلام فقال: ما تقول في متعة النساء؟ فقال: أحلّها الله في كتابه على لسان نبيّه ﷺ فهي حلال إلى يوم القيامة، فقال يا أبا جعفر مثلك يقول هذا وقد حرّمها عمر ونهى عنها. فقال: وإن كان فعل، قال: فإني أعيذك بالله من ذلك أن تحلّ شيئاً حرّمه عمر، فقال له: فأنت على قول صاحبك وأنا على قول رسول الله ﷺ، فهلُمَّ أُلاعنك أن القول ما قال رسول الله ﷺ وأن الباطل ما قال صاحبك»[4].

---

(١) تاريخ الخلفاء: السيوطي ص١٣٧.

(٢) الكافي: ج٥ ص٤٤٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.: ص٤٤٩ رقم ٤.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«المتعة نزل بها القرآن وجرت بها السنّة من رسول الله صلى الله عليه وآله»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: إنه سأله أبو حنيفة عن المتعة فقال عليه السلام:

«عن أي المتعتين تسأل؟ قال: سألتك عن متعة الحج فأنبئني عن متعة النساء أحق هي؟ فقال عليه السلام: سبحان الله أما تقرأ كتاب الله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾. فقال أبو حنيفة: والله لكأنها آية لم أقرأها قط»[2].

□ الجمع بين العبادة والنكاح:

إن النكاح ليس مانعاً من التخلّي لعبادة الله تعالى من حيث إنه عقد ولكن من حيث الحاجة إلى الكسب. فإن قدر الإنسان على الكسب الحلال فالنكاح له أفضل، لأن المواظبة على العبادة في الليل والنهار من غير استراحة غير ممكن. لذا فالأفضل الجمع بين العبادة والنكاح في حق من قدر مُنّته[3] وعلت همته، فلا يشغله عن الله شاغل. فرسول الله صلى الله عليه وآله أخذ بأسباب القوّة وجمع بين فضل العبادة والنكاح. فلقد كان مع تسع من النسوة متفرغاً لعبادة الله، فكان قضاء الوطر من النكاح في حقّه غير مانع له من عبادة الله. بل إن رسول الله صلى الله عليه وآله لعلوّ درجته لم يكن يمنعه أمر هذا العالم كله عن حضور القلب مع الله تعالى، بل كان ينزل عليه الوحي في بعض الأحيان وهو في فراش امرأته.

---

(١) الكافي ج٥ ص٤٤٩.

(٢) المصدر السابق، رقم ٦.

(٣) المنّة: بضم الميم أي القوة.

صفات المرأة الصالحة

إن الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ليدوم العقد وتتوفّر مقاصده؛ ثمان وهي:

١ ـ أن تكون المرأة صالحة وذات دين:

وهذا هو الأصل الذي ينبغي أن يعتنى به. فالمرأة إن كانت ضعيفة الدين، وغير قادرة على صيانة نفسها وفرجها، سوّدت وجه زوجها بين الناس، وشوشت قلبه بالغيرة، فيتنغّص بذلك عيشه. فإذا سلك معها سبيل الحمية والغيرة لم يزل في بلاء ومحنة، وإن سلك معها سبيل التساهل كان متهاوناً بدينه وعرضه ومنسوباً إلى قلّة الحمية والأنفة. وإذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاؤه بها أعظم وأشد، إذ يشق عليه حينئذ مفارقتها ولا يصبر عنها ولا يصبر عليها، ويكون كالذي جاء إلى رسول الله ﷺ فقال:

«يا رسول الله إن لي امرأة لا تردّ يد لامس، فقال ﷺ: طلقها، قال: إني أحبها، قال ﷺ: امسكها»[1].

فقد أمره ﷺ بإمساكها خوفاً عليه، لأنه إن طلقها هلك هو أيضاً

(١) النسائي: ج٦ ص٦٧.

وفسد. فرأى ﷺ أن دوام نكاحه مع دفع الفساد عنه وضيق قلبه أولى، وإن كانت فاسدة الدين. فهو إن سكت ولم ينكر عليها لكان شريكاً في المعصية ومخالفاً لقوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾، وإن أنكر وخاصم ومنع تنغّص عيشه، ولهذا بالغ النبي ﷺ في التحريض على نكاح ذات الدين فقال ﷺ:

«تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها فعليك بذات الدين»[1].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«من نكح امرأة لمالها وجمالها حرم مالها وجمالها، ومن نكحها لدينها رزقه الله مالها وجمالها»[2].

وقال النبي ﷺ:

«لا تنكح المرأة لجمالها فلعلّ جمالها يرديها، ولا لمالها فلعلّ مالها يطغيها، وانكح المرأة لدينها»[3].

وإنما بالغ النبي ﷺ في الحث على ذات الدين لأن مثل هذه المرأة تكون عوناً على الدين، أما إذا لم تكن متديّنة فستكون شاغلة عن الدين ومشوشة له.

٢ ـ أن تكون المرأة حسنة الخلق:

وهذا أصل مهم أيضاً لأجل الاستعانة على الدين، فالمرأة إن كانت سليطة بذيئة اللسان سيئة الخلق كافرة للنعم كان ضررها أكثر من نفعها. والصبر على لسان النساء ممن يمتحن به الأولياء. وقد قيل لا

(١) صحيح مسلم: ج٤ ص١٧٥.

(٢) الكافي: ج٥ ص٣٣٣.

(٣) أخرجه ابن ماجة، رقم ١٨٥٩.

تنكحوا في النساء ستّاً: الأنّانة والمنّانة والحنّانة والحدّاقة والبرّاقة والشداقة.

ـ أما الأنّانة: فهي التي تكثر الأنين والتشكي.

ـ والمنّانة: التي تمنّ على زوجها فتقول: فعلت لأجلك كذا وكذا.

ـ والحنانة: التي تحنّ إلى زوج آخر أو إلى ولدها من زوج آخر، وهذا مما يجب اجتنابه أيضاً.

ـ الحدّاقة: التي ترمي إلى كل شيء بحدقتها فتشتهيه وتكلّف الزوج شراءه.

ـ البرّاقة: تحتمل معنيين أحدهما أن تكون طول النهار في تصقيل وجهها وتزيينه ليكون لوجهها بريق يحصل بالتصنع. والثاني: أن تغضب على الطعام، فلا تأكل إلا وحدها وتستقلّ نصيبها في كل شيء.

ـ الشدّاقة: المتشدّقة الكثيرة الكلام، وقد قال النبيﷺ:

«إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون المتشدقون والمتفيهقون»[1].

ويحكى أن السايح الأزري لقي إلياس عليه السلام في سياحته فأمره بالتزويج ونهاه عن التبتّل ثم قال: لا تنكح أربعاً: المختلعة والمبارية والعاهرة والناشزة، أما المختلعة فهي التي تطلب الخلع كل ساعة من غير سبب. والمبارية المباهية بغيرها، المفاخرة بأسباب الدنيا، والعاهرة الفاسقة التي تعرّف بخليل وخدن؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾[2].

---

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٥.

وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول:

«شرّ خصال الرجل خير خصال النساء: البخل والزهو والجبن. فإن المرأة إذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال زوجها، وإذا كانت مزهوّة استنكفت أن تكلّم أحداً بكلام ليّن مريب، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء فلم تخرج من بيتها واتّقت مواضع التهم خيفة من زوجها».

وعن إبراهيم الكرخي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن صاحبتي هلكت وكانت لي موافقة وقد هممت أن أتزوّج فقال لي:

«انظر أين تضع نفسك ومن تشركه في مالك وتطّلعه على دينك وسرّك فإن كنتَ لا بد فاعِلاً فبكراً تنسب إلى الخير وإلى حسن الخلق واعلم أنهنّ كما قال:

ألا إن النساء خلقن شتّى ... فمنهنّ الغنيمة والغرامُ

ومنهنّ الهلال إذا تجلّى ... لصاحبه ومنهنّ الظلامُ

فمن يظفر بصالحهنّ يسعد ... ومن يُغبن فليس له انتقامُ

وهنّ ثلاث: فامرأة ولودٌ ودود تعين زوجها على دهره لدنياه وآخرته ولا تعين الدهر عليه، وامرأة عقيم لا ذات جمال ولا خلق ولا تعين زوجها على خير، وامرأة صخّابة ولّاجة همازة تستقل الكثير ولا تقبل اليسير»[1].

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إن خير نسائكم الولود الودود العفيفة، العزيزة في

---

(١) الكافي: ج٥ ص٣٢٣. ولاجة: أي كثيرة الدخول والخروج.

أهلها الذليلة مع بعلها، المتبرّجة مع زوجها الحصان على غيره، التي تسمع قوله وتطيع أمره، وإذا خلا بها بذلت له ما يريد منها ولم تبذّل كتبذُّل الرجل.

ألا أخبركم بشرار نسائكم الذليلة في أهلها العزيزة مع بعلها، العقيم الحقود التي لا تورّع من قبيح، المتبرّجة إذا غاب عنها بعلها الحَصان معه إذا حضر، لا تسمع قوله ولا تطيع أمره، وإذا خلا بها بعلها تمنّعت منه كما تمنّع الصعبة عن ركوبها، لا تقبل منه عذراً ولا تغفر له ذنباً»[1].

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خير نسائكم العفيفة الغلِمة»[2].

وعن الإمام الرضاعليه السلام قال:

«قال أمير المؤمنينعليه السلام: خير نسائكم الخمس فقيل: يا أمير المؤمنين وما الخمس؟ قال: الهيّنة الليّنة المؤاتية التي إذا غضب زوجها لم تكتحل بغمض حتى يرضى، فإذا غاب عنها زوجها حفظته في غيبته، فتلك عامل من عمّال الله وعامل الله لا يخيب»[3].

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«خير نسائكم الطيبة الريح، الطيبة الطبيخ، التي إن

---

(١) الكافي: ج٥ ص٣٢٤. لم تبذل: أي لم تظهر الشوق كما يظهر الرجل بل تحفظ نفسها عند إظهار الرغبة. الحصان: ـ بالفتح ـ المرأة العفيفة.

(٢) الغلمة: هيجان شهوة النكاح ـ الكافي: ج٥ ص٣٢٤.

(٣) المؤاتية: المطيعة ـ اكتحلت غمضاً: نامت ـ الكافي: ج٥ ص٣٢٤.

أنفقت أنفقت بمعروف وإن أمسكت أمسكت بمعروف فتلك عامل من عمال الله وعامل الله لا يخيب»[1].

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«إن خير نسائكم التي إذا خلت مع زوجها خلعت له درع الحياء، وإذا خلت مع غيره لبست معه درع الحياء»[2].

وعن النبي أنه قال:

«شرار نسائكم العقرة الدنسة اللجوجة العاصية، الذليلة في قوتها، العزيزة في نفسها، الحصان على زوجها، الهلوك على غيره»[3].

وعن الإمام الصادق قال:

«كان من دعاء النبيصلى الله عليه وآله: أعوذ بك من امرأة تشيبني قبل مشيبي»[4].

٣ ـ أن تكون حسنة الوجه:

إن حسن الوجه مطلوب أيضاً، إذ به يحصل التحصّن، والطبع عادة لا يميل إلى الدميمة. أما ما نقلناه من الحثّ على الدين وأن المرأة لا تنكح لجمالها فليس مانعاً عن رعاية الجمال. بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدين. فإن الجمال في غالب الأمر يرغّب في النكاح ويهوّن أمر الدين، وبه تحصل الألفة والمودّة

---

(١) الكافي: ج٥ ص٣٢٥.

(٢) الكافي: ج٥ ص٣٣٤ رقم ٢.

(٣) العقرة: التي لا تلد، الهلوك: الفاجرة. الكافي: ج٥ ص٣٢٦ رقم ٢.

(٤) المصدر السابق: رقم ٣.

غالباً، ولقد حثّ الشرع على مراعاة أسباب الألفة والمودّة ولذلك استحبّ النظر إلى المرأة قبل العقد.

قال رسول الله ﷺ:

«إذا أوقع الله في قلب أحدكم من امرأة فلينظر إلى وجهها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما»[١].

أي يؤلّف بينهما من وقوع الأدمة على الأدمة وهي الجلدة والبشرة الظاهرة. وقد قيل إن كل زواج يقع على غير نظر فآخره همّ وغمّ.

ومن المعلوم أن النظر لا يكشف عن الخلق والدين، بل يكشف عن الجمال والقبح. والاغترار قد يقع في كل من الجمال والخلق معاً. لذا يستحب إزالة هذا الغرور بالجمال من خلال النظر، وبالخلق من خلال البحث عن الأوصاف والفحص عنها.

وعلى المتفحّص عن أخلاق المرأة وجمالها أن يسأل من كان بصيراً وصادقاً وخبيراً بالظاهر والباطن. بحيث لا يميل إلى المرأة فيفرط في الثناء ولا يحسدها فيقصّر. فالطباع مائلة في مبادىء النكاح ووصف المنكوحات إلى الإفراط والتفريط، وقلّ من يصدق فيه. بل إن الخداع والإغراء فيه أغلب، لذا كان الاحتياط فيه مهماً.

أما من أراد من الزوجة مجرّد السنّة أو الولد أو تدبير المنزل فرغب عن الجمال فهو إلى الزهو أقرب، لأن طلب الجمال باب من الدنيا وإن كان عند البعض معيناً على الدين، لأن الذي لا يأمن على دينه إن لم يكن له مستمتع فعليه أن يطلب الجمال، فالتلذذ بالمباح حصن للدين.

وقد قيل: إن المرأة إذا كانت حسناء خيرة الخلق، سوداء الحدقة

---

(١) أخرجه ابن ماجة: رقم ١٨٦٤.

والشعر، كبيرة العين، بيضاء اللون، محبّة لزوجها، قاصرة الطرف عليه، فهي على صورة الحور العين، فالله تعالى قد وصف نساء الجنّة بهذه الأوصاف فقال عز وجل: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧﴾[1].

فالعروبة؛ هي العاشقة لزوجها، المشتهية للوقاع، والحوراء هي البيضاء. قال رسول الله ﷺ:

«خير نسائكم التي إذا نظر إليها زوجها سرّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله»[2].

٤ ـ أن تكون خفيفة المهر:

لقد تزوّج رسول الله ﷺ بعض نسائه على عشرة دراهم، وكان أثاث بيته رحى يد وجرّة ووسادة من أدم حشوها ليف. وقد أولم على بعض نسائه بمدّين من شعير وعلى أخرى بمدّين من تمر. ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله ﷺ، وقد جاء في الخبر:

«من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحيمها ـ أي الولادة ـ ويسر مهرها»[3].

وقال النبي ﷺ:

«إن من يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها وتيسير رحمها»[4].

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٣٧.

(٢) أصول الكافي.

(٣) مجمع الزوائد: ج٤ ص٢٨١.

(٤) المصدر السابق.

وقال ﷺ:

«أبركهنّ أقلّهن مهراً»[1].

٥ ـ أن تكون المرأة ولوداً:

فالمرأة إن عرفت العقر فليمتنع عن تزوّجها. قال رسول الله ﷺ:

«عليكم بالولود الودود»[2].

وإن لم يكن لها زوج ولم يعرف حالها، فيراعى صحّتها وشبابها فإنها تكون ولوداً في الغالب مع هذين الوصفين.

٦ ـ أن تكون بكراً:

قال رسول الله ﷺ لجابر (رضي الله عنه) وقد نكح ثيباً:

«هلاّ بكراً تلاعبها وتلاعبك»[3].

وفي البكارة ثلاث فوائد:

الأولى: أن تحب الزوج وتألفه فتؤثر في معنى الود. فالطباع مجبولة على الأنس بأول مألوف، أما التي اختبرت الرجال ومارست الأحوال، فربما لا ترضى ببعض الأوصاف التي قد تخالف ما ألفته، مما يؤدي بها إلى بغض الزوج.

الثانية: إن ذلك أكمل في مودّته لها، فإن الطبع ينفر من التي قد مسّها الغير.

الثالثة: إنها لا تحنّ إلى الزوج الأوّل. وآكد المحبة إنما يقع مع الحبيب الأول غالباً.

---

(١) مجمع الزوائد: ج٤ ص٢٨١.

(٢) أخرجه النسائي: ج٦ ص٦٥.

(٣) أخرجه مسلم: ج٤ ص١٧٧.

٧ ـ أن تكون المرأة نسيبة:

أي أن تكون من أهل بيت الخير والصلاح، لأنها ستربي بناتها وبنيها. أما لو لم تكن مؤدّبة فإنها لن تحسن التأديب والتربية. لذلك قال رسول الله ﷺ:

«إياكم وخضراء الدِّمن، قيل: وما خضراء الدِّمن؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء»[1].

وقال ﷺ:

«تخيّروا لنطفكم فإن العرق دسّاس»[2].

٨ ـ أن لا تكون من القرابة القريبة:

فإن ذلك يقلّل الشهوة. وقال رسول الله ﷺ:

«لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاوياً» أي نحيفاً، وذلك لتأثيره في تضعيف الشهوة. لأن الشهوة إنما تنبعث من خلال قوة الإحساس بالنظر واللمس، وهذا الإحساس إنما يقوى بالأمر الجديد والغريب. أما المرأة المعهودة التي دام النظر إليها مدّة فإنه يضعف التأثر بها فلا تنبعث الشهوة بها.

هذه هي الخصال المرغّبة في النساء. ويجب على الولي أيضاً أن يراعي خصال الزوج، وينظر لكريمته فلا يزوجها ممن ساء خُلقه أو خَلقه أو ضعف إيمانه أو قصر عن القيام بحقها أو كان لا يكافيها في نسبها.

---

(١) الكافي: ج٥ ص٣٣٢ رقم ٤.

(٢) المصدر السابق.

قال النبي ﷺ:

«النكاح رقّ فلينظر أحدكم أين يضع كريمته»[1].

أما لو زوّجها من الظالم أو الفاسق فقد جنى على دينه وتعرّض لسخط الله، بما قطع من حق الرحم. قال النبي ﷺ:

«من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها»[2].

---

(١) رواه أبو عمر التوقاني في معاشرة الأهلين.

(٢) أخرجه ابن حبان.

حق المرأة على الرجل

١ ـ الوليمة:

وهي مستحبة. فقد روي:

«إن رسول الله ﷺ رأى على عبد الرحمن بن عوف أثر صفرة، فقال: ما هذا؟ فقال: تزوّجت امرأة على وزن نواة من ذهب، فقال ﷺ: بارك الله لك أولِم ولو بشاة»[١].

وقيل أيضاً:

«أولم رسول الله ﷺ على صفيّة بسويق وتمر»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«قال رسول الله ﷺ: الوليمة في أربع: العرس والخرس وهو المولود يعقّ عنه ويطعم، والإعذار وهو ختان الغلام، والإياب وهو الرجل يدعو إخوانه إذا عاد من غيبته»[٣].

(١) صحيح مسلم: ج٤ ص١٤٤.

(٢) الترمذي: ج٥ ص٣.

(٣) الكافي: ج٦ ص٢٨١.

وعن أبي إبراهيم عليه السلام قال:

«نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن طعام وليمة يخصُّ بها الأغنياء ويترك الفقراء»[1].

وعن معاوية بن عمار قال:

«قال رجل لأبي عبد الله عليه السلام: إنا نجد لطعام العرس رائحة ليست برائحة غيره. فقال له: ما من عرس يكون ينحر فيه جزوراً ويذبح بقرة أو شاة إلا بعث الله تعالى ملكاً معه قيراط من مسك الجنّة يديفه في طعامهم فتلك الرائحة التي تشمّ لذلك»[2].

٢ ـ حسن الخلق:

على الرجل أن يكون حسن الخلق مع النساء وأن يحتمل الأذى منهنّ ترحماً عليهنّ لقصور عقلهنّ، فقد قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾[3] وقال الله تعالى أيضا في تعظيم حقهنّ:

﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[4].

وقال تعالى:

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾[5] وقد قيل في تفسيرها إنها المرأة.

وكان آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث؛ كان يتكلم بهنّ حتى

---

(١) الكافي: ج٦ ص٢٨٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٤) سورة النساء، الآية: ٢١.

(٥) سورة النساء، الآية: ٣٦.

تلجلج لسانه وخفي كلامه فجعل يقول:

«الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهنّ ما لا يطيقون، الله الله في النساء فإنهنّ عوان عندكم وفي أيديكم ـ أي أسراء ـ أخذتموهنّ بعهد الله واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله»[1].

وقال النبي ﷺ:

«من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيّوب على بلائه، ومن صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله مثل ثواب آسية امرأة فرعون»[2].

وليس حسن الخلق معهنّ كف الأذى عنهنّ بل احتمال الأذى منهنّ والحلم عند طيشهنّ وغضبهنّ اقتداءً برسول الله ﷺ، فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام وتهجره الواحدة منهنّ يوماً إلى الليل[3].

فقد جرى ذات مرّة بينه ﷺ وبين عائشة كلام حتى أدخل النبي ﷺ بينهما أبا بكر حكماً، واستشهده فقال لها رسول الله ﷺ:

«تكلّمين أو أتكلّم فقالت: بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقاً، فلطمها أبو بكر حتى دُمي فوها، وقال: يا عدوّة نفسها أو غير الحق يقول؟ فاستجارت برسول الله ﷺ وقعدت خلف ظهره فقال له النبي ﷺ: لم ندعك لهذا ولم نرد هذا منك»[4].

---

(١) أخرجه أحمد: ج٦ ص٢٩٠.

(٢) مكارم الأخلاق: الطبرسي ص٢٤٥.

(٣) راجع الدر المنثور: ج٦ ص٢٤٣.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط.

وقالت له مرّة في كلام غضبت عنده: أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟ وذلك في حال صباها، فتبسّم رسول الله ﷺ واحتمل ذلك حلماً وكرماً وقال لها:

«إني لأعرف رضاك من غضبك، قالت: وكيف تعرفه يا رسول الله؟ قال: إذا رضيت قلت: لا وإله محمد وإذا غضبت قلت: لا وإله إبراهيم، قالت: صدقت إنما أهجر اسمك»[1].

٣ ـ المداعبة والمزاح:

على الرجل أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزاح والملاعبة، فهي التي تطيّب قلوب النساء. وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهنّ وينزل إلى درجات عقولهنّ في الأعمال والأخلاق.

وقد قال ﷺ:

«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله»[2].

وقال ﷺ:

«خياركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي»[3].

ووصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت: لقد كان ضحوكاً إذا ولج سكوتاً إذا خرج، آكلاً ما وجد، غير سائل ما فقد.

---

(١) أخرجه مسلم: ج٧ ص١٣٥.

(٢) الترمذي: ج٥ ص١١٠.

(٣) مجمع الزوائد: ج٤ ص٣٠٣.

٤ ـ الاعتدال في الدعابة وحسن الخلق:

فمن الآداب أن لا يفرط في الدعابة وحسن الخلق والموافقة باتباع هواها إلى الحد الذي يفسد خلقها ويسقط بالكلية هيبته عندها. بل عليه أن يراعي الاعتدال في ذلك بحيث إنه لا يدع الهيبة والانقباض تسيطر عليه كلما رأى منكراً ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتّة، بل ينكر عليها ويمتعض إذا رأى منها ما يخالف الشرع والمروّة.

قال رسول الله ﷺ:

«تعِس عبد الزوجة».

ولقد قال رسول الله ﷺ ذلك لأنه إن أطاعها في هواها فقد صار عبدها وهذا تعس عليه. فالله تعالى قد ملّكه المرأة ولكنه عكس الأمر وقلب القضية وأطاع الشيطان لما قال: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾[1]. إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً. وقد جعل الله تعالى الرجال قوامين على النساء وسمّى الزوج سيداً فقال عز وجل: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾[2] فإذا انقلب السيد فصار عبداً مسخراً فقد بدّل نعمة الله كفراً.

فبالعدل قامت السماوات والأرض، وكل من جاوز حدّ العدل مال لا محالة إلى أحد الطرفين إما الإفراط وإما التفريط. لذا على الإنسان أن يسلك سبيل الاعتدال في المخالفة والموافقة وتتبع خطوات الحق دائماً لكي يسلم من شرهنّ. فإن كيدهنّ عظيم وشرهنّ فاش والغالب عليهنّ سوء الخلق وركاكة العقل، ولا يعتدل ذلك منهنّ إلا باللطف الممزوج بالسياسة.

عن أبي جعفر عليه السلام قال:

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٩.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٥.

«قال رسول الله ﷺ: الناجي من الرجال قليل ومن النساء أقلّ. قيل: ولم يا رسول الله؟ قال: لأنهنّ كافرات الغضب مؤمنات الرضا»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ذكر رسول الله ﷺ النساء فقال: اعصوهنّ في المعروف قبل أن يأمرنكم بالمنكر، وتعوّذوا بالله من شرارهنّ وكونوا من خيارهنّ على حذر»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال:

«قال رسول الله ﷺ: من أطاع امرأته أكبّه الله على وجهه في النار، قيل: وما تلك الطاعة؟ قال: تطلب منه الذهاب إلى الحمامات والعُرسات والعيدات والنياحات والثياب الرقاق»[3].

ذلك كله إن كان لأجل التنزّه، أما لو كان للضرورة أو أداء حقوق القرابة فيجوز بل هو مستحسن.

وقال رسول الله ﷺ:

«طاعة المرأة ندامة»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إياكم ومشاورة النساء فإن فيهنّ الضعف والعجز والوهن»[5]

---

(١) الكافي: ج٥ ص٥١٤ رقم ١.
(٢) الكافي: ج٥ ص٥١٦.
(٣) الكافي: ج٥ ص٥١٧.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

ولقد قال الله تعالى في أزواج النبي ﷺ حين أفشين سرّه:

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[1] أي مالت.

وقال رسول الله ﷺ:

«لا يفلح قوم تملكهم امرأة»[2].

إذن في النساء شرّ وفيهنّ ضعف، فالسياسية والخشونة علاج الشرّ، والمطايبة والرحمة علاج الضعف.

٥ ـ الاعتدال في الغيرة:

على الزوج أن لا يبالغ في إساءة الظن والتعنّت وتجسّس البواطن. فقد نهى رسول الله ﷺ عن تتبّع عورات النساء وفي لفظ آخر أن يتعنّت بالنساء[3].

لما قدم رسول الله ﷺ من سفره قال قبل دخول المدينة:

«لا تطرقوا النساء ليلاً، فخالفه رجلان فسبقا إلى منازلهما فرأى كل واحد ما يكره»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«يكره للرجل إذا قدم من السفر أن يطرق أهله ليلاً حتى يصبح»[5].

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٤.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ج١٠، ص١١٨.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط.

(٤) مسند أحمد: ج٢ ص١٠٤.

(٥) الكافي: ج٥ ص٤٩٩ رقم ٤.

وفي الخبر المشهور:

«إن المرأة كالضلع إن أردت أن تقيمه كسرته فدعه يستمتع به على عوج»[1].

قال رسول الله ﷺ:

«من الغيرة غيرة يبغضها الله ورسوله؛ وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة»[2]. لأن ذلك من سوء الظن الذي نهينا عنه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[3].

وقال علي عليه السلام:

«لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك».

أما الغيرة التي في محلّها فلا بدّ منها وهي محمودة. قال رسول الله ﷺ:

«إن الله يغار والمؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي الرجل المؤمن ما حرّم الله عليه»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إن الله تبارك وتعالى غيور يحبّ الغيرة ولغيرته حرّم الفواحش ظاهرها وباطنها»[5].

---

(١) أخرجه مسلم: ج٤ ص١٧٨.

(٢) مجمع الزوائد: ج٤ ص٣٢٩.

(٣) سورة الحجرات، الآية ١٢.

(٤) البخاري: ج٧ ص٤٥.

(٥) الكافي: ج٥ ص٥٣٦.

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«إذا لم يغر الرجل فهو منكوس القلب»[1].

وعنه عليه السلام أيضاً قال:

«إذا أُغير الرجل في أهله أو بعض مناكحه من مملوكته فلم يغر ولم يغيّر بعث الله إليه طائراً يقال له: القَفَندَر حتى يسقط على عارضة بابه ثم يمهله أربعين يوماً، ثم يهتف به إن الله غيور يحب كل غيور. فإن هو غار وغيّر وأنكر ذلك فأكبره وإلا طار حتى يسقط على رأسه فيخفق بجناحيه على عينيه ثم يطير عنه فينزع الله منه بعد ذلك روح الإيمان وتسميه الملائكة الديّوث»[2].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«يا أهل العراق نبّئت أن نساءكم يدافعن الرجال في الطريق أما تستحيون»[3].

وفي حديث آخر قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أما تستحيون ولا تغارون ونساؤكم يخرجن إلى الأسواق ويزاحمن العلوج»[4].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في رسالته إلى الحسن عليه السلام:

«إياك والتغاير في غير موضع الغيرة فإن ذلك يدعو

---

(١) الكافي: ج٥ ص٥٣٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.

الصحيحة منهنّ إلى السقم ولكن احكم أمرهنّ، فإن رأيت عيباً فعجّل النكير على الصغير والكبير بأن تعاتب منهنّ البريئة فتعظم الذنب وتهوّن العتب»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً قال:

«لا تعلّموا نساءكم سورة يوسف ولا تقرؤوهنّ إياها فإن فيها الفتن، وعلّموهن سورة النور فإن فيها المواعظ»[2].

وعنه عليه السلام أنه قال:

«لا تحملوا الفروج على السروج فتهيجوهنّ للفجور»[3].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله لابنته فاطمة عليها السلام:

«أي شيء خيرٌ للمرأة؟ قالت: ألا ترى رجلاً ولا يراها رجل، فضمّها إليه وقال: ذريّة بعضها من بعض واستحسن قولها»[4].

٦ ـ الاعتدال في النفقة:

لا ينبغي للزوج أن يقتر على أزواجه في الإنفاق، كما أنه لا ينبغي عليه الإسراف بل يقتصد. فقد قال الله تعالى:

﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾[5].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) الكافي: ج٥ ص٥١٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) أخرجه البزار.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

وقال عزّ اسمه:

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾[1].

وقال النبي ﷺ:

«دينار أنفقته على أهلك ودينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة ودينار تصدّقت به على مسكين أعظمها أجراً الدينار الذي أنفقته على أهلك»[2].

وقيل إنه كان لعلي عليه السلام أربع نسوة فكان يشتري لكل واحدة في كل أربعة أيام لحماً بدرهم.

وأهم ما يجب عليه مراعاته في الإنفاق أن يطعمها من الحلال، فلا يدخل مداخل السوء لأجلها، فإن ذلك جناية عليها لا مراعاة لها.

٧ ـ تعليم الزوجة أحكام الدين:

على الزوج أن يتعلم من علم الحيض وأحكامه ما يحترز به عن الاحتراز الواجب. وعليه أن يعلم زوجته أحكام الصلاة فإنه أمر بأن يقيها النار بقوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾[3]. لذا عليه أن يلقّنها اعتقاد أهل الحق ويزيل عن قلبها كل بدعة، وأن يخوّفها بالله إذا تساهلت في أمر الدين ويعلّمها من أحكام الحيض والنفاس ما تحتاج إليه.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

(٢) أخرجه مسلم: ج٣ ص٧٨.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.

٨ ـ العدل بين النسوة:

إذا كان للزوج نسوة فينبغي عليه أن يعدل بينهنّ، ولا يميل إلى بعضهنّ. فإن خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة منهنّ أقرع[١] بينهنّ، كذلك كان يفعل رسول الله ﷺ[٢]. فإذا ظلم امرأة بليلتها قضى لها، فإن القضاء واجب عليه، لذا عليه تعلم أحكام القسم.

وقد قال ﷺ:

«من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى ـ وفي لفظ آخر: ولم يعدل بينهما ـ جاء يوم القيامة وإحدى شقّيه مائل»[٣].

وإنما العدل يكمن في العطاء والمبيت، أما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار، قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾[٤] أي لن تعدلوا في شهوة النفس وميل القلب، ويتبع ذلك التفاوت في الوقاع.

وكان رسول الله ﷺ يعدل بينهنّ في العطية والبيتوتة في الليالي ويقول:

«اللهم هذا جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك»[٥].

أي الحب.

---

(١) أقرع: أي ضرب القرعة.

(٢) صحيح البخاري: ج٧ ص٤٣.

(٣) أخرجه أبو داود: ج١ ص٤٩٢.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٢٩.

(٥) الترمذي: ج٥ ص٨٠.

٩ - أن يراعي الشرع والتدرج عند وقوع الخصام:

إن وقع بين الزوج والزوجة خصام لم يلتئم بينهما، فإن كان النشوز من الزوج أو من جانبهما معاً فلا بد من حكمين أحدهما من أهله والآخر من أهلها لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما، فإن كانا يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما. أما لو كان النشوز من المرأة خاصة، فالرجال قوامون على النساء، فله أن يؤدّبها ويحملها على الطاعة قهراً ولكن ينبغي عليه التدرج في تأديبها، فيقدّم الوعظ والتحذير والتخويف أولاً، فإن لم ينجح ولّاها ظهره في المضجع أو انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو في البيت من ليلة إلى ثلاث ليال، فإن لم ينفع ضربها ضرباً غير مبرح بحيث يؤلمها ولا يكسر لها عظماً ولا يدمي لها جسماً ولا يضرب وجهها فذلك منهي عنه.

وقد قيل لرسول الله ﷺ:

«ما حقّ المرأة على الرجل؟ فقال ﷺ: أن يطعمها إذا طعم ويكسوها إذا اكتسى ولا يقبّح الوجه ولا يضربها إلا ضرباً غير مبرِّح ولا يهجرها إلا في البيت»[(١)].

وعن الإمام الصادق قال:

«جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فسألته عن حق الزوج على المرأة، فخبّرها، ثم قالت: فما حقّها عليه؟ قال: يكسوها من العري ويطعمها من الجوع وإن أذنبت غفر لها، فقالت فليس لها عليه شيء غير هذا؟ قال: لا، قالت: لا والله لا تزوّجت أبداً، ثم ولّت فقال النبي ﷺ: ارجعي، فرجعت، فقال: إن الله عز وجل يقول: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾»[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود: ج١ ص٤٩٤.

(٢) الكافي: ج٥ ص٥١١، سورة النور، الآية: ٦٠.

١٠ ـ أن يراعي الزوج آداب الجماع:

من خلال الالتزام بالمستحبات وترك المكروهات. فمن المستحبات البدء بـ «بسم الله الرحمن الرحيم». فعن الإمام الصادق قال:

«قال أمير المؤمنين عليه السلام: إذا جامع أحدكم فليقل: بسم الله وبالله اللّهمّ جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني، فإن قضى الله بينهما ولدا لم يضرّه الشيطان بشيء أبداً»[١].

وعن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام:

«يا أبا محمد أي شيء يقول الرجل منكم إذا دخلت عليه امرأته؟ قلت: جعلت فداك أيستطيع الرجل أن يقول شيئاً؟ فقال: ألا أعلّمك ما يقول؟ قلت بلى، قال: يقول: بكلمات الله استحللت فرجها وفي أمانة الله أخذتها، اللهم إن قضيت في رحمها شيئاً فاجعله باراً تقيّاً واجعله مسلماً سويّاً ولا تجعل فيه شركاً للشيطان، قلت: وبأي شيء يعرف ذلك؟ قال: أما تقرأ كتاب الله عز وجل، ثم ابتدأ هو: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ ثم قال: إن الشيطان ليجيء حتى يقعد من المرأة كما يقعد الرجل منها ويحدّث كما يحدث وينكح كما ينكح، قلت: بأي شيء يعرف ذلك؟ قال: بحبّنا وبغضنا، فمن أحبّنا كان نطفة العبد ومن أبغضنا كان نطفة الشيطان»[٢].

---

(١) الكافي: ج٥ ص٥١١ رقم ٥.

(٢) الكافي: ج٥ ص٥٠٣.

وقيل:

«كان رسول الله ﷺ يغطي رأسه ويغض صوته ويقول للمرأة عليك بالسكينة والوقار»[1].

وفي الخبر:

«إذا جامع أحدكم أهله فلا يتجرَّدان تجرّد العيرين»[2] أي الحمارين.

وعلى الزوج أن يقدم التلطّف بالكلام والتقبيل فقد قال النبي ﷺ:

«لا يقع أحدكم على أهله كما تقع البهيمة، ليكن بينهما رسول. فقيل وما الرسول يا رسول الله؟ فقال: القبلة والكلام»[3].

ويكره الجماع في ثلاث ليال من الشهر: ليلة أوّله والنصف منه وآخره، إذ يقال إن الشياطين يحضرون الجماع في هذه الليالي، ويقال إن الشياطين يجامعون فيها.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«قال رسول الله ﷺ: أكره لأمّتي أن يغشى الرجل أهله في النصف من الشهر أو في غرّة الهلال، فإن مردة الشياطين والجن تغشى لبني آدم فيجنّنون ويخبّلون أما رأيتم المصاب يصرع في النصف من الشهر وعند غرّة الهلال»[4].

---

(١) أخرجه الخطيب في التاريخ.

(٢) مجمع الزوائد: ج٤ ص٢٩٣.

(٣) أخرجه أبو منصور الديلمي في الفردوس.

(٤) الكافي: ج٥ ص٤٩٩ رقم ٥.

وعن الإمام الكاظم عن أبيه عن جدّه عليهم السلام قال:

«إنّ فيما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام قال: يا عليّ لا تجامع أهلك في أوّل ليلة من الهلال ولا في ليلة النصف ولا في آخر ليلة فإنه يتخوّف على ولد من يفعل ذلك الخبل، قال: ولم ذلك يا رسول الله؟ فقال: إن الجنّ يكثرون غشيان نسائهم في أوّل ليلة من الهلال وليلة النصف وفي آخر ليلة، أما رأيت المجنون يصرع في أوّل الشهر وفي وسطه وفي آخره»[١].

وعن أبي الحسن عليه السلام قال:

«من أتى أهله في محاق الشهر فليسلّم لسقط الولد»[٢].

وعن سالم عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«قلت له: هل يكره الجماع في وقت من الأوقات وإن كان حلالاً؟ قال: نعم ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ومن مغيب الشمس إلى مغيب الشفق، وفي اليوم الذي تنكسف فيه الشمس وفي الليلة التي ينكسف فيها القمر، وفي الليلة واليوم اللذين يكون فيهما الريح السوداء والريح الحمراء والريح الصفراء، واليوم والليلة اللذين تكون فيهما الزلزلة ولقد بات رسول الله صلى الله عليه وآله عند بعض أزواجه في ليلة انكسف فيها القمر فلم يكن منه في تلك الليلة ما كان يكون منه في

(١) الكافي: ج٥ ص٤٩٩ رقم ٢.
(٢) المصدر السابق: رقم ٣.

غيرها حتى أصبح فقالت له: يا رسول الله ألبغض كان هذا منك في هذه الليلة؟ قال: لا ولكن هذه الآية ظهرت في هذه الليلة فكرهت أن أتلذّذ وألهو فيها. وقد عيّر الله أقواماً فقال جلّ وعزّ في كتابه: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾[1]. ثم قال أبو جعفرعليه السلام: وأيم الله لا يجامع أحد في هذه الأوقات التي نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عنها وقد انتهى إليه الخبر فيرزق ولداً فيرى في ولده ذلك ما يحب»[2].

وللزوج أن يستمتع بجميع بدن الحائض وأن يستمني بيدها وأن يستمتع بما تحت الإزار منها سوى الوقاع، وينبغي أن تتّزر المرأة بإزار من حقويها[3] إلى فوق الركبة في حالة الحيض فهذا من الآداب.

فعن الإمام الصادقعليه السلام:

«إنه سئل عن الحائض ما يحلّ لزوجها منها؟ قال: ما دون الفرج»[4].

وعن الإمام الصادقعليه السلام أيضاً:

«إنه سئل عن رجل واقع امرأته وهي حائض فقال: إن كان واقعها في استقبال الدم فليستغفر الله ويتصدّق على سبعة نفر من المؤمنين بقدر قوت كل رجل منهم ليومه، ولا يعد وإن كان واقعها في إدبار الدم في آخر

(١) سورة الطور، الآيتان: ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) الكافي: ج٥ ص٤٩٨ رقم ١.

(٣) الحَقو: الخصر.

(٤) الكافي: ج٥ ص٥٣٨ رقم ٢.

أيامها قبل الغسل فلا شيء عليه»[1].

وعنه عليه السلام قال:

«ترى هؤلاء المشوّهين خلقهم؟ قال: قلت: نعم، قال: هؤلاء الذين آباؤهم يأتون نساءهم في الطمث»[2].

وعنه عليه السلام:

«إنه سئل عن إتيان النساء في أعجازهنّ، فقال: هي لعبتك لا تؤذها»[3].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: والذي نفسي بيده لو أنّ رجلاً غشي امرأته وفي البيت مستيقظ يراهما ويسمع كلامهما ونفسهما ما أفلح أبداً إن كان غلاماً كان زانياً أو جارية كانت زانية، وكان علي بن الحسين عليهما السلام إذا أراد أن يغشي أهله أغلق الباب وأرخى الستور وأخرج الخدم»[4].

أما العزل فلا خلاف في جوازه، فعن محمد بن مسلم قال:

«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن العزل فقال: ذاك إلى الرجل يصرفه حيث يشاء»[5].

---

(١) الكافي: ج٧ ص٤٦٢ رقم ١٣.
(٢) الكافي: ج٥ ص٥٣٩.
(٣) الكافي: ج٥ ص٥٤٠.
(٤) الكافي: ج٥ ص٥٠٠ رقم ٢.
(٥) الكافي: ج٥ ص٥٠٤.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«كان علي بن الحسين عليه السلام لا يرى بالعزل بأساً يقرأ هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ فكل شيء أخذ الله منه الميثاق فهو خارج وإن كان في صخرة صمّاء»[1].

وقال جابر:

«أتى رجل النبي صلى الله عليه وآله فقال: إن لي جارية هي خادمتنا وساقيتنا ـ أي تسقي لنا ـ في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل، فقال صلى الله عليه وآله: اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدّر لها، فلبث الرجل ثم أتاه فقال: إن الجارية قد حملت، فقال صلى الله عليه وآله: قد أخبرتك أنه سيأتيها ما قدّر لها»[2].

١٠ ـ مراعاة آداب الولادة:

وهي ثمانية:

الأول: أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى، فإنه لا يدري في أيّهما الخيرة له. بل إن السلامة من الأنثى أكثر والثواب فيهنّ أجزل.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«من كان له ابنة فأدّبها وأحسن أدبها وغذّاها فأحسن غذاءها وأسبغ عليها من النعمة التي أسبغ الله عليه

---

(١) المصدر السابق.

(٢) صحيح مسلم: ج٤ ص١٦٠.

كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنّة»[1].

وقال ﷺ:

«ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما صحبتاه إلا أدخلتاه الجنة»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«قال رسول الله ﷺ من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات وجبت له الجنة، فقيل: يا رسول الله واثنتين؟ فقال: واثنتين، فقيل: يا رسول الله وواحدة؟ قال: وواحدة»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«البنون نعيم والبنات حسنات والله يسأل عن النعيم ويثيب على الحسنات»[4].

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال:

«قال رسول الله ﷺ: إن الله تبارك وتعالى على النساء أرأف منه على الذكور، وما من رجل يدخل فرحة على امرأة وبينه وبينها حرمة إلا فرّحه الله يوم القيامة»[5].

وعن الجارود بن المنذر قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام:

«بلغني أنه ولد لك ابنة فتسخطها وما عليك منها؟ ريحانة تشمّها

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير.

(٢) الحاكم في المستدرك: ج٤ ص١٧٨.

(٣) الكافي، ج٦ ص٦ رقم ١٠.

(٤) الكافي: ج٦ ص٧.

(٥) المصدر السابق: ص٦.

وقد كفيت رزقها، وقد كان رسول الله ﷺ أبا بنات»[1].

الثاني: أن يؤذّن في أذن المولود اليمنى

فعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«قال رسول الله ﷺ: من ولد له مولود فليؤذن في أذنه اليمنى بأذان الصلاة وليقم في اليسرى فإنها عصمة من الشيطان الرجيم»[2].

الثالث: ختان الولد في اليوم السابع، وهو السنّة.

الرابع: التلقين والتعليم والتأديب:

فقد روي عن أبي عبد الله أو أبي جعفر عليه السلام قال:

«إذا بلغ الغلام ثلاث سنين يقال له: قل «لا إله إلا الله» سبع مرات، ثم يترك حتى يتمّ له ثلاث سنين وسبعة أشهر وعشرون يوماً فيقال له: قل «محمد رسول الله سبع مرات، ويقول حتى يتم له أربع سنين ثم يقال له: قل سبع مرات «صلّى الله على محمد وآله» ثم يترك حتى يتمّ له خمس سنين ثم يقال له: أيهما يمينك وأيهما شمالك، فإذا عرف ذلك حوّل وجهه إلى القبلة ويقال له اسجد، ثم يترك حتى يتمّ له سبع سنين قيل له: اغسل وجهك وكفّيك فإذا غسلهما قيل له: صلّ، ثم يترك حتى يتمّ له تسع سنين فإذا تمّت له عُلّم الوضوء وضرب عليه وأمر بالصلاة وضُرب عليها، فإذا تعلّم الوضوء والصلاة غفر الله عز

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكافي: ج٦ ص٢٤ رقم ٦.

وجل لوالديه إن شاء الله»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«دع ابنك يلعب سبع سنين ويؤدّب سبع سنين وألزمه نفسك سبع سنين فإن أفلح وإلا فإنه ممن لا خير فيه»[2].

وعنه عليه السلام قال:

«الغلام يلعب سبع سنين ويتعلّم الكتاب سبع سنين ويتعلّم الحلال والحرام سبع سنين»[3].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال:

«علّموا أولادكم السباحة والرماية»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«بادروا أولادكم ـ وفي نسخة أحداثكم ـ بالحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة»[5].

وفي الفقيه:

«كان جابر بن عبد الله الأنصاري يدور في سكك الأنصار بالمدينة وهو يقول: عليّ خير البشر، فمن أبى فقد كفر، يا معاشر الأنصار أدّبوا أولادكم على حب علي عليه السلام فمن أبى فانظروا في شأن أمّه»[6].

---

(١) الكافي: ج٦ ص٧٦ رقم ٣.
(٢) الكافي: ج٦ ص٤٦.
(٣) الكافي: ج٦ ص٤٦ رقم ٣.
(٤) المصدر السابق: رقم ٤.
(٥) المصدر السابق.
(٦) الفقيه: ص٤٤٠، باب تأديب الولد رقم ٣.

وقال الإمام الصادقعليه السلام:

«من وجد برد حبّنا على قلبه فليكثر الدعاء لأمّه فإنها لم تخن أباه، وكان الصبي على عهد رسول اللهصلى الله عليه وآله إذا وقع الشك في نسبه عرضت عليه ولاية أمير المؤمنينعليه السلام فإن قبلها أُلحق نسبه بمن ينتمي إليه وإن أنكرها نُفي»[1].

الخامس: حلق رأس المولود يوم السابع، والتصدّق بوزن شعره ذهباً أو فضّة.

فعن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«عقّ عنه واحلق رأسه يوم السابع وتصدّق بوزن شعره فضّة»[2].

وسئل أبو عبد اللهعليه السلام:

«ما العلة في حلق رأس المولود؟ قال: تطهيره من شعر الرحم»[3].

السادس: أن يسميه باسم حسن: فإن ذلك حق، وقد قال النبيصلى الله عليه وآله:

«إذا سمّيتم فعبّدوا»[4].

وعن أبي جعفرعليه السلام قال:

---

(١) المصدر السابق: رقم ٧.
(٢) الفقيه: ص٤٧١ رقم ١٩.
(٣) أخرجه الطبراني.
(٤) الكافي: ج٦ ص١٨.

«أصدق الأسماء ما سمّي بالعبودية وأفضلها أسماء الأنبياء»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«حدّثني أبي عن جدّي قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: سمّوا أولادكم قبل أن يولدوا فإن لم تدروا أذكر أم أنثى فسمّوهم بالأسماء التي تكون للذّكر والأنثى فإنّ أسقاطكم إذا لقوكم يوم القيامة ولم تسمّوهم يقول السقط لأبيه: ألا سميتني، وقد سمى رسول الله صلى الله عليه وآله محسناً قبل أن يولد»[2].

وعن أبي الحسن الأوّل عليه السلام قال:

«أوّل ما يبرّ الرجل ولده أن يسمّيه باسمٍ حسن فليحسن أحدكم اسم ولده»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«استحسنوا أسماءكم فإنكم تدعون بها يوم القيامة قم يا فلان ابن فلان إلى نورك، قم يا فلان ابن فلان لا نور لك»[4].

وعنه عليه السلام قال:

«لا يولد لنا ولد إلا سميناه محمداً فإذا مضى سبعة أيام فإن شئنا غيّرنا وإن شئنا تركنا»[5].

---

(١) الكافي ج٦ ص١٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق رقم ١٨.

وعنه عليه السلام قال:

«إن النبي صلى الله عليه وآله قال: من ولد له أربعة أولاد ولم يسمّ أحدهم باسمي فقد جفاني»[1].

وعن أبي الحسن عليه السلام قال:

«لا يدخل الفقر بيتاً فيه اسم محمد أو أحمد أو علي أو الحسن أو الحسين أو جعفر أو طالب أو عبد الله أو فاطمة من النساء صلى الله عليهم»[2].

السابع: العقيقة:

قال النبي صلى الله عليه وآله:

«مع الغلام عقيقة فأهريقوا عنه دماً وأميطوا عنه الأذى»[3].

وعن الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام:

«إنّ العقيقة واجبة»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إن كل مولود مرتهن بالعقيقة»[5].

وعن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام:

«إني والله ما أدري كان أبي عقّ عني أو لا، قال:

---

(١) المصدر السابق رقم ١٩.
(٢) أخرجه البخاري، ج٧ ص١٠٩.
(٣) الكافي: ج٦ ص٢٤.
(٤) المصدر السابق.
(٥) الكافي: ج٦ ص٢٥.

فأمرني أبو عبد الله عليه السلام فعققت عن نفسي وأنا شيخ، وقال عمر سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كل امرىء مرتهن بعقيقته والعقيقة أوجب من الأضحية»[1].

وعن عبد الله بن بكير قال:

«كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فجاء رسول عمّه عبد الله ابن علي فقال له: يقول عمّك إنا طلبنا العقيقة فلم نجدها فما ترى نتصدّق بثمنها؟ فقال: لا، إن الله يحب إطعام الطعام وإراقة الدماء»[2].

وعن إسحاق بن عمار قال:

«سألت أبا الحسن عليه السلام عن العقيقة على الموسر والمعسر؟ فقال: ليس على من لا يجد شيء»[3].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«الصبي إذا ولد عقّ عنه وحلق رأسه وتصدّق بوزن الشعر فضّة، وأُهدي للقابلة رجل مع الورك، ويدعى نفر من المسلمين فيأكلون ويدعون للغلام ويسمّى يوم السابع»[4].

وعن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً أنه قال:

«لا تأكل المرأة من عقيقة ولدها ولا بأس أن تعطيها الجار المحتاج من اللحم»[5].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكافي: ج٦ ص٢٦.

(٣) الكافي: ج٦ ص٢٩ رقم ١٢.

(٤) الكافي: ج٦ ص٢٦.

(٥) الكافي: ج٦ ص٣١.

وعنه عليه السلام قال:

«إذا أردت أن تذبح العقيقة قلت: «يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم منك ولك بسم الله والله أكبر، اللهم صلّ على محمد وآل محمد وتقبّل من فلان ابن فلان، وتسمي المولود باسمه ثم تذبح»[1].

وفي رواية أخرى يقال عند العقيقة:

«اللهم منك ولك ما وهبت وأنت أعطيت اللهم فتقبّله منّا على سنّة نبيّك صلى الله عليه وآله» ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويسمي ويذبح ويقول: «لك سفكت الدماء لا شريك لك الحمد لله ربّ العالمين، اللهم إخسأ الشيطان الرجيم»[2].

الثامن: التحنيك:

فعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«يحنّك المولود بماء الفرات ويقام في أذنه»[3].

وفي رواية أخرى:

«حنّكوا أولادكم بماء الفرات وبتربة قبر الحسين عليه السلام

---

(١) الكافي: ج٦ ص٢٦.
(٢) الكافي: ج٦ ص٢٤ رقم ٣.
(٣) المصدر السابق: رقم ٤.

وإن لم يكن فبماء السماء»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: حنِّكوا أولادكم بالتمر، هكذا فعل النبي صلى الله عليه وآله بالحسن والحسين عليهما السلام»[2].

(١) المصدر السابق: رقم ٥.

حق الرجل على المرأة

١ ـ طاعة الزوج:

إن النكاح نوع رق والمرأة رقيقة للرجل، لذا عليها طاعة الزوج مطلقاً في كل ما يطلبه منها في نفسها مما لا معصية فيه، وقد ورد في تعظيم حق الزوج عليها روايات كثيرة. فقد قال النبي ﷺ:

«أيّما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنّة»[١].

وقال النبي ﷺ:

«إذا صلّت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت جنّة ربّها»[٢].

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إن رجلاً من الأنصار على عهد رسول الله ﷺ خرج في بعض حوائجه فعهد إلى امرأته عهداً ألا تخرج من بيتها حتى يقدم، قال: وإنّ أباها مرض فبعثت المرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إنّ زوجي خرج وعهد إليّ

(١) الترمذي: ج٥ ص١١٠.
(٢) أخرجه الطبراني وأحمد.

أن لا أخرج من بيتي حتى يقدم وإن أبي قد مرض فتأمرني أن أعوده؟ فقال رسول الله ﷺ: لا اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك، قال فثقل فأرسلت إليه ثانياً بذلك، فقالت: فتأمرني أن أعوده؟ فقال: إجلسي في بيتك وأطيعي زوجك، قال: فمات أبوها فبعثت إليه إنّ أبي قد مات فتأمرني أن أصلي عليه؟ فقال: لا اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك، قال: فدفن الرجل فبعث إليها رسول الله ﷺ؛ إن الله قد غفر لك ولأبيك بطاعتك لزوجك»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال:

«خطب رسول الله ﷺ النساء فقال: يا معاشر النساء تصدّقن ولو في حليّكنّ ولو بتمرة ولو بشق تمرة، فإن أكثركنّ حطب جهنم، إنكنّ تكثرن اللعن وتكفرن العشير[2]، فقالت امرأة من بني سليم لها عقل: يا رسول الله أليس نحن الأمهات الحاملات المرضعات؟ أليس منا البنات القيّمات والأخوات المشفقات؟ فرقّ لها رسول الله ﷺ فقال: حاملات والدات مرضعات رحيمات لولا ما يأتين إلى بعولتهنّ ما دخلت مصلّية منهنّ النار»[3].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال:

«خرج رسول الله ﷺ يوم النحر إلى ظهر المدينة على

---

(١) الكافي: ج٥ ص٥١٣.

(٢) العشير الزوج المعاشر.

(٣) الكافي: ج٥ ص٥١٤.

جمل عاري الجسم فمرَّ بالنساء فوقف عليهنّ ثم قال: يا معاشر النساء تصدّقن وأطعن أزواجكنّ فإن أكثركنّ في النار، فلما سمعن ذلك بكين ثم قامت إليه امرأة منهنّ فقالت: يا رسول الله في النار مع الكفار والله ما نحن بكفّار فنكون من أهل النار. فقال لها رسول الله ﷺ: إنكنّ كافرات بحقّ أزواجكنّ»[1].

وعنه عليه السلام أيضاً قال:

«جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما حق الزوج على المرأة؟ فقال لها: أن تطيعه ولا تعصيه، ولا تصدق من بيته إلا بإذنه، ولا تصوم طوعاً إلا بإذنه، ولا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب[2]، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، وإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتى ترجع إلى بيتها. فقالت: يا رسول الله من أعظم الناس حقاً على الرجل؟ قال: والده، قالت فمن أعظم الناس حقّاً على المرأة؟ قال: زوجها، قالت فما لي عليه من الحقّ مثل ما له عليّ؟ قال ﷺ: لا ولا من كل مائة واحدة. فقالت: والذي بعثك بالحق لا يملك رقبتي رجل أبداً»[3].

---

(١) الكافي: ج٥ ص٥١٤.

(٢) القتب: ما يوضع على سنام البعير ويركب عليه.

(٣) الكافي: ج٥ ص٥٠٧.

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«أيّما امرأة باتت وزوجها عليها ساخط في حقّ لم يتقبّل منها صلاة حتى يرضى عنها، وأيّما امرأة تطيّبت لغير زوجها لم يتقبّل منها صلاة حتى تغتسل من طيبها كغسلها من جنابتها»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إن قوماً أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: يا رسول الله إنا رأينا أُناساً يسجد بعضهم لبعض، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«أتت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: ما حقّ الزوج على المرأة؟ فقال: أن تجيبه إلى حاجته وإن كانت على ظهر قتب ولا تعي شيئاً إلا بإذنه، فإن فعلت فعليها الوزر وله الأجر، ولا تبيت ليلة وهو عليها ساخط، فقالت: يا رسول الله؛ وإن كان ظالماً؟ قال: نعم، قالت: والذي بعثك بالحق لا تزوّجت زوجاً أبداً»[3].

ومن حق المرأة على الوالدين تعليمها حسن المعاشرة وآداب المعيشة مع الزوج كما روي أن أسماء بن خارجة الفزاري قال لابنته عند التزويج: إنك خرجت من العش الذي فيه درجت وصرت فراش لم

---

(١) الكافي: ج٥ ص٥٠٧..

(٢) المصدر السابق.

(٣) الكافي: ج٥ ص٥٠٨.

تعرفيه وقرين لم تألفيه، فكوني له أرضا يكون لك سماء، وكوني له مهاداً يكون لك عماداً، وكوني له أمة يكون لك عبداً، لا تلحقي به فيقلاك (يبغضك) ولا تباعدي عنه فينساك، إن دنا فاقربي منه وإن نأى فابعدي عنه، واحفظي أنفه وسمعه وعينه، لا يشمّ منك إلا طيباً، ولا يسمع إلا حسناً، ولا ينظر إلا جميلاً.

٢ ـ المحافظة على مال الزوج:

فمن الواجبات عليها أن لا تفرّط في ماله بل تحفظه عليه. فقد قال رسول الله ﷺ:

«لا يحلّ لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب الذي يخاف فساده فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره، وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر»[١].

٣ ـ تقديم حق الزوج على حق نفسها:

إن القول الجامع في أدب المرأة؛ أن تكون قاعدة في قعر بيتها، لا يكثر صعودها واطلاعها، قليلة الكلام لجيرانها، لا تدخل عليهم إلا في حال يوجب الدخول، تحفظ بعلها في غيبته وحضوره وتطلب مسرّته في جميع أمورها ولا تخونه في نفسها وماله، ولا تخرج من بيتها فإن خرجت فمختفية في هيئة رثّة تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق، محترزة من أن يسمع غريب ما صوتها أو يعرفها بشخصها، لا تتعرف على صديق بعلها في حاجاتها بل تتنكّر على من يظن أنه يعرفها، همّتها صلاح شأنها وتدبير بيتها، مقبلة على صيامها وصلواتها، إذا استأذن صديق بعلها على الباب وليس الرجل حاضراً لم تستفهمه ولم

---

(١) أخرجه مسلم: ج٣ ص٩٠.

تعاوده الكلام غيرة على نفسها وبعلها، وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله، مقدّمة حقّه على حقّ نفسها وحق سائر أقاربها، متنظّفة في نفسها، مستعدة في الأحوال ليستمتع بها إن شاء، مشفقة على أولادها، حافظة للستر عليهم، قصيرة اللسان عن سبّ الأولاد ومراجعة الزوج.

٤ ـ أن لا تؤذي زوجها أبداً:

من آداب المرأة كما ذكرنا ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها والرجوع إلى اللّعب والانبساط وأسباب اللّذة في حضور زوجها، فلا ينبغي أن تؤذي زوجها بحال. فعن النبي ﷺ أنه قال:

«لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا»[1].

٥ ـ أن تعتد الزوجة في حال وفاة الزوج:

من حقوق المرأة إذا مات عنها زوجها أن تعتدّ له بالتربّص بنفسها أربعة أشهر وعشراً وتحد عليه بأن تتجنّب الطيب والزينة في هذه المدّة ولا تحدّ عليه أكثر من ذلك. قال رسول الله ﷺ:

«لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدّ على ميّت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»[2].

ويلزمها لزوم المسكن إلى آخر العدّة، وليس لها الانتقال إلى أهلها ولا الخروج إلا لضرورة.

---

(١) الترمذي: ج٥ ص١٢٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٤.

الطلاق

الطلاق مباح ولكنّه أبغض المباحاة إلى الله، وإنما يكون مباحاً إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل. قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾[1].

أي لا تطلبوا حيلة الفراق. وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ما من شيء مما أحلّه الله أبغض إليه من الطلاق وإن الله يبغض المطلاق الذوّاق»[2].

وعن الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«إن الله يحبّ البيت الذي فيه العرس ويبغض البيت الذي فيه الطلاق، وما من شيء أبغض إلى الله من الطلاق»[3].

وعن أبي جعفر عليه السلام:

«أنّه كانت عنده امرأة تعجبه وكان لها محبّاً فأصبح يوماً وطلّقها فاغتمّ لذلك فقال له بعض مواليه: جعلت

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٢) الكافي: ج٦ ص٥٤.

(٣) المصدر السابق.

فداك لم طلّقتها فقال: إني ذكرت علياً عليه السلام فتنقّصته فكرهت أن ألصق جمرة من جمر جهنم بجلدي»[1].

وعن خطّاب بن سلمة قال:

«دخلت عليه ـ يعني أبا الحسن موسى عليه السلام ـ وأنا أريد أن أشكو إليه ما ألقى من امرأتي من سوء خلقها فابتدأني فقال: إن أبي كان زوّجني مرّة امرأة سيئة الخلق فشكوت ذلك إليه فقال لي ما يمنعك من فراقها قد جعل الله ذلك إليك؟ فقلت فيما بيني وبين نفسي: قد فرّجت عني»[2].

(١) الكافي: ج٦ ص٥٥.

(٢) المصدر السابق.

المال

مقدمة

إن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف، واسعة الأرجاء والأكناف، ولكن الأموال أعظم فتنها وأطمّ محنها، وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها، وإذا وجدت فلا سلامة منها. إن فقد حصل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفراً، وإن وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسراً.

المال بشكل عام لا يخلو من فوائد وآفات، فوائدها من المنجيات وآفاتها من المهلكات. وتمييز خيرها عن شرّها من المعوصات التي لا يقوى عليها إلا ذوو البصائر في الدين من العلماء الراسخين دون المترسمين المغترّين.

ففي المال آفات وغوائل وللإنسان من فقده صفة الفقر ومن وجوده صفة الغنى، وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان.

ثم إن للفاقد حالتين: القناعة والحرص، إحداهما مذمومة والأخرى محمودة.

وللمريض حالتان: طمع فيما في أيدي الناس، أو تشمّر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق، والطمع شرّ الحالتين.

وللواجد حالتان إمساك بحكم البخل والشح وإنفاق، وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة.

للمنفق حالتان تبذير واقتصاد والمحمود هو الاقتصاد. وهذه الأمور متشابهة وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهمّ سنقوم بشرحه في الفصول القادمة.

ذم المال في الآيات والروايات

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[1].

وقال الله عز وجل:

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾[2].

وقال عزّ اسمه:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥﴾[3].

وقال تعالى:

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾[4].

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ٩.

(٢) سورة التغابن، الآية: ١٥.

(٣) سورة هود، الآية: ١٥.

(٤) سورة التكاثر، الآيتان: ١ ـ ٢.

وقال النبي ﷺ:

«حب المال والشرف ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل».

وقال ﷺ:

«ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم أكثر فساداً من حب الشرف والمال والجاه في دين الرجل المسلم»[1].

وقال ﷺ:

«سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطائب الطعام وألوانها وينكحون أجمل النساء وألوانها، ويلبسون ألين الثياب وألوانها، ويركبون فره الخيل وألوانها، لهم بطون من القليل لا تشبع، وأنفس بالكثير لا تقنع، عاكفين على الدنيا يغدون ويروحون إليها، اتخذوها آلهة من دون إلههم ورباً من دون ربّهم، إلى أمرها ينتهون ولهواهم يتبعون. فعزيمة من محمد بن عبد الله لمن أدرك ذلك الزمان، من عقب عقبكم وخلف خلفكم أن لا يسلّم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتّبع جنائزهم ولا يوقّر كبيرهم، فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام»[2].

وقال ﷺ:

«دعوا الدنيا لأهلها، من أخذ الدنيا فوق ما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي: ج٩ ص٢٢٣.

(٢) مجمع الزوائد: ج١٠ ص٢٥٠.

(٣) الترغيب: ج٤ ص١٦٠.

وقال ﷺ:

«يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدّقت فأمضيت أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت»[1].

قال رجل:

«يا رسول الله ما لي لا أحب الموت؟ فقال ﷺ: هل معك من مال؟ قال: نعم يا رسول الله. قال: قدّم مالك أمامك فإن قلب المؤمن مع ماله، إن قدّمه أحبّ أن يلحقه وإن خلّفه أحب أن يتخلّف معه».

قال النبي ﷺ:

«أخلاء ابن آدم ثلاثة: واحد يتّبعه إلى قبض روحه، والثاني إلى قبره، والثالث إلى محشره. فالذي يتّبعه إلى قبض روحه فماله، والذي يتّبعه إلى قبره فأهله، والذي يتّبعه إلى محشره فعمله»[2].

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام:

«ما لك تمشي على الماء ولا نقدر على ذلك؟ قال لهم: ما منزلة الدينار والدرهم عندكم؟ قالوا: حسن، قال: لكنهما عندي والمدر سواء».

---

(١) الحاكم في المستدرك: ج٤ ص٣٢٢.

(٢) مجمع الزوائد: ج١٠ ص٢٥١.

الجمع بين ذم المال ومدحه

إن الله تعالى قد سمّى المال خيراً في مواضع فقال:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ:

«نعم المال الصالح للرجل الصالح»[2].

وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحجّ فهو ثناء على المال، إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به وقد قال تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾[3].

وقال النبي ﷺ:

«كاد الفقر أن يكون كفراً»[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٨٢.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

فهذا كله ثناء على المال، ولا يمكن الوقوف على وجه الجمع بين مدح المال وذمّه إلا بعد معرفة الحكمة من وجود المال، عندها ينكشف لك أنه خيرٌ من وجه وشرٌّ من وجه، وأنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث شرّ، فهو إذاً ليس بشر محض ولا بخير محض، بل هو سبب للأمرين معاً. ومن هذا ومنه فإنه يمدح تارة ويذم أخرى.

إن مقصد الأكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة، التي هي النعيم الدائم والملك المقيم، إذ قيل لرسول الله ﷺ: من أكرم الناس وأكيسهم؟ فقال ﷺ:

«أكثرهم للموت ذكراً وأشدهم له استعداداً»[1].

وهذه السعادة لا تنال إلا بثلاثة وسائل في الدنيا وهي:

١ ـ الفضائل النفسية كالعلم وحسن الخلق.

٢ ـ الفضائل البدنية: كالصحة والسلامة.

٣ ـ الفضائل الخارجة عن البدن: كالمال وسائر الأسباب.

أما أعلاها فهي الفضائل النفسية ثم البدنية ثم الخارجية وهي أحسنها، والمال من جملة الفضائل الخارجية وأدناها الدراهم والدنانير، فهما خادمان ولا خادم لهما، ويرادان لغيرهما ولا يرادان لذاتهما، إذ النفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادتها، من خلالها تزكيتها بالعلم والمعرفة ومكارم الأخلاق، والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس والأعضاء، والمطاعم والملابس تخدم البدن.

فالمقصود من المطاعم إبقاء البدن ومن المناكح إبقاء النسل ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها وتزيينها بالعلم والخلق. ومن عرف هذا

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الموت.

الترتيب فقد عرف قدر المال ووجه شرفه. فهو خير لأنه ضروري لتحصيل المطعم والملبس التي هي ضرورية أيضاً لبقاء البدن، الذي هو بدوره ضروري لكمال النفس. فالمال إذاً آلة ووسيلة إلى المقصود الصحيح، ويمكن أن يتخذ أيضاً آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة، وهي المقاصد التي تصدّ عن سعادة الآخرة، وتسدّ باب العلم والعمل.

فإذاً المال محمود ومذموم، محمود بالنسبة إلى المقصد المحمود، ومذموم بالنسبة إلى المقصد المذموم. فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر. ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله، وكان المال مسهلاً لها وآلة إليها عظم خطرها إذا ما زيد على قدر الكفاية منها، ولهذا استعاذ الأنبياء من شرّه حتى قال نبينا ﷺ:

«اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً»[1].

فلم يطلب ﷺ من الدنيا ما لم يتمحضّ خيره فقال:

«اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسيكناً»[2].

وقد استعاذ إبراهيم صلوات الله عليه فقال:

﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[3].

وفي بعض التفاسير أنه عنى بذلك الحجرين الذهب والفضة، إذ رتبة النبوة أجلّ من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجارة، إذ قد كفي عبدتهما منذ الصغر قبل النبوّة. ومعنى عبادتهما؛ حبهما والاغترار بهما والركون إليهما. فمن أحبهما كان عابداً لهما ومن

---

(١) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤١٣٩.
(٢) الترمذي: ج٩ ص٢١٣.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

عبد الحجر فقد عبد الصنم. بل كل من كان عابداً لغير الله فهو عابد للصنم، وهذا شرك. إلا أن الشرك نوعان:

١ ـ شرك خفي لا يوجب الخلود في النار، وهو قلّما ينفكّ عنه المؤمنون، وهو أخفى من دبيب النمل.

٢ ـ شرك جلي يوجب الخلود في النار.

فوائد المال وآفاته

إن المال كالحيّة فيها سمّ وترياق، ففوائده ترياقه، وغوائله سمومه. فمن أمكنه معرفة غوائله وفوائده، تمكن من الاحتراز من شره، واستدرار خيره.

١ ـ فوائد المال:

تنقسم فوائد المال إلى:

(أ) دنيوية: لا حاجة إلى ذكرها فإن معرفتها مشهورة بين أصناف الخلق، ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها.

(ب) دينية: وهي تنحصر في ثلاثة أنواع:

● النوع الأول: أن ينفقه على نفسه إما في عبادة أو لأجل الاستعانة على العبادة. أما في العبادة؛ فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال، وهما من أمهات القربات.

أما فيما يقوّيه على العبادة؛ فهو كالمطعم والملبس والمسكن والمنكح وغيرها مما يعد من ضرورات العيش. فهذه الضرورات إن لم تكن ميسّرة اضطر القلب إلى الانصراف لأجل تدبيرها، فلا يتمكن من التفرغ للدين عند ذلك.

وما لا يتوصّل إلى العبادة إلا به فهو عبادة أيضاً، لذا كان أخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين من الفوائد الدينية. أما إذا أخذ منها ما يزيد عن قدر الضرورة والحاجة فهو من حظوظ الدنيا.

● النوع الثاني: ما يصرفه على الناس وهي أربعة أقسام:

١ ـ الصدقة.

٢ ـ المروّة.

٣ ـ وقاية العرض.

٤ ـ أجرة الاستخدام.

ـ أما الصدقة فلا يخفى ثوابها وأنها تطفىء غضب الربّ تعالى.

ـ وأما المروّة، فالمقصود بها صرف المال على الأغنياء والأشراف بعنوان ضيافة أو هوية أو إعانة وما يجري مجراها، وهذه لا تسمى صدقة، لأن الصدقة هي ما يعطى للمحتاج وهؤلاء ليسوا بمحتاجين. إلا أن للمروّة فوائد دينية أيضاً، إذ بها يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء، وبه يكتسب صفة السخاء، إذا لا يوصف بالجود إلا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل الفتوّة والمروّة.

ـ أما الوقاية في العارض؛ فالمقصود به بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء ودفع شرّهم، وهذا أيضاً مع تنجّز فائدته فهو من الحظوظ الدينية. فقد قال رسول الله ﷺ:

«ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة»[1].

وكيف لا يكون كذلك وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة، واحتراز عما يظهر من كلامه من العداوة التي تحمله على الانتقام وتجاوز حدود الشريعة.

---

(١) الحاكم في المستدرك.

ـ أما الاستخدام فالمقصود به الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه واحتياجاته الكثيرة، التي لو تولاها بنفسه لضاعت أوقاته وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذي هو أعلى مقامات السالكين.

● النوع الثالث: ما لا يصرفه على إنسان معين، بل يكون صرفه لأجل الخير العام، كبناء المساجد ودور المرضى وغيرها من الأعمال الخيّرة. وهي أعمال تستجلب بعد الموت بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية، فناهيك به خيراً.

فهذه جملة من فوائد المال في الدين، أما إذا كانت الحظوظ لأجل الوصول إلى العزّ والمجد بين الخلق ونيل الوقار والكرامة في القلوب، فهي من حظوظ العاجلة والدنيوية.

٢ ـ آفات المال:

تنقسم آفات المال أيضاً إلى:

١ ـ آفات دينية.

٢ ـ آفات دنيوية.

وتنقسم الآفات الدينية إلى ثلاثة أقسام:

● الأول: المال يجرّ إلى المعاصي:

إن المال نوع من القدرة يحرك داعية المعاصي وارتكاب الفجور. فإذا اقتحم الإنسان ما اشتهاه هلك وإن صبر وقع في شدّة إذ الصبر مع القدرة أشد، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

● الثاني: المال يجرّ إلى التنعم بالمباحاة:

إن من يتنعم بمباحاة الدنيا ويمرّن نفسه على المال، فيصير التنعم

مألوفاً عنده ومحبوباً، عندها لم يتمكن من الصبر عنه فيجره البعض منه إلى البعض.

وإذا اشتدّ أنسه بالمال ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال، فيقحم نفسه في الشبهات ويخوض في المراءات والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة، لكي ينتظم له أمر دنياه، وتتيسر له نعمها. فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ومن احتاج إلى الناس فلا بد أن ينافقهم ويعصي الله في طلب رضاهم. فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى وهي مباشرة الحظوظ فإنه لن يسلم من هذه أصلاً. ومن الحاجة إلى الخلق تثور العداوة والصداقة.

وينشأ عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والغيبة والنميمة وسائر المعاصي التي تخص القلب واللسان ولا يخلو أيضاً عن التعدي إلى سائر الجوارح، وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه وإصلاحه.

● الثالث: المال يلهي عن ذكر الله.

إن الانشغال بالمال يلهي عن ذكر الله تعالى. وكل ما يشغل العبد عن الله فهو خسران. ولذلك قال عيسى عليه السلام:

«في المال ثلاث آفات: أن يأخذه من غير حلّه. فقيل: إن أخذه في حلّه. قال عليه السلام: يضعه في غير حقّه، فقيل: إن وضعه في حقّه، فقال: يشغله إصلاحه عن الله».

وهذا هو الداء العضال، فإن أصل العبادات ومخها وسرّها ذكر الله تعالى، والتفكر في جلاله، وذلك يستدعي قلباً فارغاً. فصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكراً في خصومة الفلاح ومحاسبته، وخصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود، وخصومة أعوان السلطان في الخراج،

وخصومة الإجراء في التقصير في العمارة...

وصاحب التجارة يبقى متفكراً في خيانة شريكه وتفرّده بالربح. وكذلك صاحب المواشي، وهكذا سائر أصناف الأموال.

فصاحب المال لا يزال متفكراً في كيفية حفظ المال وصرفه، وفي الخوف من ذهابه ونقصه، وفي دفع أطماع الناس عنه. فأودية أفكار أهل الدنيا لا نهاية لها.

أما من معه قوت يومه فهو في سلامة عن جميع ذلك. فترياق المال أخذ القوت منه وصرف الباقي في الخيرات، أما ما عداه فهو سموم وآفات.

فضيلة القناعة ومذمّة الطمع والحرص

إن الفقر محمود ولكن ينبغي أن يكون الفقير قانعاً منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم، وغير حريص على اكتساب المال كيف كان. ولا يمكن تحقق ذلك إلا من خلال القناعة بقدر الضرورة في المطعم والملبس، والاقتصار على أقله قدراً وأخسّه نوعاً، ولا يتعدى أمله يومه أو شهره، فلا يشغل قلبه بما بعد الشهر، فإن التشوّق إلى الكثرة أو طول الأمل يفوّت عزّ القناعة، ويدنس صاحبه بالطمع وذلّ الحرص، حتى يجرّه الحرص والطمع إلى مساوىء الأخلاق وإلى ارتكاب المنكرات. وقد جبل الإنسان على الحرص والطمع وقلّة القناعة. قال رسول الله ﷺ:

«لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى وراءهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»[1].

وقال ﷺ:

«منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: ج٨ ص١١٠.

(٢) مجمع الزوائد: ج١ ص١٣٥.

وقال ﷺ:

«يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الأمل وحب المال»[1].

ولما كانت هذه هي الجبلّة مضلّة للآدمي وغريزة مهلكة أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة، فقال ﷺ:

«طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به»[2].

وقال ﷺ:

«ما من أحد غنيّ ولا فقير إلا ودَّ يوم القيامة أنه كان أُوتي قوتاً في الدنيا»[3].

وقال ﷺ:

«ليس الغنى في كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس»[4].

ولقد نهى النبي ﷺ عن شدّة الحرص والمبالغة في الطلب فقال:

«ألا أيها الناس أجملوا في الطلب فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له، ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له في الدنيا وهي راغمة»[5].

---

(١) أخرجه البخاري: ج٨ ص١١٠.

(٢) أخرجه الترمذي في صحيحه: ج٩ ص٢١١.

(٣) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤١٤٠.

(٤) أخرجه البخاري: ج٨ ص١١.

(٥) الحاكم في المستدرك: ج٢ ص٤.

وروي أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال:

«أيّ عبادك أغنى؟ قال: أقنعهم لما أعطيته، قال: فأيهم أعدل؟ قال: من أنصف من نفسه».

وقال النبي ﷺ:

«إن روح القدس نفث في روعي إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب»[1].

وقال ﷺ:

«كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قانعاً تكن أشكر الناس، وأحبّ للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً»[2].

ونهى رسول الله ﷺ عن الطمع، فقد روي أن أعرابياً أتى إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله عظني وأوجز، فقال ﷺ:

«إذا صلّيت فصلّ صلاة مودّع، ولا تحدثنّ بحديث تعتذر منه غداً، واجمع اليأس عما في أيدي الناس»[3].

---

(١) الحاكم في المستدرك: ج٢ ص٤.

(٢) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤٢١٧.

(٣) المصدر السابق: رقم ٤١٧١.

علاج الحرص والطمع

إن دواء الحرص والطمع مركّب من ثلاثة أركان:

١ ـ الصبر.

٢ ـ العلم.

٣ ـ العمل.

فمجموع ذلك ثلاثة أمور:

الأول: العمل:

المقصود بالعمل؛ الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق. فمن أراد عزّ القناعة ينبغي أن يسدّ على نفسه أبواب الخرج[١] ما أمكنه، ويردّ نفسه إلى ما لا بد له منه. فإن من كثر ماله واتسع إنفاقه لم يمكنه القناعة. فالاقتصاد في المعيشة هو الأصل في القناعة، ونعني به الرفق في الإنفاق وترك الإسراف فيه.

قال رسول الله ﷺ:

«إن الله يحب الرفق في الأمر كلّه».

وقال ﷺ:

«ما عال من اقتصد»[٢].

---

(١) الخرج: المال.

(٢) مسند أحمد.

وقال ﷺ:

«الإقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوّة»[1].

وقال ﷺ:

«من اقتصد أغناه الله ومن بذّر أفقده الله، ومن ذكر الله عز وجل أحبه الله»[2].

الثاني: الصبر:

إذا تيسّر للإنسان في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب على المستقبل. ويعينه على ذلك قصر الأمل والتأكد من أن الرزق الذي قدّر له لا بد وأن يأتيه، وأن شدة الحرص ليست هي السبب في وصول الرزق، بل ينبغي أن يكون واثقاً بوعد الله تعالى حيث قال عزّ اسمه:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[3].

الشيطان يعد الإنسان الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول له: إن لم تحرص على الجمع والإدخار فربما تمرض وربما تعجز فتضطر إلى تحمل ذلّ السؤال: فلا يزال العمر يتعبه في الطلب خوفاً من العجز، مع الغفلة كلياً عن الله تعالى. لذا عندما دخل ابنا خالد على رسول الله ﷺ قال لهما:

«لا تيأسا من الرزق ما تهزّزت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمّه أحمر ليس عليه قشر، ثم يرزقه الله تعالى»[4].

---

(١) أبو داود: ج٢ ص٥٤٨.

(٢) الجامع الصغير.

(٣) سورة هود، الآية: ٦.

(٤) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤١٦٥.

ومرّ رسول الله ﷺ بابن مسعود وهو حزين فقال له:

«لا تكثر همّك ما قدّر يكن وما ترزق يأتك»[1].

وقال ﷺ:

«ألا أيها الناس اجملوا في الطلب فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راغمة»[2].

فلا منجاة للإنسان من الحرص إلا بحسن الظن والثقة بتدبير الله في تقدير الأرزاق. وأن يعلم أنه عليه الإجمال في الطلب لأن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر منه من حيث يحتسب. قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[3].

فإذا انسد على الإنسان باب كان ينتظر منه الرزق فلا ينبغي أن يضطرب لأجله قلبه، فقد قال رسول الله ﷺ:

«أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب»[4].

الثالث: العلم:

فعلى الإنسان أن يعرف ما في القناعة من عزّ الاستغناء وما في الطمع والحرص من الذل. فإذا تحقق له ذلك رغب في القناعة لأن الحرص لا يخلو من تعب والطمع لا يخلو من ذلّ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(٢) البيهقي في السنن: ج٥ ص٢٦٤.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٤) تذكرة الموضوعات: ص٨.

أما القناعة فليس فيها إلا ألم الصبر عن الشهوات وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله وفيه ثواب جزيل في الآخرة. ومن كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق مما يضطره ذلك أيضاً إلى المداهنة وهذا يهلك دينه.

ومن لا يؤثر عزّ النفس على شهوة البطن وغيرها من الشهوات فهو ضعيف العقل وناقص الإيمان، وقد قال النبيﷺ:

«عزّ المؤمن استغناؤه عن الناس»[1].

إذاً ففي القناعة العزّة، ولذلك قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره. وعلى الإنسان أن يكثر تأمله في حال أراذل الناس والحمقاء ومن لا دين لهم ولا عقل، ثم ينظر في أحوال الأنبياء والأولياء فيطالع أحوالهم ويخيّر عقله بين أن يكون شبيهاً بأراذل الخلق أو الاقتداء بمن هم أعزّ أصناف الخلق عند الله حتى يهون بذلك عليه الصبر على الضنك والقناعة باليسير. فإنه إن تنعم في البطن فالحمار أكثر أكلاً منه، وإن تنعّم بالوقاع فالخنزير أعلى رتبة منه، وإن قنع بالقليل ورضي به لم يشاركه في رتبته إلا الأنبياء والأولياء.

ثم عليه أن يفهم أن في جمع المال خطر عظيم كما ذكرنا في آفات المال، وإن فيه خوف السرقة والنهب والضياع وما يستتبعه من فقدان الأمن وفراغ البال وراحته. وعلى العبد أن ينظر إلى من هو دونه في الدنيا لا إلى من هو فوقه، فإن الشيطان يسعى جاهداً لصرف نظره في الدنيا إلى من هو فوقه ليضله فيقول له: لم تفتر عن الطلب وأرباب الأموال يتنعمون بالمطاعم والملابس؟ ويصرف نظره في الدين أيضاً

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج٤ ص٣٢٥.

فيقول له: ولم تضيّق على نفسك وتخاف الله إلى هذا الحد، وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله مثلك، والناس كلهم مشغولون بالتنعم فلم تريد أن تتميّز عنهم؟

وقد قال أبو ذر رضي الله عنه:

«أوصاني خليليﷺ: أن أنظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوقي»[1].

وقال رسول اللهﷺ:

«إذا نظر أحدكم إلى من فضّله الله عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضّل عليه»[2].

فبهذه الأمور الثلاثة يقدر على اكتساب القناعة، فعماد الأمر الصبر وقصر الأمل والعلم بأن غاية الصبر أيام قلائل ليتمتع بعدها دهراً طويلاً. فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لشدة طعمه وهو ينتظر الشفاء.

---

(١) أخرجه أحمد: ج٥ ص١٥٥.

(٢) أخرجه البخاري.

فضيلة السخاء

المال إن كان مفقوداً فينبغي أن تكون حال العبد القناعة وقلّة الحرص، وإن كان المال متوفراً بحوزته فينبغي أن تكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والابتعاد عن الشح والبخل.

فإن السخاء من أخلاق الأنبياء وهو أصل من أصول النجاة وعنه عبّر النبي ﷺ حيث قال:

«السخاء شجرة من شجر الجنّة أغصانها متدلّية إلى الأرض فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنة»[1].

وقال ﷺ:

«قال جبرئيل: قال الله تعالى: إن هذا دين ارتضيته لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما استطعتم»[2].

وقال ﷺ:

«ما جبل الله أولياءه إلا على السخاء وحسن الخلق»[3].

---

(١) أخرجه الطبراني.

(٢) مجمع الزوائد: ج٨ ص٢٠.

(٣) الترغيب: ج٣ ص٣٨٣.

وقال ﷺ:

«خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان يبغضهما الله عز وجل، أما اللذان يحبهما الله عز وجل فحسن الخلق والسخاء، وأما اللذان يبغضهما الله عز وجل فسوء الخلق والبخل، فإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله في قضاء حوائج الناس»[1].

وقال ﷺ:

«تجافوا عن ذنب السخي فإن الله آخذ بيده كلما عثر»[2].

وقال ﷺ:

«إن الله تعالى جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها»[3].

وقال النبيّ ﷺ:

«إن لله عباداً يخصّهم بالنعم لمنافع العباد، فمن بخل بتلك المنافع على العباد نقلها الله عنه وحوّلها إلى غيره»[4].

أتي رسول الله ﷺ بأسارى من بني قنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلاً فقال علي بن أبي طالب عليه السلام:

«يا رسول الله الرب واحد والدين واحد فما بال هذا

---

(١) رواه الأصفهاني.

(٢) أخرجه الطبراني.

(٣) سفساف: رديء. أخرجه البيهقي في الشعب.

(٤) مجمع الزوائد: ج٨ ص١٩٢.

من بينهم؟ فقال النبي ﷺ: نزل عليّ جبرئيل عليه السلام فقال: اقتل هؤلاء واترك هذا فإن الله شكر له سخاء فيه»[1].

وقال النبي ﷺ:

«إن لكل شيء ثمرة، وثمرة المعروف تعجيل السراح»[2].

وقال ﷺ:

«طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء»[3].

وعن النبي ﷺ أنه قال:

«إن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنّة بعيد عن النار، وإن البخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار، وجاهل سخي أحب إلى الله من عالم بخيل، وأدوء الداء البخل»[4].

وقال ﷺ:

«إن بدلاء أمتي لم تدخل الجنّة بصلاة ولا بصيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين»[5].

وقال علي عليه السلام:

«إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تفنى وإذا

---

(١) بحار الأنوار: ج١٥ ص٢١.

(٢) السراح: الخروج من الأمر بسرعة وسهولة. الكافي: ج٤ ص٣٠.

(٣) البحار: ج٢ ص٢١.

(٤) الترمذي: ج٨ ص١٤٠.

(٥) أخرجه أبو بكر بن لال في المكارم.

أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى وأنشد:

لا تبخلنّ بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف
فإن تولت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وقال علي بن الحسين عليه السلام:

«من وصف ببذل ماله لطلابه لم يكن سخياً وإنما السخيّ من يبتدىء بحقوق الله في أهل طاعته ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان ثقته بثواب الله تاماً».

ذم البخل

قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وقال عزّ اسمه:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[2].

وقال عز وجل:

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[3].

قال رسول الله ﷺ:

«إياكم والشحّ فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلّوا محارمهم»[4].

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٤) الدر المنثور: ج٦ ص١٩٦.

وقال النبي ﷺ:

«لا يدخل الجنّة بخيل ولا خبّ ولا خائن ولا سيّىء الملكة ولا منان»(١).

وقال ﷺ:

«ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه».

وقال ﷺ:

«خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق»(٢).

وقال ﷺ في دعائه:

«اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أُردّ إلى أرذل العمر»(٣).

وقال النبي ﷺ:

«إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش فإن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحّش، وإياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم الشحّ، أمرهم بالكذب فكذبوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»(٤).

---

(١) الترمذي: ج٨ ص١٤٢.

(٢) الترمذي: ج٨ ص١٤١.

(٣) النسائي: ج٨ ص٢٥٦.

(٤) أخرجه الحاكم: ج١ ص١١.

وقال ﷺ:

«شر ما في الرجل شحٌّ هالعٌ وجبن خالع»[1].

وقتل شهيد على عهد رسول الله ﷺ فبكته باكية وقالت: واشهيداه، فقال النبي ﷺ:

«وما يدريك أنه شهيد فلعلّه كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه»[2].

وقال ﷺ:

«السخاء شجرة تنبت في الجنّة فلا يلج الجنّة إلا سخي، والبخل شجرة تنبت في النار ولا يلج النار إلا بخيل»[3].

وقال ﷺ:

«الجود من جود الله تعالى فجودوا يجد الله تعالى لكم، ألا إن الله خلق الجود فجعله في صورة رجل وجعل اسّه راسخاً في أصل شجرة طوبى وشد أغصانها بأغصان سدرة المنتهى ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا فمن تعلّق بغصن منها أدخله الجنة، إلا أن السخاء من الإيمان والإيمان في الجنة، وخلق البخل من مقته وجعل أسّه راسخاً في أصل شجرة الزّقوم ودلّى بعض أغصانها إلى الدنيا فمن تعلّق بغصن منها أدخله النار، ألا إن البخل من الكفر والكفر في النار»[4].

---

(١) الهالع: ذو جزع. الخالع: الشديد، أخرجه أبو داود: ج٢ ص١٢.

(٢) الدر المنثور: ج٦ ص١٩٦.

(٣) الدر المنثور: ج٦ ص١٩٧.

(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس.

وقال النبي ﷺ:

«إن الله يبغض البخيل في حياته السخي عند موته»[١].

وقال ﷺ:

«لجاهل سخي أحب إلى الله عز وجل من العابد البخيل»[٢].

وقال ﷺ:

«لا يجتمع الشحّ والإيمان في قلب عبد»[٣].

وقال ﷺ:

«لا ينبغي لمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً».

وعن علي عليه السلام قال:

«إنه سيأتي على الناس زمان عضوض يعضّ الموسر على ما في يديه ولم يؤمر بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾»[٤].

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخه.

(٢) الترمذي ج٨ ص١٤٠.

(٣) الدر المنثور: ج٦ ص١٩٦.

(٤) نهج البلاغة.

فضيلة الإيثار

إن السخاء والبخل كل واحد منهما ينقسم إلى درجات فأرفع درجات السخاء الإيثار، وهو أن يجود العبد بالمال مع الحاجة إليه. أما السخاء فهو عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه، وإن بذل الشيء مع الحاجة إليه أشد من بذله مع عدم الحاجة إليه.

وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة إلى ما يسخو به، فكذلك البخل قد ينتهي بصاحبه إلى البخل على نفسه مع الحاجة إليه. فكم من بخيل المال حتى إذا مرض لم يتداوى، وإذا اشتهى الشهوة لم يمنعه عنها إلا البخل بالثمن، ولو وجدها مجاناً لأكلها. فهذا يبخل على نفسه مع الحاجة وذلك يؤثر غيره على نفسه مع حاجته إلى ما يؤثر به.

فانظر ما بين الرجلين، فإن الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء، وليس بعد الإيثار درجة في السخاء. وقد أثنى الله تعالى على الذين يؤثرون على أنفسهم فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ:

«أيما امرىء اشتهى شهوة فردّ شهوته وآثر على نفسه غفر له»[2].

إن السخاء خلق من أخلاق الله تعالى، والإيثار أعلى درجات السخاء، وكان ذلك دأب رسول الله ﷺ حتى سماه الله تعالى عظيماً فقال عز وجل:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[3].

وقال موسى عليه السلام:

«يا ربّ أرني بعض درجات محمد ﷺ وأمته. قال: يا موسى إنك لن تطيق ذلك ولكني أريك منزلة من منازله جليلة، عظيمة، فضلته بها عليك وعلى جميع خلقي. قال: فكشف له عن ملكوت السماوات، فنظر إلى منزلة كادت أن تتلف نفسه في أنوارها وقربها إلى الله عز وجل، فقال: يا رب بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة؟ قال: بخلق اختصصته به من بينهم وهو الإيثار.

يا موسى لا يأتني أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا استحييت من محاسبته وبوّأته من جنتي حيث شاء».

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٢) أخرجه ابن حبان.

(٣) سورة القلم، الآية: ٤.

وفي الرواية:

«بات علي بن أبي طالب عليه السلام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل عليهما السلام: إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة فاختار كلاهما الحياة وأحباها.

فأوصى الله إليهما أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب، إني آخيت بينه وبين نبيّي محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه، فكان جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرئيل ينادي بخ بخ من مثلك يا بن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة، فأنزل الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾»[1].

(١) رواه الثعلبي في تفسيره. وابن سعد في الطبقات: ج١ ص٢٢٨.

حدّ السخاء والبخل وحقيقتهما

إن المال خلق لحكمة ومقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق. والمال يمكن التصرف فيه بالعدل وهو أن يحفظ حيث يجب أن يحفظ ويبذل حيث يجب البذل. والإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير، وبينهما حدٌّ وسط وهو المحمود، وهو السخاء والجود. إذ لم يؤمر رسول الله ﷺ إلا بالسخاء، حيث قيل له:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾[1].

فالجود هو الحد الوسط بين الإقتار والإسراف، وبين القبض والبسط.

والجود هو أن يقدّر الباذل بذله وإمساكه بقدر الواجب، ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه راضياً به وغير منازع له.

فإن بذل في محل وكان البذل فيه واجب ولكن أثناء البذل كانت نفسه تنازعه وهو يصابرها، ففي هذه الحالة لا يعد سخياً، بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة والتفات إلى المال، إلا من حيث يراد المال له وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

أما معرفة الواجب فيتيسّر من خلال معرفة أن الواجب قسمان:

١ ـ واجب بالشرع.

٢ ـ واجب بالمروّة والعادة.

والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروّة. فإن منع واحداً منهما فهو بخيل، ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل، كالذي يمنع أداء الزكاة ويمنع أهله وعياله النفقة أو يؤديهما ونفسه كارهة، لأن الأمر يشق عليه، وهذا بخيل بالطبع وهو إنما يتسخّى بالتكلّف والإكراه.

أما واجب المروّة فهو ترك التضييق على النفس والبخل في الأمور الحقيرة كالطعام والثوب وغيرها، فإن ذلك قبيح، على اختلاف الأحوال والأشخاص.

فالبخيل إذاً هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروّة، وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره، إذ لعل حد البخل هو إمساك المال عن غرض هو في الحقيقة أهم من حفظ المال نفسه. فإن صيانة الدين أهم من حفظ المال.

ثم تبقى هناك درجة أخرى وهو أن يكون الرجل ممن يؤدي الواجب ويحفظ المروّة ولكن معه مال كثير قد جمعه ولم يصرفه في الصدقات ولم يعطه للمحتاجين، فتقابل غرض حفظ المال ليكون له عدّة على نوائب الزمان وغرض الثواب من خلال التصدّق ليكون رافعاً لدرجاته في الآخرة. فإمساك المال عن هذا الغرض بخل عند الأكياس وليس ببخل عند العوام. وذلك لأن نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا، فيرون أن الإمساك لأجل دفع نوائب الزمان أمر مهم وضروري.

وربما تظهر سمة البخل عند من كان في جواره محتاج فمنعه بحجة

أنه قد أدى الزكاة الواجبة عليه وليس عليه غيرها.

ويختلف استقباح ذلك باختلاف مقدار ماله وباختلاف شدّة حاجة المحتاج وصلاح دينه واستحقاقه.

أما من أدّى واجب الشرع وواجب المروّة اللائقة به فقد تبرأ من البخل.

وإذا اتسعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجبه الشرع ولا تتوجه إليه الملامة في العادة فهو جواد بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير ودرجات ذلك لا تحصر ولذلك كان بعض الناس أجود من بعض.

فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروّة هو الجود ولكن بشرط أن يكون عن طيبة نفس، لا عن طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء، فإن من يطمع في الشكر والثناء لم يكن بجواد، فهو يشتري المدح بماله، والمدح لذيذ وهو في هذه الحالة مقصود بنفسه، أما حقيقة الجود فهو بذل الشيء من غير عوض، وحقيقة الجود هذه لا تنطبق إلا على الله ولا تتصوّر إلا منه، أما الآدمي فاسم الجواد عليه مجاز لأنه لا يبذل الشيء إلا لغرض، أما إن كان غرضه الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود أو تطهير النفس من رذيلة البخل فإنه في هذه الحالة يسمى جواداً.

أما إن كان الباعث على الجود؛ الخوف من الهجاء مثلاً أو من ملامة الناس أو من ما يتوقعه من نفع يناله فكل ذلك ليس من الجود، لأنه مضطر إليه.

علاج البخل

إن البخل سببه حب المال ولحب المال سببان:

الأول: حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال وطول الأمل. فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما لم يكن ليبخل بماله. وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد، قام له الولد مقام طول الأمل فإنه يقدّر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم. ولذلك قال ﷺ:

«الولد مبخلة مجبنة مجهلة»(١).

وإذا أضيف إلى ذلك الخوف من الفقر وقلّة الثقة بمجيء الرزق قوي عندها البخل لا محالة.

الثاني: أن يحب الإنسان عين المال، أي المال نفسه. فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره إذا اقتصر في إنفاقه على ما جرت به عادته، ولكنه صار محباً للدنانير عاشقاً لها يلتذ بوجودها فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها غيره، ومع هذا لا تسمح له نفسه بأن يأكل منها أو يتصدق بحبة واحدة منها.

وهذا مرض للقلب عظيم عسير العلاج لاسيما في كبر السن، وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه.

---

(١) الجامع الصغير.

فهذه أسباب حب المال، وإنما علاج كل علة من خلال العمل على مضادّة سببها، فيعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر. ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر إلى موت الأقران وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم. ويعالج التفات القلب إلى الولد من خلال الإيمان بأن الذي خلقه خلق معه رزقه.

وعلى الإنسان أن يعالج قلبه أيضاً من خلال كثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء، وما توعّد الله تعالى به على البخل من العقاب العظيم.

ومن الأدوية النافعة أيضاً كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحه لهم.

وعلى الإنسان أن يعالج قلبه أيضاً من خلال التفكر بمقاصد المال والهدف الذي خلقت لأجله، فلا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه والباقي يدّخره لنفسه في الآخرة من خلال بذله وإنفاقه في سبيل الله.

فهذه أدوية من جهة المعرفة والعلم، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة مالت رغبته إلى البذل إن كان عاقلاً. فإن تحركت الداعية فينبغي أن يجيب الخاطر الأوّل ولا يتوقف، لأن الشيطان يعده الفقر ويخوّفه ويصدّه عنه.

ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفاً، فالذي يريد علاج مرض البخل عليه أن يفارق المال تكلفاً في البداية من خلال بذله.

ومن لطائف الحيل على البخل أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في حشمة الجود، فيكون في هذه الحالة قد تخلص من خبث البخل ووقع في خبث الرياء، فينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه الخاص به.

فالصفات الخبيثة ينبغي إن يسلّط بعضها على بعض كما تسلّط الشهوة على الغضب فتكسر سورته بها، ويسلط الغضب على الشهوة حتى تكسر رعونتها به. ولكن هذا العلاج نافع في حق من كان البخل أغلب عليه من الرياء وحب الجاه فيبدل الأقوى بالأضعف.

فالصفات الخبيثة يمكن أن يسلّط بعضها على بعض حتى يقمعها فيجعل الأضعف قوتاً للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة، ثم تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة، من خلال منع القوت عنها، ومنع القوت عن الصفات المذمومة من خلال عدم العمل بمقتضاها. فالصفات الفاسدة تقتضي لا محالة أعمالاً، فإذا خولفت هذه الأعمال خمدت الصفات وماتت. مثل البخل فإنه يقتضي إمساك المال، فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرّة بعد أخرى ماتت صفة البخل وصارت صفة البذل طبعاً.

إذن علاج البخل العلم والعمل معاً. فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود، والعمل يرجع إلى البذل على سبيل التكلّف.

وظائف العبد في ماله

إن المال كما وصفناه خير من وجه وشرّ من وجه ومثاله مثال حيّة يأخذها الرّاقي ويستخرج منها الترياق، ويأخذها الغافل فيقتله سمّها من حيث لا يدري. ولا يخلو أحد عن سمّ المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف:

الأولى: أن يعرف مقصود المال والغاية من خلقه ووجوده، وأنه لم يحتج إليه حتى يكتسب، ولا يحفظ إلا بقدر الحاجة إليه، ولا يعطيه من همّته وفوق ما يستحقّه.

الثانية: أن يراعي جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض، والجهات المكروهة القادمة في المروّة، كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة، وكالسؤال الذي فيه المذلّة وهتك المروّة وما يجري مجراها.

الثالثة: في المقدار الذي ينبغي أن يكتسبه، بحيث إنه لا يستكثر منه ولا يستقلّ. وإن القدر الواجب معياره الحاجة، والحاجة مطعم وملبس ومسكن. والإنسان إذا كان مائلاً إلى جانب القلّة وقريباً من حدّ الضرورة كان من جملة المخففين، وإذا جاوز هذا الحد وقع في هاوية لا آخر لعمقها.

الرابعة: أن يراعي جهة المخرج ويقتصد في الإنفاق، من دون أن يكون مبذّراً ولا مقتّراً. ويضع ما اكتسبه في مكانه ولا يضعه في غير

حقّه. فإن الإثم في الأخذ بغير حق والوضع في غير حقّه سواء.

الخامسة: أن يصلح نيّته في الأخذ والترك والإنفاق والإمساك. فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة، ويترك ما يترك زهداً فيه واستحقارا له، وإذا فعل ذلك لم يضرّه وجود المال ولذلك قال علي عليه السلام:

«لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله فهو زاهد، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله فليس بزاهد».

فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله تعالى عند أدائك للعبادة. فإن أبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة وهما يعينان على العبادة. فإذا كان قصدك بهما العبادة فقد صارتا عبادة في حقك، وكذلك ينبغي أن تكون نيتك في كل ما يحفظك من قميص وإزار وفراش وآنية لأن كل ذلك مما قد يحتاج إليه في الدين. وما فضل عن حاجة الإنسان فينبغي أن يقصد به أن ينتفع عبد آخر من عباد الله، فلا يمنعه منه مع حاجته إليه. ولكن لا يتأتّى ذلك إلا لمن رسخت في الدين قدمه وعظم فيه علمه.

آداب الكسب

مقدمة

إن الرب الواحد الوهاب، ربّ الأرباب ومسبب الأسباب جعل الآخرة دار الثواب والعقاب والدنيا دار المحن والاضطراب والتشمّر والاكتساب، وليس التشمّر في الدنيا مقصوراً على المعاد دون المعاش بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه.

فالدنيا مزرعة الآخرة والناس فيها ثلاثة:

رجل شغله معاشه عن معاده فهو من الهالكين، ورجل شغله معاده عن معاشه فهو من السابقين الفائزين، والثالث وهو أقرب إلى الاعتدال، هو الذي شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين. ولن ينال رتبة الاقتصاد من لم يلازم في طلب المعيشة منهج السداد. ولن يكون طلب الدنيا وسيلة إلى الآخرة ما لم يتأدّب في طلبها بآداب الشريعة.

وها نحن نورد آداب التجارات والصناعات وضروب الاكتساب وسننها.

فضيلة الكسب

• فضيلة الكسب في الآيات:

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ١١﴾[1]، فذكر الكسب في معرض الامتنان. وقال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[2]، حيث جعل الله الكسب نعمة وطلب الشكر عليها.

وقال عزّ من قائل في آية أخرى:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[3].

وقال عزّ اسمه:

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿فَٱنتَشِرُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[5].

---

(١) سورة النبأ، الآية: ١١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

(٤) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

(٥) سورة الجمعة، الآية: ١٠.

- **فضيلة الكسب في الروايات:**

قال رسول الله ﷺ:

«من الذنوب ذنوب لا يكفّرها إلا الهمّ في طلب المعيشة»[1].

وقال النبي ﷺ:

«التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصدّيقين والشهداء»[2].

وقال ﷺ:

«من طلب الدنيا حلالاً تعففاً عن المسألة وتوسيعاً على عياله وتعطّفاً على جاره لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر»[3].

وكان النبي ﷺ ذات يوم جالساً مع أصحابه فنظر إلى شاب ذي جلد وقوّة وقد بكّر يسعى فقالوا: ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله؟ فقال النبي ﷺ:

«لا تقولوا هذا فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفّها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذريّة ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى تفاخراً وتكاثراً فهو في سبيل الشيطان»[4].

---

(١) مجمع الزوائد: ج٤ ص٦٤.

(٢) الترمذي: ج٥ ص٢١٣.

(٣) الكافي: ج٥ ص٧٨.

(٤) أخرجه الطبراني في معاجمه الثلاثة.

وقال رسول الله ﷺ:

«إن الله يحب المؤمن المحترف»[1].

وقال ﷺ:

«لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خيرٌ من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله: أعطاه أو منعه»[2].

وقال ﷺ:

«من فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر»[3].

عن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: ألا إن الروح الأمين نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله عز وجل واجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بشيء من معصية الله جلّ وعزّ فإن الله تبارك وتعالى قسّم الأرزاق بين خلقه حلالاً ولم يقسّمها حراماً، فمن اتقى الله عز وجل وصبر أتاه الله برزقه من حلّه، ومن هتك حجاب الستر وعجّل فأخذ من غير حلِّه قُصّ به من رزقه الحلال وحوسب عليه يوم القيامة»[4].

---

(١) الكافي: ج٥ ص١١٣.
(٢) البخاري: ج٣ ص٧١.
(٣) الكافي: ج٤ ص١٩.
(٤) الكافي: ج٥ ص٨٠.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إذا كان الرجل معسراً فعمل بقدر ما يقوت نفسه وأهله لا يطلب حراماً فهو كالمجاهد في سبيل الله»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«إن رجلاً أتاه فقال: إنني لا أحسن أن أعمل عملاً بيدي ولا أحسن أن أتّجر وأنا محارف محتاج، فقال: اعمل واحمل على رأسك واستغن عن الناس فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قد حمل حجرا على عاتقه فوضعه في حائط له من حيطانه وإن الحجر لفي مكانه ولا يدرى كم عمقه إلا أنّه ثمّة»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله»[3].

وروي عن عيسى على نبيّنا وآله وعليه السلام أنه رأى رجلاً فقال له: «ما تصنع؟ فقال: أتعبّد، قال: ومن يعولك؟ قال أخي. قال: أخوك أعبد منك».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«قال أمير المؤمنين عليه السلام: أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام إنّك نِعم العبد لولا أنك تأكل من بيت المال ولا تعمل بيدك شيئاً. قال: فبكى داود عليه السلام أربعين

---

(١) الكافي: ج٥ ص٨٨ رقم ٣.

(٢) الكافي: ج٥ ص٧٦ رقم ١٤.

(٣) الكافي: ج٥ ص٨٨ رقم ١.

صباحاً فأوحى الله عز وجل إلى الحديد أن لِن لعبدي داود؛ فألان الله عز وجل له الحديد وكان يعمل كل يوم درعاً فيبيعها بألف درهم فعمل ثلاثمائة وستين درعاً فباعها بثلاثمائة وستين ألفاً واستغنى عن بيت المال»[1].

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«استعينوا ببعض هذه على بعض، ولا تكونوا كلولاً على الناس»[2].

وعنهعليه السلام قال:

«قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: ملعون من ألقى كلّه على الناس»[3].

وعن الصادقعليه السلام أيضاً:

«أنه سأل عن رجل فقيل: أصابته الحاجة، قال: فما يصنع اليوم؟ قيل: في البيت يعبد ربّه، فقال: فمن أين قوته؟ قيل: من عند بعض إخوانه، فقالعليه السلام: والله، الذي يقوته أشد عبادة منه»[4].

---

(١) الكافي: ج٥ ص٧٥ رقم ٥.

(٢) الكافي: ج٥ ص٧٢ رقم ٦.

(٣) المصدر السابق: رقم ٧.

(٤) الكافي: ج٥ ص٧٨ رقم ٤.

العبادة والكسب الحلال

بعد أن اطلعنا على فضيلة الكسب في الفصل السابق لقائل أن يسأل عن كيفية الجمع بين هذه الروايات والروايات التي قد يفهم منها أنها تنهى عن الكسب. كما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«ما أُوحي إليّ أن اجمع المال وكن من التاجرين، ولكن أوحي إليّ أن سبّح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»[1].

وقيل لسلمان الفارسي ـ رحمه الله ـ أوصنا فقال:

«من استطاع منكم أن يموت حاجّاً أو غازياً أو عامراً لمسجد ربّه فليفعل ولا يموتنّ تاجراً ولا خائناً».

والجواب أنّه ليس المقصود من فضيلة الكسب والتجارة أنها أفضل مطلقا ولا أن التخلي عنها وتركها أفضل بشكل مطلق ومن كل وجه. بل المقصود أن التجارة إما أن يطلب بها الكفاية أو يطلب بها الثروة والزيادة على الكفاية. فإن طلب بها الزيادة على الكفاية لاستكثار المال وادخاره لا للصرف إلى الخيرات والصدقات فهي مذمومة.

لأنه إقبال على الدنيا التي حبها رأس كل خطيئة، وإن اجتمع مع

(١) الدر المنثور: ج٤ ص١٠٩.

ذلك الخيانة، فكان طالب الزيادة من المال خائناً أيضاً فهو ظلم وفسق. وهذا ما أراده سلمان بقوله: «لا تمت تاجراً ولا خائناً»، حيث أراد بالتاجر طالب الزيادة.

وأما إذا طلب بها الكفاية لنفسه وأولاده وكان يقدر على كفايتهم بالسؤال فالتجارة تعففا عن السؤال أفضل. وإن كان لا يحتاج إلى السؤال وكان يُعطى من غير مسألة فالكسب أفضل له لأنه إنما يُعطى لأنه سائل بلسان حاله ومناد بين الناس بفقره. فالتعفف والتستّر أولى من البطالة بل ومن الاشتغال بالعبادة البدنية.

فالمستفاد من أخبار أهل البيت عليهم السلام أفضلية الكسب والتجارة مطلقاً حتى للمتعبّد وأهل العلم. فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«في قول الله عز وجل ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾، قال عليه السلام: كانوا أصحاب تجارة فإذا حضرت الصلاة تركوا التجارة وانطلقوا إلى الصلاة وهم أعظم أجراً ممن لا يتّجر»[١].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«ما فعل عمر بن مسلم؟ قيل: أقبل على العبادة وترك التجارة، فقال: ويحه أما علم أنّ تارك الطلب لا يستجاب له. إنّ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لما نزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أغلقوا الأبواب واقبلوا على العبادة وقالوا: قد كفينا، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فأرسل إليهم ما حملكم على ما صنعتم؟ قالوا: يا رسول الله تكفّل الله

---

(١) الكافي: باب التجارة وآدابها، ص٣٦٢ رقم ٤.

عز وجل لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة، فقال: إنه من فعل ذلك لم يستجب الله له، عليكم بالطلب، إني لأبغض الرجل فاغراً فاه إلى ربّه يقول: ربّ ارزقني ارزقني ويترك الطلب»[1].

وعن علي بن أبي حمزة قال:

«رأيت أبا الحسن عليه السلام يعمل في أرض له قد استنقعت قدماه في العرق فقلت: جعلت فداك أين الرجال؟ فقال عليه السلام: يا علي عمل باليد من هو خيرٌ مني ومن أبي في أرضه، فقلت له: ومن هو؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين، وآبائي كلّهم عليهم السلام قد عملوا بأيديهم وهو من عمل النبيين والمرسلين والصالحين»[2].

وعن الفضل بن أبي قرّة قال:

«دخلنا على أبي عبد الله عليه السلام وهو يعمل على حائط له، فقلنا: جعلنا الله فداك دعنا نعمل لك أو تعمله الغلمان، قال: لا، دعوني فإني أشتهي أن يراني الله عز وجل أعمل بيدي وأطلب الحلال في أذى نفسي»[3].

---

(١) الكافي: باب التجارة وآدابها ص٣٦٢ رقم ٤.

(٢) الكافي: ص٣٥٥ رقم ٢٤ باب المعايش والمكاسب.

(٣) المصدر السابق.

المظالم العامة التي ينبغي اجتنابها

إن المعاملة قد تجري على وجه يشتمل على ظلم يمكن أن يتعرض بسببه المعامل لسخط الله تعالى، وهذا الظلم نعني به ما يستضرّ به الغير وهو ينقسم إلى ما يعمّ ضرره وإلى ما يخصّ ضرره المعامل فقط وفي هذا الفصل سنشير إلى ما يعم ضرره وهو على أنواع:

النوع الأول: الاحتكار:

فإن ادخار الطعام من قبل البائع غلاء الأسعار هو ظلم وصاحبه مذموم في الشرع، فقد قال رسول الله ﷺ:

«من احتكر الطعام أربعين يوماً ثم تصدّق به لم تكن صدقته كفّارة لاحتكاره»(١).

وقال ﷺ:

«من احتكر الطعام أربعين يوماً فقد بريء من الله وبريء الله منه»(٢).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«من احتكر الطعام أربعين يوماً قسا قلبه».

---

(١) مشكاة المصابيح: ص٢٥١.

(٢) المصدر السابق.

وعن أبي جعفر الفزاري قال:

«دعا أبو عبد الله عليه السلام مولى له يقال له «مصادف» فأعطاه ألف دينار وقال له: تجهّز حتى تخرج إلى مصر فإن عيالي قد كثروا، قال: فجهّزه بمتاع وخرج مع التجار إلى مصر، فلما دنوا من مصر استقبلتهم قافلة خرجت من مصر، فسألوهم عن المتاع الذي معهم ما حاله في المدينة، وكان متاع العامّة ـ أي ما يحتاج إليه الناس عامة ـ فأخبروهم أن ليس بمصر منه شيء، فتحالفوا وتعاهدوا على أن لا ينقصوا متاعهم من ربح الدينار ديناراً فلمّا قبضوا أموالهم وانصرفوا إلى المدينة دخل مصادف على أبي عبد الله عليه السلام ومعه كيسان في كل واحد ألف دينار فقال: جعلت فداك هذا رأس المال وهذا الآخر ربح، فقال: إنّ هذا الربح كثير ولكن ما صنعتم في المتاع؟ فحدّثه كيف صنعوا وكيف تحالفوا فقال: سبحان الله تحلفون على قوم المسلمين أن لا تبيعوهم إلا بربح الدينار ديناراً ثم أخذ أحد الكيسين وقال: هذا رأس المال ولا حاجة لنا في هذا الربح، ثم قال: يا مصادف مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الجالب مرزوق والمحتكر ملعون»[2].

---

(١) الكافي: ج٥ ص١٦٣ باب الحلف في الشراء والبيع.

(٢) الكافي: ج٥ ص١٦٥ رقم ٦.

وعنه عليه السلام أنه قال:

«الحكرة أن يشتري طعاماً ليس في المصر غيره فيحكره، فإن كان في المصر طعام أو بيّاع غيره لا بأس بأن يلتمس بسلعته الفضل؛ قال الراوي: وسألته عن الزيت فقال: إن كان عند غيرك فلا بأس بإمساكه»(١).

وعنه عليه السلام أنه قال:

«الحكرة في الخصب أربعون يوماً وفي البلاء والشدّة ثلاثة أيام، فما زاد على الأربعين يوماً في الخصب فصاحبه ملعون وما زاد في العسرة على ثلاثة أيام فصاحبه ملعون»(٢).

وعنه عليه السلام قال:

«ليست الحكرة إلا في الحنطة والشعير والتمر والزبيب والسمن»(٣).

عن الحلبي قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يحتكر الطعام يتربص به هل يجوز ذلك؟ فقال عليه السلام:

«إن كان الطعام كثير يسع الناس فلا بأس وإن كان الطعام قليلاً لا يسع الناس فإنه يكره أن يحتكر الطعام ويترك الناس ليس لهم طعام»(٤).

---

(١) الكافي: ج٥ ص١٦٤ رقم ٣.
(٢) الكافي: ج٥ ص١٦٥ رقم ٧.
(٣) الكافي: ج٥ ص١٦٤.
(٤) الكافي: ج٥ ص١٦٥ رقم ٥.

النوع الثاني: ترويج الزيف في الدراهم:

إن ترويج الزيف في النقد ظلم، وإذا عمّ بسببه الضرر وشيع الفساد كان وزر ذلك كله ووباله راجعاً إلى من فتح هذا الباب وقام بترويج الزيف.

قال النبيﷺ:

«من سنّ سنّة سيئة يعمل بها من بعده كان عليه مثل وزرها ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء»[1].

وقد قيل: إن إنفاق درهم زيف أشدّ من سرقة مائة درهم، لأن السرقة معصية وقد تمّت وانقطعت، أما إنفاق الزيف فهو بدعة أظهرها في الدين وسنّة سيئة يعمل بها من بعده فيكون عليه وزرها بعد موته إلى مائة سنة أو مائتين أو أكثر إلى أن ينفق ذلك الدرهم فيكون عليه ما فسد ونقص من أموال الناس بسببه.

فطوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه، والويل لمن يموت وتبقى ذنوبه بعده، فيعذّب بها في قبره ويسأل عنها إلى أن تنقرض. قال الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾[2].

أي نكتب أيضاً ما أخروه من آثار أعمالهم كما نكتب ما قدّموه وفي مثله قوله تعالى:

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[3].

وإذا ورد على شخص ما شيء من الزيف عليه أن يطرحه في بئر

---

(١) رواه مسلم: ج٨ ص٦١.

(٢) سورة يس، الآية: ١٢.

(٣) سورة القيامة، الآية: ١٣.

بحيث لا تمتد إليه اليد أو أن يفسده بحيث لا يمكن التعامل به مجدداً.
روي عن موسى بن بكر أنه قال:

«كنا عند أبي الحسن عليه السلام فإذا دنانير مصبوبة بين يديه فنظر إلى دينار فأخذه بيده ثم فلقه بنصفين ثم قال لي: ألقه في البالوعة حتى لا يباع شيء فيه غشّ»[١].

(١) الكافي: ج٥ ص١٦٠ رقم ٣.

المظالم الخاصة التي ينبغي اجتنابها

إن كل ما يستضرّ به المعامل فهو ظلم، أما العدل فهو أن لا يضرّ بأخيه المسلم والضابط الكلي فيه أن لا يحب له إلا ما يحبّ لنفسه. أما المظالم الخاصة التي ينبغي اجتنابها فهي أربعة أمور:

الأول: أن لا يثني على السلعة بما ليس فيها:

إن وصف السلعة بما ليس فيها كذب، فإن قبل المعامل فهو تلبيس وظلم مع كونه كذباً، وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروّة، وإن أثنى على السلعة بما فيها فهو هذيان وتكلّم بكلام لا يعنيه وهو محاسب على كل كلمة تصدر منه، فقد قال الله تعالى:

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[(١)].

أما لو أثنى على السلعة من باب تعريف المشتري عليها لا أكثر فلا بأس بذكر القدر الموجود منه من غير مبالغة وإطناب، وليكن قصده مجرد تعريف أخوه المسلم على السلعة، ولا ينبغي أن يحلف عليه البتّة فإنه إن كان كاذباً فقد جاء باليمين الغموس وهي من الكبائر وإن كان صادقاً فقد جعل الله عرضة لأيمانه وقد أساء فيه إذ الدنيا أخسّ من أن يقصد ترويجها بذكر اسم الله تعالى من غير ضرورة، فقد جاء في الخبر:

---

(١) سورة ق، الآية: ١٨.

«ويل للتاجر من قول: بلى والله ولا والله، ويل للصانع من غد وبعد غد».

وفي الخبر أيضاً:

«اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للكسب»[1].

وعن النبي ﷺ أنه قال:

«أربع من كنّ فيه طاب مكسبه: إذا اشترى لم يعب، وإذا باع لم يحمد ولم يدلّس، وفيما بين ذلك لا يحلف»[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يقول:

«إياكم والحلف فإنه ينفق السلعة ويمحق البركة»[3].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أيضاً أنه قال:

«يا معاشر السماسرة أقلّوا الأيمان فإنها منفقة للسلعة ممحقة للربح»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«قال رسول الله ﷺ: من باع واشترى فليحفظ خمس خصال وإلا فلا يبيعنّ ولا يشترينّ: الربا، والحلف، وكتمان العيب، والحمد إذا باع، والذم إذا اشترى»[5].

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ج٥ ص٢٦٥.
(٢) الكافي: ج٥ ص١٥٣ رقم ١٨.
(٣) الكافي: ج٥ ص١٦٢ رقم ٤.
(٤) المصدر السابق.
(٥) الكافي: ج٥ ص١٥٠ رقم ٢.

وعن أبي الحسن موسى عليه السلام قال:

«ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة؛ أحدهم رجل اتخذ الله بضاعة لا يبيع إلا بيمين ولا يشتري إلا بيمين»[1].

الثاني: أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيّها وجليّها:

على البائع أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيّها وجليّها، ولا يكتم منها شيئاً، فذلك واجب. وإن أخفاه كان ظالماً وغاشاً والغش حرام، وكان تاركاً للنصح في المعاملة والنصح واجب. وإذا أظهر أحسن وجهي الثوب وأخفى الآخر كان غاشاً أيضاً. وكذلك إذا عرض الثياب في المواضع المظلمة.

ويدلّ على تحريم الغش ما روي:

«إن النبي صلى الله عليه وآله مرّ برجل يبيع طعاماً [فأعجبه] فأدخل يده فيه فرأى بللاً فقال صلى الله عليه وآله: ما هذا؟ فقال: أصابته السماء، فقال صلى الله عليه وآله: هلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس، من غشّنا فليس منا»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله لرجل يبيع التمر: يا فلان أما علمت أنه ليس من المسلمين من غشّهم»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«ليس منا من غشنا»[4].

---

(١) الكافي: ج٥ ص١٦٢ رقم ٣.
(٢) السنن الكبرى: ج٥ ص٣٢٠.
(٣) الكافي: ج٥ ص١٦٠ باب الغش.
(٤) المصدر السابق.

وعنه عليه السلام أيضاً: أنه قال:

«إنه دخل عليه رجل يبيع الدقيق فقال: إياك والغشّ فإن من غَشَّ غُشَّ في ماله فإن لم يكن له مال غُشّ في أهله»[1].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام قال:

«إن البيع في الظلال غشّ وإن الغشّ لا يحلُّ»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لزينب العطّارة: إذا بعت فأحسني ولا تغشي، فإنه أتقى لله وأبقى للمال»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله السماحة من الرباح، قال ذلك لرجل يوصيه ومعه سلعة يبيعها»[4].

وبإسناده قال:

«مرّ أمير المؤمنين عليه السلام على جارية قد اشترت لحماً من قصاب وهي تقول: زدني، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: زدها فإنه أعظم للبركة»[5].

إذاً ينبغي على الإنسان أولاً: أن يعلم أنه لا يزيد مال في خيانة، كما أنه لا ينقص من صدقة. فالدرهم الواحد قد يبارك فيه حتى يكون

---

(١) الكافي: ج٥ ص١٦٠ باب الغش.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الكافي: ج٥ ص١٥١ رقم ٥.

(٤) الكافي: ج٥ ص١٥٢ رقم ٧.

(٥) المصدر السابق: رقم ٨.

سبباً لسعادة الإنسان في الدين والدنيا، وقد ينزع الله البركة منه حتى يكون سبباً لهلاك مالكه بحيث يتمنى الإفلاس منه.

ثانياً: لا بد أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا، وإن فوائد أموال الدنيا تنقضي بانقضاء العمر وتبقى مظالمها وأوزارها. فكيف يستجيز العاقل أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، والخير كلّه في سلامة الدين.

قال رسول الله ﷺ:

«لا يزال لا إله إلا الله يرفع عن الخلق سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على آخرتهم ـ وفي لفظ آخر ـ ما لم يبالوا ما نقص في دنياهم مع سلامة آخرتهم، فإذا فعلوا ذلك وقالوا: لا إله إلا الله قال الله تعالى: كذبتم لستم بها صادقين»[1].

وقال ﷺ:

«من قال: لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة، قيل: وما إخلاصها قال ﷺ: أن يتورّع عما حرّم الله سبحانه»[2].

فمن يعلم أن هذه الأمور قادمة في إيمانه الذي هو رأس ماله في تجارة الآخرة، لم يضيّع رأس ماله هذا المعد لعمر لا آخر له بسبب ربح ينتفع به لأيام معدودة. ولكون الغش حرام في البيوع والصنائع جميعاً لذا لا ينبغي أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لو عامله به غيره لما ارتضاه لنفسه بل ينبغي أن يحسن الصنعة ويحكمها ويبيّن عيبها إن كان فيها عيب.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب.

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير والأوسط.

الثالث: أن لا يبخس في الكيل:

على التاجر أن لا يكتم في المقدار وذلك بتعديل الميزان والكيل.

قال الله تعالى:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾[1].

ولا يتخلّص التاجر من هذا إلا بأن يرجح إذا أعطى وينقص إذا أخذ، إذ العدل الحقيقي قلّما يتصوّر. لذلك لما اشترى رسول الله ﷺ شيئاً قال للوزّان لما كان يزن ثمنه:

«زن وأرجح»[2].

وقال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾[3].

وبالجملة فإن تحريم التطفيف في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ليس لكون التطفيف أمراً مكيلاً، بل لكونه ترك للعدل والنصفة فيه، لذا فالتطفيف جار في كل الأعمال أيضاً.

فصاحب الميزان في خطر وكل مكلّف هو صاحب موازين في أفعاله وأقواله وخطواته، والويل له إن عدل عن العدل ومال عن الاستقامة، ولولا تعذر ذلك واستحالته لما ورد قوله تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾[4].

---

(١) سورة المطففين، الآيات: ١ ـ ٣.

(٢) أخرجه النسائي: ج٧ ص٢٨٤.

(٣) سورة الرحمن، الآيتان: ٨ ـ ٩.

(٤) سورة مريم، الآية: ٧١.

فلا ينفك عبد عن الميل عن الاستقامة إلا أن درجات الميل تتفاوت تفاوتاً عظيماً ولذلك تتفاوت مدّة مقامهم في النار إلى أن يحين وقت الخلاص. فنسأل الله تعالى أن يقرّبنا من الاستقامة والعدل، وبقدر الاستقامة على الصراط المستقيم يخف العبد يوم القيامة على الصراط. فكل من خلط بالطعام تراباً ثم كاله فهو من المطففين في الكيل، وكل قصاب وزن مع اللحم عظماً لم تجر العادة بمثله فهو من المطففين في الوزن وقس على ذلك سائر التقديرات...

فعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«لا يكون الوفاء حتى يرجّح»[1] وفي رواية أخرى «حتى يميل الميزان»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً:

«إنه قال له بعض أصحابه: رجل من نيّته الوفاء وهو إذا كال لا يُحسن أن يكيل، قال: فما يقول الذين حوله؟ قال: يقولون لا يوفي، قال: هذا لا ينبغي له أن يكيل»[3].

وعنه عليه السلام أنه قال:

«إنو الوفاء فإن أتى على يدك وقد نويت الوفاء كنت من أهل الوفاء، وإن نويت النقصان ثم أوفيت كنت من أهل النقصان»[4].

---

(١) الكافي: ج٥ ص١٦٠ رقم ٥.
(٢) الكافي: ج٥ ص١٥٩ رقم ١.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق: ج٣.

الرابع: أن يصدق في سعر الوقت ولا يخفي منه شيئاً:

قد نهى ﷺ عن تلقي الركبان[1] ونهى عن البخش[2]، أما تلقي الركبان فهو أن يستقبل الرفقة ويتلقى المتاع ويكذب في سعر البلد. فقد قال النبي ﷺ:

«لا تتلقوا الركبان»[3].

فعن أبي جعفر عليه السلام أنه قال:

«قال رسول الله ﷺ: لا يتلقّى أحدكم تجارة خارجاً من المصر، ولا يبيع حاضر لباد، والمسلمون يرزق الله جلّ وعزّ بعضهم من بعض»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«لا تلقِّ ولا تشتر ما تلقّى ولا تأكل منه»[5].

وعنه عليه السلام قال:

«لا تلقِّ فإن رسول الله ﷺ نهى عن التلقي، قلت: وما حدّ التلقي؟ قال: ما دون غدوة أو روحة، قلت: وكم الغدوة والروحة؟ قال: أربع فراسخ. قال ابن أبي عمير: وما فوق ذلك فليس بتلقّي»[6].

---

(١) التلقي: هو أن يستقبل الحضري البدوي قبل وصوله إلى البلد ويخبره بكساد ما معه كذباً ليشتري منه سلعته بأقل من ثمن المثل.

(٢) البخش: هو أن يزيد الرجل في ثمن السلعة ليغترّ به الراغب فيشتريه، وأصله الإغراء والتحريض.

(٣) البخاري: ج٣ ص٨٨.

(٤) الكافي: ج٥ ص١٦٨.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق ص١٦٩. الروحة: من الرواح، أي قدر ما يقطع المسافر بعد العصر وهو أربعة فراسخ تقريباً.

فهذه المناهي تدل على أنه لا يجوز أن يلبّس على البائع والمشتري سعر الوقت، ويكتم عنه أمراً لو علمه لما أقدم على العقد. ففعل هذا من الغش الحرام المضاد للنصح الواجب.

الإحسان في المعاملة

لقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان معاً. أما العدل فهو سبب النجاة فقط، وهو يجري في التجارة مجرى سلامة رأس المال. أما الإحسان فهو سبب الفوز ونيل السعادة، وهو يجري في التجارة مجرى الربح. وكما لا يعدّ من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله من العقلاء، كذلك في معاملات الآخرة أيضاً. فلا ينبغي للمتديّن أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان وقد قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[1] وقال عز اسمه في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[2] وقال عز وجل: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3] ونعني بالإحسان فعل ما ينتفع به المعامل وهو غير واجب عليه ولكنه تفضّل منه. فالواجب يدخل في باب العدل وترك الظلم، أما رتبة الإحسان فتنال بواحدة من ستة أمور:

الأول: في المغابنة:

فينبغي أن لا يغابن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة. أما أصل الغبن فمأذون فيه لأن البيع لأجل الربح، ولا يمكن ذلك إلا بغبن ما،

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

ولكن على البائع أن يراعي فيه التقريب، لأن بذل المشتري زيادة عن الربح المعتاد إما لشدّة رغبته أو لشدة حاجته إلى الغرض الذي ينوي شراءه، فينبغي على البائع أن يمتنع عن قبوله، وهذا من الإحسان.

فعن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«غبن المسترسل سحت»[1].

وفي رواية أخرى:

«غبن المؤمن حرام»[2].

وعن الإمام الصادقعليه السلام أيضاً أنه قال:

«ربح المؤمن على المؤمن رباً إلا أن يشتري بأكثر من مائة درهم فاربح عليه قوت يومك أو يشتريه للتجارة. فاربحوا عليهم وارفقوا بهم»[3].

وعنهعليه السلام أيضاً قال:

«إذا قال الرجل للرجل: هلمَّ أحسن بيعك حرم عليه الربح»[4].

وعن ميسّر قال:

«قلت لأبي جعفرعليه السلام: إن عامّة من يأتيني إخواني فحُدَّ لي من معاملتهم ما لا أجوزه إلى غيره، فقالعليه السلام: إن ولّيت أخاك فحسن وإلا فبع بيع البصير المداقّ»[5].

---

(١) الكافي: ج٥ ص١٥٣ رقم ١٤.
(٢) المصدر السابق: ح١٥.
(٣) المصدر السابق ص١٥٤.
(٤) المصدر السابق ص١٥٢ رقم ٩.
(٥) المصدر السابق ج٥ ص١٥٣ رقم ١٩.

الثاني: تحمل الغبن:

فالمشتري إن اشترى طعاما من ضعيف أو شيئاً من فقير فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل، فيكون به محسناً وداخلاً في قول النبي ﷺ:

«رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»[1].

أما إذا اشترى من تاجر غني يطلب الربح زيادة عن حاجته، فالغبن منه ليس محموداً بل هو تضييع للمال من غير أجر ولا حمد. وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«المغبون لا محمود ولا مأجور»[2].

وكان الإمام الحسن والحسين عليهما السلام وغيرهم من خيار السلف يستقصون في الشراء ويهبون مع ذلك الجزيل من المال فقيل لبعضهم: تستقصي في شرائك اليسير ثم تهب الكثير ولا تبالي؟ فقال إن الواهب يعطي فضله والمغبون يغبن عقله.

الثالث: المسامحة والإمهال:

فالأمر الثالث هو في استيفاء الثمن وسائر الديون والإحسان فيها بالمسامحة مرّة وحط البعض منها، وبالإمهال مرة والتأخير أخرى. وهذه من الأمور المستحبة التي حثّ عليها الدين. قال النبي ﷺ:

«من أنظر معسراً أو ترك أظلّه الله في ظل عرشه يوم لا ظلّ إلا ظلّه»[3].

---

(١) أخرجه البخاري: ج٣ ص٧١.
(٢) الكافي: ج٤ ص٤٩٦ رقم ٣.
(٣) صحيح مسلم: ج٤ ص٣٢.

وقال النبي ﷺ:

«إن رجلاً كان مسرفاً على نفسه حوسب فلم توجد له حسنة، فقيل له: هل عملت خيراً قط؟ فقال: لا إلا أني كنت رجلاً أداين الناس فأقول لفتياني: سامحوا الموسرين وأنظروا المعسرين - وفي لفظ آخر - تجاوزوا عن المعسر، فقال الله تعالى فنحن أحق بذلك منك فتجاوز الله عنه وغفر له»[1].

وقال ﷺ:

«من أقرض ديناراً إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله، فإذا جاء الأجل فأنظره بعده فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة»[2].

وقال ﷺ:

«رأيت على باب الجنّة مكتوباً الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر»[3]، قيل في معناه: إن الصدقة تقع في يد المحتاج وغير المحتاج ولا يتحمل ذلّ الاستقراض إلا المحتاج.

وعن حمّاد بن عثمان قال:

دخل رجل على أبي عبد الله عليه السلام فشكا إليه رجلاً من أصحابه فلم يلبث أن جاء المشكوُّ فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ما لفلان يشكوك؟ فقال له: يشكوني إن

(١) البخاري: ج٣ ص٧٢.

(٢) أخرجه ابن ماجة: رقم ٢٤١٨.

(٣) الكافي: ج٤ ص٣٣.

استقصيت منه حقي ـ أي طلبت منه ـ قال: فجلس أبو عبد الله عليه السلام مغضباً ثم قال: كأنك إذا استقصيت حقك لم تسىء أرأيت ما حكى الله عز وجل فقال: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ أترى أنهم خافوا الله عز وجل أن يجور عليهم، لا والله ما خافوا إلا الاستقصاء، فسماه الله عز وجل سوء الحساب، فمن استقصى فقد أساء»[1].

وفيه أيضاً:

«قال له رجل: لي على بعض الحسنيين مالاً وقد أعياني أخذه وقد جرى بيني وبينه كلام ولا آمن أن يجري بيني وبينه في ذلك ما أغتمُّ له، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ليس هذا طريق التقاضي، ولكن إذا آتيته فأطل الجلوس والزم السكوت، قال الرجل: فما فعلت ذلك إلا يسيراً حتى أخذت مالي»[2].

الرابع: توفية الدين:

ومن الإحسان حسن قضاء الدين، وذلك بأن يمشي المدين إلى صاحب الحق فلا يكلّفه أن يجيء إليه ويتقاضاه. فقد قال النبي صلى الله عليه وآله:

«خيركم أحسنكم قضاء»[3].

فإذا قدر المدين على قضاء الدين فليبادر إليه ولو قبل وقته، ويسلّم أجود مما شرط عليه وأحسن، وإن عجز فلينو قضاءه متى قدر. فقد قال النبي صلى الله عليه وآله:

---

(١) الكافي: ج٥ ص١٠٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) البخاري: ج٣ ص١٤٥.

«من أدان ديناً وهو ينوي قضاءه وكّل به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه»[1].

وإذا كلّمه صاحب الحق بكلام خشن فليتحمله وليقابله باللطف اقتداء برسول الله ﷺ إذ جاءه صاحب دين عند حلول الأجل ولم يكن قد اتفق قضاؤه فجعل الرجل يشدّد الكلام على رسول الله ﷺ، فهمّ به أصحابه فقال ﷺ:

«دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً»[2].

ومهما دار الكلام بين المقرض والمستقرض فالإحسان أن يكون الميل إلى من عليه الدين، فإن المقرض يقرض عن غنى والمستقرض يستقرض عن حاجة. وكذا ينبغي أن تكون الإعانة للمشتري أكثر، لأن البائع راغب عن السلعة يبغي ترويجها وربحها، والمشتري محتاج إليها.

فهذا هو الإحسان إلا أن يتعدى من عليه الدين حدّه، فعند ذلك نصرته تكمن في منعه عن تعدّيه وإعانة صاحبه. إذ قال النبي ﷺ:

«انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقيل: كيف ينصر ظالماً؟ فقال ﷺ: منعك إياه من الظلم نصرة له»[3].

الخامس: قبول الإقالة:

ومن الإحسان أن يقبل من استقاله فإنه لا يستقيل إلا متندّم مستضرٌ بالبيع، فلا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبباً في استضرار أخيه المسلم. قال النبي ﷺ:

---

(١) النسائي: ج٧ ص٣١٦.

(٢) البخاري: ج٣ ص١٤٧.

(٣) أخرجه الدارمي: ج٢ ص٣١١.

«من أقال نادماً صفقته أقاله الله عثرته يوم القيامة»[1].

وفي الخبر:

«إن رسول الله ﷺ لم يأذن لحكيم بن حزام في التجارة حتى ضمن له إقالة النادم وإنظار المعسر وأخذ الحق وافياً أو غير وافٍ»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«أيّما عبد أقال مسلماً في بيع أقال الله عثرته يوم القيامة»[3].

السادس: أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة[4]:

فمن الإحسان أيضاً أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة، فيعزم على أن لا يطالبهم إن لم يظهر لهم ميسرة. والفقير على نوعين؛ فقير يرى الطعام والفاكهة فيشتهيه فيقول: أحتاج إلى خمسة أرطال من هذا مثلاً وليس معي ثمن، فيقول المالك: خذه واقض ثمنه عند الميسرة ويسجل ما أخذه في دفتر للحساب وهذا لا يعد من الإحسان والخيار، بل إنما عد من الخيار من لم يثبت اسم الفقير في الدفتر أصلاً ولا يجعله ديناً بل يقول: خذ ما تريد فإن يسّر الله لك فاقض وإلا فأنت في حلّ منه وسعة.

وبالجملة فالتجارة محك الرجال وبها يمتحن دين الرجل وورعه ولذلك قيل:

(١) ابن داود: ج٢ ص٢٤٦.
(٢) الكافي: ج٥ ص١٥١ رقم ٤.
(٣) الكافي: ج٥ ص١٥٣ رقم ١٦.
(٤) النسيئة: التأجيل، والتأخير.

لا يغرّنك من المرء قميص رقعه	أو إزار فوق كعب الساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه أثر قد قلعه	ولدى الدرهم فانظر غيّه أو ورعه

وقد قيل أيضاً: أنه إذا أثنى على رجل جيرانه في الحضر وأصحابه في السفر ومعاملوه في الأسواق؛ فلا تسألوا عن صلاحه.

ما ينبغي على المتكسّب مراعاته لضمان حسن العاقبة

لا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده فيكون عمره ضائعاً وصفقته خاسرة، وما يفوته من الربح في الآخرة لا يفي به ما يناله في الدنيا فيكون ممن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، بل ينبغي على العاقل أن يشفق على نفسه، وشفقته على نفسه تكمن بالحفاظ على رأس ماله، ورأس ماله هو دينه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي لا تنس في الدنيا نصيبك منها في الآخرة فإنها مزرعة الآخرة، وفيها تكتسب الحسنات والسيئات. وشفقة التاجر على دينه إنما تتمّ بمراعاة سبعة أمور:

الأول: حسن النية والعقيدة في ابتداء التجارة:

فعلى التاجر أن ينوي بالتجارة الاستعفاف عن السؤال وكفّ الطمع عن الناس، استغناءً عنهم بالحلال، واستعانة على الدين بما يكسبه، وقياماً بكفاية العيال؛ ليكون بذلك من جملة المجاهدين.

وعليه أن ينو النصح للمسلمين وأن يحب لسائر الناس ما يحب لنفسه. وعليه أن ينو اتباع طريق العدل والإحسان في معاملته كما ذكرنا

سابقاً. وعليه أن ينو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل ما يراه في السوق.

وإذا أضمر هذه العقائد والنيات كان عاملاً في طريق الآخرة. فإن استفاد مالاً فهو مزيد له وإن خسر في الدنيا ربح في الآخرة.

الثاني: أن يقصد القيام في صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات:

فإن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعايش وهلك الخلق. فانتظام أمر الكلّ متوقف على تكفّل كل فريق بعمل ما يناسبه. أما لو أقبل الناس كلهم على صنعة واحدة لتعطلت باقي المهن، ولهلك الخلق. وعلى هذا حمل بعض الناس قول النبيﷺ: «اختلاف أمتي رحمة»[1]، أي اختلاف هممهم في الصناعات والحرف.

ومن الصناعات ما هو مهمّ ومنها ما يستغنى عنه لرجوعها إلى طلب التنعّم والتزيّن في الدنيا. فعلى الإنسان أن يشتغل بضاعة مهمة ليكون في قيامه بها كافياً عن المسلمين أمراً مهماً في الدين، وعليه أن يتجنّب صناعة النقش والصياغة وتشييد البنيان بالجص وغير ذلك مما تزخرف به الدنيا. فإن ذلك مكروه عند ذوي الدين.

أما عمل الملاهي والآلات التي يحرم استعمالها فاجتنابها من قبيل ترك الظلم. ومن جملة ذلك خياطة الخياط الحرير للرجل، وصياغة الصايغ مراكب الذهب أو خواتيم الذهب له أيضاً، فكل ذلك من المعاصي والأجرة المأخوذة عليه حرام. كما أن بيع الطعام والأكفان مكروه لأنه يوجب انتظار موت الناس وحاجتهم لغلاء السعر. ويكره أن يكون جزاراً لما فيه من قساوة القلب، أو أن يكون حجّاماً أو كناساً لما

(١) أخرجه نصر المقدسي في الحجة، والبيهقي في رسالة الأشعرية.

فيه من مخامرة النجاسة. وكرهوا الصرف لأن الاحتراز فيه عن دقائق الربا عسير، وأنه قلما يتمّ للصيرفي ربح إلا باعتماد جهالة معامله بدقائق النقد. وعمل النخّاس مكروه أيضاً معلّلاً بأن رسول الله ﷺ قال:

«شرّ الناس من باع الناس»(١).

أما صنعة التعليم فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قيل له:

«إن هؤلاء يقولون: إن كسب المعلّم سمت، فقال: كذبوا أعداء الله إنما أرادوا أن لا يعلّموا القرآن ولو أنّ المعلّم أعطاه رجل دية ولده لكان للمعلم مباحاً»(٢).

وعن حسان المعلّم قال:

«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن التعليم فقال: لا تأخذ على التعليم أجراً، قلت: الشعر والرسائل وما أشبه ذلك أشارط عليه؟ قال: نعم بعد أن يكون الصبيان عندك سواء في التعليم لا تفضّل بعضهم على بعض»(٣).

وعنه عليه السلام قال:

«المعلّم لا يعلّم بالأجر ويقبل الهدية إذا أُهدي إليه»(٤).

وسئل عليه السلام عن بيع المصاحف وشرائها، فقال:

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٢ ص٤٣١.
(٢) الكافي: ج٥ ص١٢١.
(٣) المصدر السابق.
(٤) التهذيب: ج٢ ص١١٠.

«لا تشتري كتاب الله ولكن اشتر الحديد[1] والجلود والدفتر، وقل أشتري هذا منك بكذا وكذا»[2].

وفي رواية:

«أشتريه أحبّ إليّ من أن أبيعه»[3].

وسئل عن رجل يعشر المصاحف بالذهب فقال:

«لا يصلح، فقال: إنها معيشتي، فقال: إنك إن تركته جعل الله لك مخرجاً»[4].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«المغنية ملعونة، ملعون من أكل من كسبها»[5] وهو قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[6].

وفي رواية أخرى:

«المغنية التي تزفّ العرائس لا بأس بكسبها»[7].

وعنه عليه السلام قال:

«لا بأس بأجر النايحة التي تنوح على الميّت»[8].

---

(١) الحديد: هو الذي يعلق على جلد المصحف ليغلق ويقفل.
(٢) الكافي: ج٥ ص١٢١ رقم ٢.
(٣) المصدر السابق: رقم ٣.
(٤) التهذيب: ج٢ ص١١٠.
(٥) الكافي: ج٥ ص١٢٠ رقم ٦.
(٦) سورة لقمان، الآية: ٥.
(٧) الكافي: ج٥ ص١٢٠ رقم ٢.
(٨) التهذيب: ج٢ ص١٠٨.

وعنه عليه السلام:

«إنه نهى عن أجر القارىء الذي لا يقرأ إلا بأجر مشروط»[1].

وعن أبي جعفر عليه السلام:

«إنه سئل عن كسب الحجّام، فقال: لا بأس به إذا لم يشارط»[2].

وفي رواية أخرى:

«ولا بأس عليك أن تشارطه وتماسكه وإنما يكره له ولا بأس عليك»[3].

الثالث: أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة:

وأسواق الآخرة هي المساجد، قال الله تعالى:

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[4].

وقال عز وجل:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[5].

لذا ينبغي على التاجر أن يجعل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته، فيواظب على دخول المسجد وعلى الأذكار والأوراد. وكان الصالحون يجعلون أول النهار وآخره للآخرة والوسط للتجارة. وفي الخبر:

---

(١) التهذيب: ج٢ ص١١٢.

(٢) الكافي: ج٥ ص١١٥.

(٣) الكافي: ج٥ ص١١٦ رقم ٤.

(٤) سورة النور، الآية: ٣٣.

(٥) سورة النور، الآية: ٣٣.

«إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد في أول النهار وفي آخره فإذا وُجد في أوّل الصحيفة وآخرها ذكر وخير كفّر الله تعالى عنه ما بينهما من سيّىء الأعمال»[1].

فإذا سمع الأذان ينبغي أن لا يعرّج على شغل بل يدع كل ما كان فيه حتى لا تفوته الصلاة في أول وقتها. فما يفوته من فضيلة التكبيرة مع الإمام في أول الوقت لا يوازيه الدنيا بما فيها. وقد جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ «إنهم التجار الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله؛ إذا دخل مواقيت الصلاة أدّوا إلى الله حقّه فيها»[2].

الرابع: أن يلازم ذكر الله في السوق:

فعلى التاجر أن لا يقتصر على ملازمة المسجد والصلاة في أول وقتها، بل عليه أن يلازم ذكر الله في السوق أيضاً، ويشتغل بالتسبيح والتهليل.

عن حنان عن أبيه قال:

«قال لي أبو جعفر عليه السلام: يا أبا الفضل أما لك مكان تقعد فيه تعامل الناس؟ قلت: بلى، قال: ما من رجل مؤمن يروح ويغدو إلى مجلسه وسوقه فيقول حين يضع رجليه في السوق: «اللهم إني أسألك من خيرها وخير أهلها»، إلا وكّل الله عزّ وجلّ به من يحفظه ويحفظ

---

(١) أخرجه أبو يعلى من حديث أنس.

(٢) الكافي: ج٥ ص١٥٤.

عليه حتى يرجع إلى منزله فيقول له: قد أجرتك من شرّها وشرّ أهلها يومك هذا بإذن الله جلّ وعزّ، وقد رُزقت خيرها وخير أهلها في يومك هذا، فإذا جلس مجلسه قال حين يجلس:

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم إني أسألك من فضلك حلالاً طيباً وأعوذ بك من أن أَظلِم أو أُظلَم، وأعوذ بك من صفقة خاسرة ويمين كاذبة.

فإذا قال ذلك قال له الملك الموكّل به: أبشر فما في سوقك اليوم أحدٌ أوفر منك حظاً، قد تعجّلت الحسنات ومُحيت عنك السيئات وسيأتيك ما قسّم الله لك موفّراً حلالاً طيباً مباركاً فيه»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إذا اشتريت شيئاً من متاع أو غيره فكبّر ثم قلّ: «اللهم إني اشتريته ألتمس فيه من فضلك فصلّ على محمد وآل محمد واجعل لي فضلاً، اللهم إني اشتريته التمس فيه من رزقك فاجعل لي فيه رزقاً». ثم أعد كل واحدة ثلاث مرات»[٢].

الخامس: أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة:

وذلك بأن يكون أوّل داخل وآخر خارج، وبأن يركب البحر في التجارة فهما مكروهان.

---

(١) الكافي: ج٥ ص١٥٦.

(٢) المصدر السابق.

ففي الخبر:

«شرّ البقاع الأسواق، وشرّ أهلها أوّلهم دخولاً وآخرهم خروجاً»[1].

وورد أيضاً:

«لا يركب البحر إلا لحجّ أو عمرة أو غزوة»[2].

وتمام هذا الاحتراز أن يراقب وقت كفايته، فإذا حصل كفاية وقته انصرف واشتغل بتجارة الآخرة. فعن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال:

«من بات ساهراً في كسب ولم يعط العين حظّها من النوم فكسبه ذلك حرام»[3].

وعنهعليه السلام قال:

«الصنّاع إذا سهروا الليل كله فهو سحت»[4].

وعنهعليه السلام قال:

«من استقلّ قليل الرزق حرم الكثير».

وفي مصباح الشريعة عن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«إنما عطف الله تعالى لعباده حيث أذن لهم في الكسب والحركات في باب العيش ما لم يتعدوا حدوده ولا يتركوا من فرائضه وسنن نبيّهصلى الله عليه وآله في جميع حركاتهم ولا يعدلوا عن حجّة التوكل ولا يقفوا في ميدان

---

(١) الحاكم في المستدرك: ج٢ ص٨.

(٢) سنن أبي داود: ج٢ ص٦.

(٣) التهذيب: ج٢ ص١١١.

(٤) الكافي: ج٥ ص١٢٧.

الحرص وأما إذا أبوا ذلك وارتبطوا بخلاف ما حدّ لهم كانوا من الهالكين الذين ليس معهم في الحاصل إلا الدعاوى الكاذبة، وكل مكتسب لا يكون متوكلاً فلا يستجلب من كسبه إلى نفسه إلا حراماً وشبهة وعلامته أن يؤثر ما يحصل من كسبه ويجوع وينفق في سبيل الدين ولا يمسك والمأذون بالكسب من كان بنفسه مكتسباً وبقلبه متوكلاً، وإن كثر المال عنده قام فيه كالأمين عالماً بأن كون ذلك وفوته سواء وإن أمسك أمسك لله وإن أنفق أنفق فيما أمره الله عز وجل ويكون منعه وعطاؤه في الله»[١].

السادس: أن يتقي مواضع الشبهة ومظان الريب:

على التاجر السالك طريق الآخرة أن لا يقتصر على اجتناب الحرام، بل عليه أن يتقي مواضع الشبهة ومظان الريب أيضاً. فلا ينظر إلى الفتاوى بل يستفتي قلبه فما وجد فيه حزازة[٢] اجتنبه. وإذا حُمِل إليه سلعة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرفها وإلا أكل الشبهة.

وعلى التاجر أن ينظر إلى من يعامله؛ فكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يعامله.

ففي الخبر:

«من دعا لظالم بالبقاء فقد أحبّ أن يعصى الله»[٣].

---

(١) مصباح الشريعة: الباب السابع والثمانون.

(٢) حزازة: وجع في القلب من غيظ ونحوه.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت.

السابع:

على التاجر أيضاً أن يراقب جميع مجاري معاملته مع كل واحد من معامليه. فينبغي أن يراقب جيداً ويحاسب، ليعد الجواب ليوم الحساب والعقاب في كل ما قاله وفعله.

إذ يقال: إن التاجر يوقف يوم القيامة مع كل واحد كان قد باعه شيئاً، ويحاسب عن كل واحد محاسبة على عدد من عامله.

فهذا ما يجب على المكتسب في معاملته من العدل والإحسان والشفقة على الدين. فإن اقتصر على العدل كان من الصالحين، وإن أضاف إليه الإحسان كان من المقربين وإن راعى مع ذلك الوظائف السبعة التي ذكرناها في هذا الفصل كان من الصديقين.

الحلال والحرام

مقدمة

قال النبي ﷺ:

«طلب الحلال فريضة على كل مسلم»[1].

وهذه الفريضة من بين سائر الفرائض أعصاها على العقول فهماً وأثقلها على الجوارح فعلاً ولذلك اندرست بالكامل علماً وعملاً، وصار غموض علمها سبباً لاندراس عملها. إذ ظن الجهال أن الحلال مفقود والسبيل إليه مسدود وأنه لم يبق من الطيبات إلا الماء الفرات والحشيش النبات وما عداه فقد أخبثته الأيدي العادية وأفسدته المعاملات الفاسدة. وإذا تعذّرت القناعة بالحشيش من النبات لم يبق وجه سوى الاتساع في المحرمات، فرفضوا هذا القطب من الدين أصلاً ولم يدركوا بين الأموال فرقاً وفصلاً، ولكن هيهات هيهات فالحلال بيّنٌ والحرام بيّنٌ أيضاً ويوجد بينهما أمور مشتبهات. ولا تزال هذه الثلاثة (الحلال والحرام والمشتبهات) مقترنات كيفما تقلّبت الحالات.

ولما كانت هذه بدعة عمّ في الدين ضررها واستطار في الخلق شررها؛ وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة.

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس، مجمع الزوائد: ج١٥ ص٢٩١.

فضيلة الحلال ومذمّة الحرام

■ في الآيات الكريمة:

قال الله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[2].

وقال عز اسمه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾[3].

وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾[4].

ثم قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[5].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾[6].

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[7].

إذاً فقد جعل الله تعالى أكل الربا في أول الأمر سبباً لمحاربة الله وفي آخره تعرضاً للنار.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٧٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٧٩.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٧٩.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

والآيات الواردة في الحلال والحرام لا تحصى.

■ في الأخبار الشريفة:

قال النبي ﷺ:

«من سعى على عياله من حلّه فهو كالمجاهد في سبيل الله ومن طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء»[1].

وقال النبي ﷺ:

«إن لله ملكاً على البيت المقدس ينادي كل ليلة؛ من أكل حراماً لم يقبل منه صرف ولا عدل». قيل: إن الصرف هي النافلة، والعدل الفريضة.

وقال النبي ﷺ:

«من اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم حرام لم يقبل الله تعالى صلاته ما دام عليه منه شيء»[2].

وقال ﷺ:

«من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار»[3].

وقال ﷺ:

«كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به»[4].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط.

(٢) أخرجه أحمد.

(٣) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس.

(٤) مجمع الزوائد: ج١٠ ص٢٩١.

وقال ﷺ:

«من أصاب مالاً من مأثم فوصل به رحماً أو تصدّق به أو أنفقه في سبيل الله جمع الله ذلك جميعاً ثم قذفه في النار»(١).

وقال ﷺ:

«خير دينكم الورع»(٢).

وقال ﷺ:

«من لقي الله سبحانه ورعاً أعطاه الله ثواب الإسلام كله».

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«قال رسول الله ﷺ: العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال»(٣).

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«اقرأوا من لقيتم من أصحابكم السلام وقولوا لهم: فلان ابن فلان يقرئكم السلام، وقولوا لهم: عليكم بتقوى الله عز وجل وما ينال به ما عند الله، إني والله ما آمركم إلا بما نأمر به أنفسنا، فعليكم بالجد والاجتهاد وإذا صلّيتم الصبح وانصرفتم فبكّروا في طلب الرزق واطلبوا الحلال، فإن الله عز وجل سيرزقكم ويعينكم عليه»(٤).

---

(١) الترغيب: ج٢ ص٥٤٨.

(٢) أخرجه أبو الشيخ في الثواب، كما في الجامع الصغير.

(٣) الكافي: ج٥ ص٧٨ رقم ٦.

(٤) المصدر السابق: رقم ٨.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن أخوف ما أخاف على أمتي من بعدي هذه المكاسب الحرام والشهوة الخفية والربا»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إذا اكتسب الرجل مالاً من غير حلّه ثم حجّ فلبّى؛ نودي لا لبّيك ولا سعديك، وإن كان من حلّه نودي لبّيك وسعديك»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«كسب الحرام يبين في الذرّية»[3].

وعن أبي الحسن عليه السلام:

«إنّ الحرام لا ينمى وإن نمى لم يبارك فيه، وما أنفقه لم يوجر عليه وما خلّفه كان زاده إلى النار»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

تشوّفت[5] الدنيا لقوم حلالاً محضاً فلم يريدوها فدرجوا[6]، ثم تشوّفت لقوم حلالاً وشبهة فقالوا: لا حاجة لنا في الشبهة وتوسعوا في الحلال، ثم تشوّفت

---

(١) الكافي: ج٥ ص١٢٤ رقم ١.
(٢) المصدر السابق: رقم ٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) الكافي: ج٥ ص١٢٥ رقم ٧.
(٥) تشوفت الجارية: تزيّنت، وتشوفت إلى الشيء: تطلعت.
(٦) درج الرجل: مشى، مضى لسبيله.

لقوم حراماً وشبهة فقالوا: لا حاجة لنا في الحرام وتوسعوا في الشبهة، ثم تشوّفت لقوم حراماً محضاً فطلبوها فلم يجدوها، والمؤمن في الدنيا يأكل بمنزلة المضطرّ»[1].

وعن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال:

«قلت لأبي الحسن عليه السلام: جعلت فداك ادع الله جلّ وعزّ أن يرزقني الحلال، فقال: أتدري ما الحلال؟ فقلت: جعلت فداك أما الذي عندنا فالكسب الطيّب، فقال: كان علي بن الحسين صلوات الله عليهما يقول: الحلال قوت المصطفين ولكن قل: أسألك من رزقك الواسع»[2].

(١) الكافي: ج٥ ص١٢٥ رقم ٦.

(٢) الكافي: ج٥ ص٨٩ رقم ١.

أصناف الحلال ومداخله

إن المال إنما يحرّم؛ إما لمعنى في عينه أو لخلل في جهة اكتسابه.

القسم الأول: ما يحرم لصفة في عينه: كالخمر والخنزير وغيرهما:

وتفصيله أن الأعيان المأكولة على وجه الأرض لا تعدوا ثلاثة أقسام فإنها:

١ ـ إما أن تكون من المعادن: كالملح والطين وغيرهما.

٢ ـ أو من النبات.

٣ ـ أو من الحيوان.

١ ـ أما المعادن فهي أجزاء الأرض وجميع ما يخرج منها؛ فلا يحرم أكله إلا من حيث يضرُّ بالأكل، وفي بعضها ما يجري مجرى السمّ. فالخبز لو كان مضراً يحرم أكله، أما الطين فيحرم أكله كما عن الإمام الصادق عليه السلام إلا طين قبر الإمام الحسين عليه السلام حيث قال عليه السلام:

«الطين حرام أكله كلحم الخنزير ومن أكله ثم مات فيه لم أصلّ عليه، إلا طين القبر فإن فيه شفاء من كل

داء، ومن أكله بشهوة لم يكن له فيه شفاء»[1].

٢ ـ أما النبات فلا يحرم منه إلا ما يزيل العقل أو يزيل الحياة أو يزيل الصحة. مزيل العقل كالخمر وسائر المسكرات، ومزيل الحياة كالسموم، ومزيل الصحة كالأدوية في غير وقتها. والسبب في حرمة هذه الأصناف الثلاثة هو الضرر إلا الخمر والمسكرات فإنه حتى القدر الذي لا يسكر منها حرام أيضاً مع قلّته لعينه وصفته.

أما السم فإذا خرج عن كونه مضراً لقلته أو لعجنه بغيره فلا يحرم.

٣ ـ أما الحيوانات فتنقسم إلى ما يؤكل وإلى ما لا يؤكل. وما يحلّ أكله فإنما يحلّ إذا ذبح ذبحاً شرعياً وروعي فيه شروط الذابح والآلة والذّبح. أما ما لم يذبح ذبحاً شرعياً أو مات دون ذبح فهو حرام. ولا يحل إلا ميتتان السمك والجراد بشرط خروج السمك من الماء حيًّا وأخذ الجراد حيّاً. وكل ما ليس له نفس سائلة فلا سبب في تحريمها إلا الاستقذار.

والحيوانات المأكولة إذا ذبحت بشرط الشرع فلا يحلّ جميع أجزائها بل يحرم منها الدم والرفث، وكل ما يقضى بنجاسته منها.

القسم الثاني: ما يحرم لخلل في جهة إثبات اليد عليه وهي ستة أقسام:

الأول: ما لا يؤخذ من مالك؛ كنيل المعادن وإحياء الموات والاصطياد والاحتطاب والاستسقاء من الأنهار والاحتشاش، فهذا كله حلال بشرط أن لا يكون المأخوذ مختصاً بذي حرمة من الآدميين، فإذا انفكّ عن الاختصاصات ملكه آخذه.

(١) الكافي: ج٦ ص٢٦٥.

الثاني: المأخوذ قهراً ممن لا حرمة له؛ وهو الفيء والغنيمة وسائر أموال الكفار المحاربين. وهذا حلال للمسلمين إذا أخرجوا منها الخمس وقسموها بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد.

الثالث: ما يؤخذ قهراً عن استحقاق عند امتناع ورفض من وجب عليه؛ فيؤخذ دون رضاه وذلك حلال إذا تم سبب الاستحقاق وتمّ وصف المستحقّ واقتصر في أخذه على القدر المستحقّ.

الرابع: ما يؤخذ تراضيا بمعاوضة؛ وهذا حلال أيضاً إذا روعي فيه شروط العوضين والعاقدين واللفظين أعني الإيجاب والقبول، مع ما تعبّد به الشرع من اجتناب الشروط المفسدة.

الخامس: ما يؤخذ بالرضا من غير عوض وهو حلال إذا روعي فيه شروط المعقود عليه والعاقدين والعقد ولم يؤدّ إلى ضرر بوارث أو غيره.

السادس: ما يحصل بغير اختيار كالميراث وهو حلال إذا كان المورّث قد اكتسب المال من وجه حلال، وكان ذلك أيضاً بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا والفرائض.

فهذه مجامع مداخل الحلال، ليعلم المريد أنه لا يستغني عن علم هذه الأمور، فكل ما يأكله من جهة من هذه الجهات ينبغي أن يستفتي فيه أهل العلم ولا يقدم عليه بالجهل، فإنه كما يقال للعالم: لم خالفت علمك؟ يقال للجاهل أيضاً: لم لازمت جهلك ولم تتعلم بعد أن عرفت وقيل لك:

«طلب العلم فريضة على كل مسلم».

درجات الحلال والحرام

إن الحرام كلّه خبيث ولكن بعضه أخبث من بعض، والحلال كله طيّب ولكن بعضه أطيب من بعض. فكما أن الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة فيقول: بعضها حارٌ في الدرجة الأولى كالسكر، وبعضها في الثانية كالفانيذ (النبيذ)، وبعضها في الثالثة كالدبس، وبعضها في الرابعة كالعسل. فكذلك الحرام بعضه خبيث في الدرجة الأولى وبعضه في الثانية أو الثالثة أو الرابعة، وكذلك الحلال تتفاوت درجات صفائه وطيبه.

ولنقتد بأهل الطب في الاصطلاح على أربع درجات تقريباً وإن كان التحقيق لا يوجب هذا الحصر، إذ يتطرّق إلى كل درجة من الدرجات أيضاً تفاوت لا حصر له، فنقول إن الورع عن الحرام على أربع درجات:

الأولى: ورع العدول:

وهو الذي يؤدي اقتحامه إلى الفسق، وسقوط العدالة وثبوت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه، وهو الورع عن كل ما تحرّمه فتاوى الفقهاء.

الثانية: ورع الصالحين:

وهو الامتناع عما يتطرّق إليه احتمال التحريم، ولكن المفتي

يرخّص ويجيز تناوله بناء على الظاهر. ولكنه في الغالب من مواقع الشبهة لذا سمي التحرّج عن ذلك ورع الصالحين وهو في الدرجة الثانية.

الثالثة: ورع المتقين:

وهو ما لم تحرمه فتوى ولا شبهة في حلّه، ولكن يخاف منه أن يؤدي إلى محرّم، وهذه المرتبة من الورع تعني ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس.

الرابعة: ورع الصدّيقين:

وهو ما لا بأس به أصلاً ولا يخاف منه أن يؤدي إلى ما به بأس؛ ولكنه يُتناول لغير الله وغير نيّة التقوّي به على عبادة الله، أو من باب إمكانية أن تتطرق إلى أسبابه المسهّلة له كراهية أو معصية، لذا كان الامتناع منه ورع الصديقين. فهذه درجات الحلال بشكل مجمل وعام.

وأما الحرام الذي ذكرناه في الدرجة الأولى وهو الذي يدخل المتورّع عنه في العدالة ويطرح عنه سمة الفسق؛ فهو أيضاً على درجات في الخبث.

ـ فالمأخوذ بعقد فاسد حرام ولكن ليس في درجة المغصوب على سبيل القهر، بل إن المغصوب أشد وأغلظ، إذ فيه ترك التشرُّع في الاكتساب وإيذاء الغير، وليس في العقد الفاسد إيذاء للغير وإنما فيه ترك طريق التعبّد فقط.

ـ ثم إن ترك طريق التعبّد بالفاسد بغير الربا أهون من تركه بالربا. فهذا التفاوت يدرك من خلال تشديد الشرع ووعيده وتأكيده في بعض المناهي.

ـ بل المأخوذ ظلماً من فقير أو صالح أو من يتيم أخبث وأشد من

المأخوذ من قويّ أو غنيّ أو فاسق، لأن درجات الإيذاء تختلف باختلاف درجات المؤذي.

فهذه دقائق في تفاصيل الخبائث لا ينبغي أن يُذهل عنها، ولولا اختلاف درجات العصاة لما اختلفت درجات النار. وإذا عرفت مثارات التقبيح والتغليظ فلا حاجة إلى حصرها في درجات ثلاث أو أربع فإن ذلك جار مجرى التحكم والتشهي، وهو طلب حصر فيما لا حصر له.

شواهد على درجات الورع

أما الدرجة الأولى: وهي ورع العدول، فكل ما اقتضت الفتوى تحريمه فهو الحرام المطلق الذي يُنسب مقتحمه إلى الفسق والمعصية، وهو الذي نريده بالحرام المطلق فلا يحتاج إلى أمثلة وشواهد.

أما الدرجة الثانية: فأمثلتها كل شبهة لا يجب اجتنابها كما سيأتي في باب الشبهات، إذ من الشبهات ما يجب اجتنابه فيلحق بالحرام ومنها ما يكره اجتنابه والورع عنه ورع الموسوسين كمن يمتنع عن الاصطياد خوفاً من أن يكون الصيد قد أفلت من إنسان وهذا وسواس.

ومنها ما يستحبّ اجتنابه ولا يجب وهو الذي ينطبق عليه قول الإمام الحسن عليه السلام:

«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[1].

أما الدرجة الثالثة: وهي ورع المتقين، فيشهد لها قوله صلى الله عليه وآله:

«لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس»[2].

ومن هذه الدرجة ما يتسامح به الناس وهو حلال ولكن يخاف من

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج٢ ص١٣.

(٢) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤٢١٥.

فتح بابه أن ينجرّ إلى غيره فتألف النفس الاسترسال وتترك الورع.

من ذلك التورع عن الزينة فإنه يخاف منها أن تدعو إلى غيرها وإن كانت الزينة في نفسها مباحة، إلا أن أكثر المباحاة داعية إلى المحظورات. فالاستكثار من الأكل واستعمال الطّيب للمتعزّب يحرك الشهوة والشهوة تدعو إلى الفكر والفكر يدعو إلى النظر والنظر إلى غيره وهكذا... وكذلك النظر إلى دور الأغنياء وتجمّلهم فهو مباح في نفسه ولكن يهيج الحرص ويدعو إلى طلب مثله ويلزم منه ارتكاب ما لا يحلّ في تحصيله. وهكذا المباحاة كلها إذا لم تؤخذ بقدر الحاجة وفي وقت الحاجة أيضاً ومع التحرّز من غوائلها بالمعرفة أولاً ثم الحذر ثانياً فقلّما تخلو عاقبة الإنسان من الخطر حتى كره بعضهم تجصيص الحيطان لأنه زينة لا فائدة فيه، حتى أنه أنكر تجصيص المسجد وتزيينه مستدلاً على ذلك بما روي عن النبيﷺ أنه سئل أن يكحل المسجد فقالﷺ: «لا، عريش كعريش موسى»[1]. كل ذلك خوفاً من سريان اتباع الشهوات في المباحاة إلى غيرها. فإن المباح والمحظور يشتهيان بشهوة واحدة، وإذا عوّدت الشهوة المسامحة استرسلت فاقتضى خوف التقوى الورع عن هذا كله. وكل حلال انفك عن مثل هذه المخاوف فهو الحلال الطيب من الدرجة الثالثة، وهو كل ما لا يخاف من أدائه الوقوع في معصية أبداً.

أما الدرجة الرابعة: وهي ورع الصديقين، فالحلال المطلق عندهم هو كل ما لا تتقدم أسبابه معصية ما، لا يستعان به على المعصية أيضاً، ولا يقصد منه في الحال والمآل قضاء وطر، بل يتناول لله تعالى فقط وللتقوّي على عبادته واستبقاء الحياة لأجله.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأفراد، ومثله في الكافي: ج٣ ص٢٩٦. العريش: هو ما يستظلّ به، وهو يبنى من سعف النخل.

وهؤلاء هم الذين يرون كل ما ليس لله تعالى حراماً امتثالاً لقوله تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1].

فهذه رتبة الموحدين المتجرّدين عن حظوظ أنفسهم المتفرّدين لله تعالى بالقصد. قال الإمام الصادق عليه السلام:

«التقوى على ثلاثة أوجه: تقوى بالله في الله وهو ترك الحلال فضلاً عن الشبهة وهو تقوى خاص الخواص.

وتقوى من الله وهو ترك الشبهات فضلاً عن الحرام وهو تقوى الخاص. وتقوى من خوف النار والعقاب وهو ترك الحرام وهو تقوى العام. ومثل التقوى كماء يجري في نهر ومثل هذه الطبقات الثلاث في معنى التقوى كأشجار مغروسة على حافة ذلك النهر على قدر جوهره وطعمه ولطافته وكثافته. ثمَّ منافع الخلق من تلك الأشجار والثمار على قدرها وقيمتها، قال الله عز وجل: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾[2]. فالتقوى للطاعات كالماء للأشجار، مثل طبائع الأشجار والثمار في لونها وطعمها مثل مقادير الإيمان، فمن كان أعلى درجة في الإيمان وأصفى جوهراً بالروح كان أتقى ومن كان أتقى كانت عبادته أخلص وأطهر، ومن كان كذلك كان من الله أقرب. وكل عبادة مؤسسة على غير التقوى فهي هباء منثور، قال الله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٤.

وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾[1] وتفسير التقوى ترك ما ليس بأخذه بأس حذراً مما به البأس وهو في الحقيقة طاعة وذكر بلا نسيان، وعلم بلا جهل، مقبول غير مردود»[2].

فهذه دقائق الورع عند سالكي طريق الآخرة، والتحقيق فيه أن الورع له مبدأ وهو الامتناع عما حرّمته الفتوى وهو ورع العدول وله غاية وهو ورع الصديقين وهو الامتناع عن كل ما ليس لله مما أخذ بشهوة أو توصل إليه بمكروه، وبينهما درجات في الاحتياط، فكلما كان العبد أكثر تشديداً على نفسه كان أخفّ ظهراً يوم القيامة وأسرع جوازاً على ظهر الصراط وأبعد من أن تترجح كفّة سيئاته على كفّة حسناته وتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع، كما تتفاوت دركات النار في حق الظلمة بحسب تفاوت درجات الحرام. وإذا علمت حقيقة الأمر فإليك الخيرة فإن شئت فاستكثر من الاحتياط وإن شئت فرخص.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

(٢) مصباح الشريعة: الباب ٨٢.

البحث والسؤال والخروج عن المظالم المالية

إن كل من قدّم إليك طعاماً أو هدية أو أردت أن تشتري منه أو تتّهب فليس لك أن تفتش عنه وتسأل فتقول هذا مما لا أتحقق حلّه فلا آخذه بل أفتش عنه. وليس لك أيضاً أن تترك البحث فتأخذ من كل أحد أو تأخذ كل ما لا تتيقّن تحريمه، بل السؤال واجب مرّة وحرام مرّة ومندوب إليه مرّة ومكروه مرّة.

فالمجهول إن قدّم إليك طعاماً أو حمل إليك هدية أو أردت أن تشتري من دكانه شيئاً فلا يلزمك السؤال عنه مع كونه مسلماً. وليس لك أن تقول إن الفساد والظلم غالب على الناس، فهذه وسوسة وسوء ظن بالمسلم، وإن بعض الظن إثمٌ، وهذا المسلم يستحق عليك بإسلامه أن لا تسيء الظن به.

فرسول الله ﷺ لم يكن يسأل عن كل ما يحمل إليه، بل سأل في أوّل قدومه إلى المدينة عما يُحمل إليه: أصدقة أم هدية؟ لأن قرينة الحال وهو دخول المهاجرين إلى المدينة وهم فقراء يغلب عليه الظن أن كل ما يحمل إليه منهم يحمل بطريق الصدقة، ثم أن إسلام المعطي لا يدل على أنه ليس بصدقة. وقد كان ﷺ يدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل أصدقة أم لا، إذ العادة ما جرت على التصدّق بالضيافة.

فكل من وجد ضيافة عند رجل مجهول لم يكن عاصيا بإجابته من

غير تفتيش، بل حتى لو رأى في داره تجملاً ومالاً كثيراً فليس له أن يقول: إن الحلال عزيز وهذا كثير فمن أين يجتمع هذا من الحلال؟

إذاً ليس للإنسان أن يسأل عن المجهول الذي يأخذه من يد المسلم، أما إن كان يريد التورّع بحيث لا يدخل جوفه إلا ما يدري من أين هو، فهو حسن، وليتلطّف في الترك. فقد روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه كان يلقي فروه حال الصلاة وكان من فراء العراق فقيل له في ذلك فقال: «إن أهل العراق يستحلون لباس الجلود الميتة ويزعمون أن دباغه ذكاته»[1]. وإن كان لا بدّ له من أكله فليأكل ولا يسأل. إذ السؤال إيذاء وهتك ستر وإيحاش وهو حرام بلا شك ومنهي عنه بقوله تعالى:

﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ﴾[2].

وكم من زاهد جاهل يوحش القلوب بالتفتيش ويتكلم بالكلام الخشن المؤذي، وإنما الشيطان يحسّن له ذلك طلباً للشهرة بأكل الحلال. أما لو كان باعثه محض الدين لكان خوفه على قلب مسلم أن يتأذى أشد من خوفه على بطنه أن يدخله ما لا يدري مع العلم أنه غير مؤاخذ على ما لا يدري. فطريق الورع هو الترك ولكن دون التجسّس، وإن لم يكن بدّ من الأكل فالورع هنا يقتضي الأكل وإحسان الظن بالناس.

هذا هو المألوف عند الأصحاب ومن زاد عليهم في الورع فهو ضال مبتدع وليس بمتّبع، كيف وقد أكل رسول الله صلى الله عليه وآله طعام بريرة فقيل:

---

(١) التهذيب: ج١ ص١٩٣.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

إنه صدقة. فقال ﷺ: «هو لها صدقة ولنا هدية».

أما إن كان الشك في المال لا في حال المالك وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال، فليس على المشتري أيضاً أن يسأل عن الحلال حتى يشتريه، فقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام أنهم قالوا:

«إن كل شيء فيه حلال وحرام فهو لك حلال حتى تعرف الحرام بعينه»[1].

أما من تاب وفي يده مال مختلط بين الحلال والحرام فعليه أن يتصدّق بالخمس فيما لا يعرف قدر الحرام فيه ولا صاحبه، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إن رجلاً أتى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين إني أصبت مالاً لا أعرف حلاله عن حرامه؟ فقال عليه السلام: اخرج الخمس من ذلك المال فإن الله عز وجل قد رضي من المال بالخمس واجتنب ما كان صاحبه يعلم (يعمل)»[2].

---

(1) التهذيب: ج٢ ص١٧٩.

(2) التهذيب: ج١، ص٣٨٤.

أموال السلاطين والظالمين

إن أخذ أموال السلاطين والعمّال جائز بلا خلاف وإن علمنا أنهم يظلمون بها الناس ويأخذون الزيادة على المقدار المستحق سواء أخذوها باسم المقاسمة أو الخراج أو الزكاة أو غير ذلك، رضي مالكه به أم لم يرض، وسواء كان إعطاؤهم على سبيل الجائزة والصلة ونحوها أو على وجه البيع والشراء وسائر المعاوضات، للنصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السلام بذلك. إلا أن نصوصهم مختصة بسلاطين أهل الخلاف لورودها فيهم. وبينهم وبين سلاطين أهل الحق فرق من حيث إن أهل الخلاف إنما يأخذون من المخالفين والنواصب، وسلاطين أهل الحق إنما يأخذون من الشيعة وهم الفرقة المحقة. فعن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«سألته عن الرجل منا يشتري من السلطان من إبل الصدقة وغنمها وهو يعلم أنهم يأخذون منهم أكثر من الحق الذي يجب عليهم قال: فقال عليه السلام: ما الإبل والغنم إلا مثل الحنطة والشعير وغير ذلك لا بأس به حتى يعرف الحرام بعينه»[١].

وعن إسحاق بن عمّار قال:

---

(١) الكافي: ج٢ ص١١٢.

«سألته عن الرجل يشتري من العامل وهو يظلم؟ قال: يشتري منه ما لم يعلم أنه ظلم فيه أحداً»[1].

وعن أبي قاسم الصيقل قال:

«كتبت إليه عليه السلام أني رجل صيقل أشتري السيوف فأبيعها من السلطان أجائز لي بيعها؟ فكتب عليه السلام لا بأس به»[2].

عن سماعة قال:

«سألته عن شراء الخيانة والسرقة فقال: إذا عرفت أنه كذلك فلا، إلا أن يكون شيئاً اشتريته من العامل»[3].

وفي الصحيح عن أبي عبد الله عن أبيه عليهما السلام:

«إن الحسن والحسين عليهما السلام كانا يقبلان جوائز معاوية»[4].

وفي الصحيح عن أبي ولاّد قال:

«قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما ترى في رجل يلي أعمال السلطان ليس له مكتسب إلا من أعمالهم وأنا أمرّ به فأنزل عليه فيضيفني ويحسن إلي وربما أمر لي بالدراهم والكسوة وقد ضاق صدري من ذلك. فقال لي عليه السلام: كل وخذ منه فلك المهنأ وعليه الوزر»[5].

---

(١) الكافي ج٢ ص١٥٤.
(٢) المصدر السابق: ص١١٤.
(٣) التهذيب: ج٢ ص١٠٢.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق: المهنأ: أي ما أتاك بلا مشقة.

وعن أبي المغرا قال:

«سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام وأنا عنده فقال: أصلحك الله أمرّ بالعامل فيجيزني بالدراهم آخذها؟ قال عليه السلام: نعم، قلت: وأحجّ بها؟ قال: نعم»[1].

ولكن لا ريب أن الاستعفاف عن أموال السلاطين سيما الشيعة منهم مع عدم الحاجة الشديدة إليها يعدّ من الورع. وأما أخذ الأئمة عليهم السلام ذلك فلكونه حقا لهم. وأما نفيهم البأس عنه لشيعتهم فلعلّه لعلمهم باحتياجهم الشديد، أو هو إذن منهم في التصرف بحقهم عليهم السلام، أو هو بحسب ظاهر الفتوى دون حكم الورع.

فعن الإمام الصادق عليه السلام:

«أنه سئل عن عمل السلطان يخرج فيه الرجل قال: لا إلا أن لا يقدر على شيء، ولا يأكل ولا يشرب ولا يقدر على حيلة، فإن فعل فصار في يده شيء فليبعث بخمسه إلى أهل البيت»[2].

وإنما أمره عليه السلام ببعث خمسه إليهم عليهم السلام لأن السلاطين كانوا لا يؤدون حقهم عليهم السلام من الخمس فكان في أموالهم حقهم، وليس ذلك لاختلاط الحلال بالحرام.

(١) التهذيب ج٢ ص١٠٢.

(٢) التهذيب: ج٢ ص١٠٠.

ما يحلّ من مخالطة السلاطين وما يحرم

إن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: وهي شرّها أن تدخل عليهم.

الحالة الثانية: وهي دون الأولى أن يدخلوا عليك.

الحالة الثالثة: وهي الأسلم أن تعتزل عنهم لا تراهم ولا يرونك.

الحالة الأولى: وهي الدخول على السلطان:

فهو مذموم في الشرع جداً وفيه تغليظات وتشديدات تواردت بها الأخبار والآثار ننقلها لتعرف ذمّ الشرع له.

وصف رسول الله ﷺ الأمراء الظلمة فقال:

«فمن نابذهم نجا ومن اعتزلهم سلم ـ أو كاد يسلم ـ ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم»[1].

وقال ﷺ:

«سيكون بعدي أمراء يكذبون ويظلمون فمن صدّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولم يرد عليّ الحوض»[2].

---

(١) مجمع الزوائد: ج٥ ص٢٤٧.

(٢) مسند أحمد: ج٤ ص٢٤٣.

وفي الخبر:

«خير الأمراءِ الذين يأتون العلماء وشرّ العلماء الذين يأتون الأمراء»[1].

وفي الخبر:

«العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم»[2].

عن محمد بن عذافر عن أبيه قال:

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«يا عذافر إنك تعامل أبا أيوب والربيع فما حالك إذا نودي بك في أعوان الظلمة؟ قال: فوجم أبي، فقال أبو عبد الله عليه السلام لما رأى ما أصابه: أي عذافر إنما خوفتك بما خوّفني الله عز وجل به، قال محمد: فقدم أبي فلم يزل مغموماً مكروباً حتى مات»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«اتقوا الله وصونوا دينكم بالورع، وقوّوه بالتقيّة والاستغناء بالله عز وجل، إنه من خضع لصاحب سلطان ولمن يخالفه على دينه طالباً لما في يديهِ من دنياه؛ أخمله الله عز وجل ومقته عليه ووكله إليه، فإذا هو غلب على شيء من دنياه فصار إليه منه شيء نزع

(١) المختصر: ص٨٨.
(٢) الكافي: ج١ ص٤٦ رقم ٥.
(٣) الكافي: ج٥ ص١٠٦.

الله جلّ اسمه منه البركة ولم يأجره على شيء ينفقه منه في حج ولا عتق رقبة ولا برّ»[1].

وعن علي بن أبي حمزة قال: كان لي صديق في كتاب بني أمية فقال لي:

استأذن لي على أبي عبد الله عليه السلام فاستأذنت له عليه فأذن له، فلما أن دخل سلّم وجلس ثم قال: جعلت فداك إني كنت في ديوان هؤلاء القوم فأصبت من دنياهم مالاً كثيراً وأغمضت في مطالبه. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: لولا أنّ بني أميّة وجدوا من يكتب لهم ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقنا. ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شيئاً إلا ما وقع في أيديهم، قال: فقال الفتى: جعلت فداك فهل لي مخرج منه؟ قال: إن قلت لك تفعل؟ قال: أفعل. قال عليه السلام له: اخرج من جميع ما اكتسبت في ديوانهم ومن عرفت منهم رددت عليه ماله ومن لم تعرف تصدّقت به وأنا أضمن لك على الله عز وجل الجنة. قال: فأطرق الفتى طويلاً ثم قال: قد فعلت جعلت فداك. قال ابن أبي حمزة فرجع الفتى معنا إلى الكوفة فما ترك شيئاً على وجه الأرض إلا خرج منه حتى ثيابه التي كانت على بدنه، قال: فقسمت له قسمة[2] واشتريت له ثياباً وبعثنا إليه نفقة قال: فما أتى عليه إلا أشهر قلائل حتى مرض فكنّا

---

(١) الكافي: ج٥ ص١٠٥.

(٢) قسمت له قسمة: أي أخذت له من كل رجل من أصدقائي شيئاً.

نعوده، قال: فدخلت عليه يوماً وهو في السوق[1] قال: ففتح عينه ثم قال: يا عليُّ وفى لي والله صاحبك ثم مات، فتولّينا أمره فخرجت حتى دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فلمّا نظر إليّ قال: يا علي وفينا والله لصاحبك، قال: فقلت: صدقت جعلت فداك هكذا والله قال لي عند موته»[2].

عن أبي بصير قال:

«سألت أبا جعفر عليه السلام عن أعمالهم فقال لي: يا أبا محمد لا ولا مدّة بقلم، إن أحدهم لا يصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينه مثله»[3].

وعن محمد بن مسلم قال:

«كنت قاعداً عند أبي جعفر عليه السلام على باب داره بالمدينة فنظر إلى الناس يمرّون أفواجاً فقال لبعض من عنده: حدث بالمدينة أمرٌ؟ فقال: جعلت فداك ولي المدينة وال فغدا الناس إليه يهنّئونه، فقال: إن الرجل ليغدى عليه بالأمر يهنأ به وأنه لباب من أبواب النار»[4].

وعن ابن أبي يعفور قال:

«كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل عليه رجل من أصحابنا فقال له: أصلحك الله إنّه ربما أصاب الرجل منّا الضيق والشدّة فيدعى إلى البناء يبنيه والنهر

---

(١) السوق: النزع.

(٢) الكافي: ج٥ ص١٠٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الكافي: ج٥ ص١٠٧ رقم ٦.

يكريه[1] والمسنّاة يصلحها، فما تقول في ذلك؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: ما أحب أني عقدت لهم عقدة أو وكيت لهم وِكاء[2]، وإن لي ما بين لابتيها، لا ولا مدّة بقلم، إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله عز وجل بين العباد»[3].

وعن الفضيل بن عياض قال:

«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أشياء من المكاسب فنهاني عنها وقال: يا فضيل والله لضرر هؤلاء على هذه الأمة أشد من ضرر الترك والديلم، قال: وسألته عن الورع من الناس، فقال: الذي يتورع عن محارم الله عز وجل ويجتنب هؤلاء، وإذا لم يتق الشبهات وقع في الحرام وهو لا يعرفه، إذا رأى المنكر فلم ينكره وهو يقدر عليه فقد أحب أن يُعصى الله جلّ وعزّ، ومن أحب أن يعصى الله جلّ وعزّ فقد بارز الله عز وجل بالعداوة، ومن أحبّ بقاء الظالمين فقد أحبّ أن يعصى الله جلّ وعلا، إن الله جلّ ثناؤه حمد نفسه على هلاك الظالمين فقال:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام مرفوعاً في قول الله عز وجل:

---

(١) يكريه: كرى النهر استحدث حفره.

(٢) الوكِاء: الخيط الذي تشد به الصرّة والكيس وغيرهما.

(٣) الكافي: ج٥ ص١٠٧ رقم ٧.

(٤) الكافي: ج٥ ص١٠٨.

«﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾، قال: هو الرجل يأتي السلطان فيحب بقاءه إلى أن يدخل يده في كيسه فيعطيه»[1].

وعنه عليه السلام قال:

«إن قوماً ممن آمن بموسى عليه السلام قالوا: لو أتينا عسكر فرعون فكنا فيه ونلنا من دنياه فإذا كان الذي نرجوه من ظهور موسى صرنا إليه، ففعلوا فلمّا توجه موسى ومن معه هاربين من فرعون ركبوا دوابهم وأسرعوا في السير ليلحقوا بموسى عليه السلام وعسكره فيكونوا معه فبعث الله عز وجل ملكاً فضرب وجوه دوابهم فردّهم إلى عسكر فرعون فكانوا فيمن غرق مع فرعون»[2].

وعنه عليه السلام قال:

«حق على الله عز وجل أن تصيروا مع من عشتم معه في دنياه»[3].

وعن حميد قال:

«قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني ولّيت عملاً فهل لي من ذلك مخرج؟ فقال عليه السلام: ما أكثر من طلب المخرج من ذلك فعسر عليه. قلت: فما ترى؟ قال عليه السلام: أرى أن تتقي الله عز وجل ولا تعود»[4].

---

(١) الكافي ج٥ ص١٠٨.

(٢) الكافي: ج٥ ص١٠٩ رقم ١٣.

(٣) المصدر السابق: رقم ١٤.

(٤) المصدر السابق.

وعن زياد بن أبي سلمة قال:

«دخلت على أبي الحسن موسى عليه السلام فقال لي: يا زياد إنك لتعمل عمل السلطان؟ قال: قلت: أجل، قال لي: فلم؟ قلت: إني رجل لي مروّة[1] وعليّ عيال وليس وراء ظهري شيء، فقال لي: يا زياد، لأن أسقط من جالق[2] فأتقطع قطعة قطعة أحبّ إليَّ من أن أتولى لأحد منهم عملاً أو أطأ بساط رجل منهم، إلا لماذا؟ قلت: لا أدري جعلت فداك، قال: إلا لتفريج كربة عن مؤمن أو فك أسره أو قضاء دينه. يا زياد إن أهون ما يصنع الله جلّ وعزّ بمن تولى لهم عملاً؛ أن يضرب عليه سرادقاً من نار إلى أن يفرغ الله من حساب الخلق، يا زياد فإن ولّيت شيئاً من أعمالهم فأحسن إلى إخوانك فواحدة بواحدة والله من وراء ذلك، يا زياد أيّما رجل منكم تولّى لأحد منهم عملاً ثم ساوى بينكم وبينهم فقولوا له: أنت منتحل كذّاب، يا زياد إذا ذكرت مقدرتك على الناس فاذكر مقدرة الله جلّ وعزّ عليك غداً ونفاد ما أتيت إليهم عنهم وبقاء ما أتيت إليهم عليك»[3].

وعن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ذكر عنده رجل من هذه العصابة قد ولّي ولاية فقال: كيف صنيعه إلى إخوانه؟ قال: قلت ليس عنده خيرٌ،

---

(١) مروّة: أي إني رجل ذو إحسان وفضل عودت الناس ولا يمكنني تركه.

(٢) الجالق: الجبل المرتفع.

(٣) الكافي ج٥ ص١٠٩ رقم ١.

قال عليه السلام: أُفّ يدخلون فيما لا ينبغي لهم ولا يصنعون إلى إخوانهم خيراً»[1].

وعن علي بن يقطين قال:

«قلت لأبي الحسن عليه السلام: ما تقول في أعمال هؤلاء؟ قال: إن كنت لا بد فاعلاً فاتّق أموال الشيعة، قال: فأخبرني عليّ أنه كان يجبيها من الشيعة علانية ويردّها عليهم في السرّ»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ما من جبار إلا ومعه مؤمن يدفع الله عز وجل به عن المؤمنين وهو أقلّهم حظّاً في الآخرة - أي أقل المؤمنين حظاً لصحبة الجبار -»[3].

وعن علي بن يقطين قال:

«قال لي أبو الحسن عليه السلام: إن لله جلّ وعزّ مع السلطان أولياء يدفع بهم عن أوليائه»[4].

إذاً فهذه الأخبار تدل على ما في مخالطة السلاطين من الفتن وأنواع الفساد، ولكن نفصّل فنقول: إن الداخل على السلطان معرّض لأن يعصي الله تعالى إما:

١ - بفعله.

٢ - بسكوته.

---

(١) الكافي: ج٥ ص١٠٩ رقم ٢.
(٢) المصدر السابق: رقم ٥.
(٣) المصدر السابق: رقم ٧.
(٤) المصدر السابق.

٣ ـ بقوله.

٤ ـ باعتقاده.

١ ـ معصية الله بالفعل:

إن الدخول على السلاطين إنما يكون في غالب الأحوال دخولاً إلى دور مغصوبة، والدخول فيها بغير إذن المالك حرام.

٢ ـ معصية الله بالسكوت:

وهو أن الإنسان سيرى في مجلسهم من أواني الفضة والحرير الملبوس عليهم وعلى غلمانهم ما هو حرام، وكل من رأى سيئة وسكت عنها فهو شريك في تلك السيئة. بل قد يسمع من كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم وإيذاء؛ والسكوت على جميع ذلك حرام. وقد يراهم لابسين للثيات وآكلين للطعام وجميع ما في أيديهم حرام والسكوت على كل ذلك غير جائز، بل يجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلسانه أولاً وإن لم يقدر فبفعله.

ومن علم فساداً في موضع وعلم أنه لا يقدر على إزالته فلا يجوز له أن يحضر ويجلس ساكتاً بحجة عدم قدرته على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ ـ معصية الله بالقول:

وهو بأن يدعو للظالم أو يثني عليه أو يصدّقه فيما يقول من باطل إما بصريح أو بتحريك رأسه أو باستبشار في وجهه، أو يظهر له الحبّ والموالاة والاشتياق إلى لقائه أو الحرص على طول عمره وبقائه. وهو في الغالب لا يقتصر على السلام بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام. أما دعاؤه فلا يحلّ له إلا أن يقول له: أصلحك أو وفقك الله للخيرات، أو طوّل الله عمرك في طاعته وما يجري هذا المجرى.

أما الدعاء بالحراسة وطول البقاء وإسباغ النعمة فلا يجوز. وقد قال النبي ﷺ:

«من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه»[1].

أما لوْ جاوز الدعاء إلى الثناء فذكر ما ليس فيه فيكون كاذباً ومنافقاً ومكرماً لظالم وهذه ثلاث معاصٍ. قال النبي ﷺ:

«إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق»[2].

وفي آخر:

«من أكرم ظالماً فقد أعان على هدم الإسلام».

وأما لو جاوز ذلك إلى التصديق له فيما يقول وتزكية أعماله كان عاصياً بالتصديق والإعانة. وحق للظالم أن يبغضه في الله ويمقته، فالغضب في الله واجب، ومحب المعصية والراضي بها عاص. هذا مع ما فيه من اقتداء غيره به في الدخول، ومن تكثير سواد الظلمة وتحسين صورتهم، وكل ذلك إما مكروه أو محظور.

ولا يجوز الدخول على السلاطين إلا لعذرين:

أحدهما: أن يكون من جهة السلاطين أمر إلزام لا أمر إكرام، وعلم أنه لو امتنع عن الحضور أوذي أو أفسد عليهم طاعة الرعية واضطرب أمر السياسة، ففي هذه الحالة يجب عليه الإجابة مراعاة لمصلحة الخلق وحتى لا تضطرب الولاية.

الثاني: أنه يدخل عليهم لأجل دفع الظلم عن نفسه أو عن مسلم،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل.

وذلك جائز بشرط أن لا يكذب ولا يثني ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولاً.

الحالة الثانية: أن يدخل عليه السلطان:

إذا دخل السلطان على عالم أو متديّن ما فجواب السلام لازم وأما القيام والإكرام له فلا يحرم إن كان هذا الإكرام كمقابل لإكرام السلطان له. فإن السلطان بإكرامه للعلم والدين مستحق للإحماد، كما أنه بالظلم يكون مستحقاً للإبعاد. فالإكرام بالإكرام والجواب بالسلام.

ولكن الأولى أن لا يقوم إن كان معه في خلوة ليظهر له عزة الدين وحقارة الظلم، وليظهر له إعراضه عمن أعرض عن الله فأعرض الله عنه. وإن كان دخول السلطان عليه في جمع فمراعاة حشمة أرباب الولايات فيما بين الرعايا مهم، فلا بأس بالقيام على هذه النيّة. وإن علم أن ذلك لا يورث فساداً في الرعية ولا يناله أذى من غضبه فترك الإكرام بالقيام أولى.

ثم يجب عليه بعد أن وقع اللقاء أن ينصحه، فإن كان يقارف ما لا يعلم تحريمه وهو يتوقّع أن يتركه إذا عف؛ فليعرّفه فإن ذلك واجب عليه. وأما ذكر تحريم ما يعلم السلطان تحريمه من الشرب والظلم فلا فائدة منه. بل عليه أن يخوّفه مما يرتكبه من المعاصي مهما يظن أن التخويف يؤثر فيه، وعليه أن يرشده إلى طرق المصلحة إن كان يعرف طريقاً على وفق الشرع بحيث يحصل فيه غرض الظالم من غير معصية ليصدّه بذلك عن الوصول إلى غرضه بالظلم.

إذن فيجب على القادر تعريف الظالم على محل جهله، وتخويفه مما قد اجترأ عليه، والإرشاد إلى ما هو غافل عنه بما يغنيه عن الظلم. فهذه ثلاثة أمور تلزمه إذا توقع للكلام فيها أثراً وهو أيضاً لازم لكل من اتفق له دخول على سلطان بعذر أو بغير عذر.

الحالة الثالثة: أن يعتزل الإنسان عن السلاطين فلا يراهم ولا يرونه

وهو الواجب إذ لا سلامة إلا فيه. فينبغي أن يبغضهم على ظلمهم ولا يحبّ بقاءهم ولا يثني عليهم ولا يستخبر عن أحوالهم ولا يتقرّب إلى المتّصلين بهم، ولا يتأسف على ما يفوت بسبب مفارقتهم. وإذا خطر بباله أمرهم وتنعّمهم أذهبه بذكر الله تعالى. فكل من أحاط علمه بظلم ظالم ومعصية عاص ينبغي أن يحطّ ذلك من درجته في قلبه، فهذا واجب عليه، لأن كل من صدر منه ما يكره نقص من رتبته في القلب. والمعصية ينبغي أن تكره فإنها إما أن يغفل عنها أو يرضى بها أو تكره. ولا غفلة مع العلم ولا وجه للرضا فلا بد من الكراهة إذا.

ولا تقل؛ كيف تجب الكراهة وهي داخلة تحت الاختيار، لأن المحب يكره بضرورة الطبع ما هو مكروه عند محبوبه ومخالف له. وإنما لا يكره معصية الله من لا يحب الله، وإنما لا يحب الله من لا يعرفه، والمعرفة لله واجبة والمحبة لله تعالى واجبة، وإذا أحبّه كره ما يكرهه وأحب ما أحبّه.

الربا والهدية

إن باذل المال لا يبذله قط إلا لغرض إما آجل كالثواب وإما عاجل. والعاجل إما مال وإما فعل وإعانة على مقصود معيّن وإما تقرّب إلى قلب المهدى إليه يطلب محبّته، وهو يطلب هذه المحبة إما لعينها وإما للتوصل بها إلى عوض من ورائها. فالأقسام الحاصلة إذاً خمسة:

□ الأول: ما غرضه الثواب في الآخرة:

وذلك إما لكون المعطى إليه شخصاً محتاجاً أو عالماً أو منتسباً بنسب ديني أو صالحاً ومتدينا.

فمن يعطى لحاجته لا يحلّ له أخذه إن لم يكن محتاجاً، ومن يعطى لشرف نسبه لا يحل له أخذه إن كان كاذباً في دعوى النسب، ومن يعطى لعلمه أيضاً لا يحل له أخذه إن لم يكن عالماً، ومن يعطى لدينه وصلاحه لا يحل له أن يأخذه إن كان فاسقاً في الباطن.

□ الثاني: ما يقصد به في العاجل غرض معيّن:

كالفقير يهدي للغني طمعاً في خلعته، فهذه هبة بشرط الثواب، ولا يخفى حكمها، وإنما تحلّ عند الوفاء بالثواب المطموع فيه وعند تحقق شروط العقود. فعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«الربا رباءان؛ ربا يؤكل وربا لا يؤكل، فأما الذي

يؤكل فهديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها؛ ذلك الربا الذي يؤكل، فهو قول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وأما الذي لا يؤكل فهو الذي نهى الله عنه وأوعد الله عليه النار[1].

وعنه عليه السلام قال:

«قال رسول الله ﷺ: الهدية على ثلاثة أوجه: هدية مكافأة وهدية مصانعة وهدية لله عز وجل»[2].

وعن إسحاق بن عمار قال: قلت له عليه السلام:

«الرجل الفقير يهدي إليّ الهديّة يتعرّض لما عندي فآخذها ولا أعطيه شيئاً أيحلّ لي؟ قال: نعم هي لك حلال ولكن لا تدع أن تعطيه»[3].

وعنه عليه السلام:

«إنه سئل عن الرجل يرشو الرجل الرشوة على أن يتحوّل من منزله فيسكنه، قال: لا بأس به»[4].

☐ الثالث: أن يكون المراد إعانة بفعل معيّن:

كالمحتاج إلى السلطان يقوم ويهدي إلى وكيل السلطان وخاصته فهذه هبة بشرط ثواب تعرف بقرينة الحال من خلال النظر إلى ذلك العمل الذي هو الثواب، فإن كان حراماً كالسعي في ظلم إنسان أو غير

---

(١) الكافي: ج٥ ص١٤٥ رقم ٦.

(٢) الكافي: ج٥ ص١٤١؛ المصانعة: الرشوة.

(٣) الكافي: ج٥ ص١٤٣.

(٤) التهذيب: ج٢ ص١١٢.

ذلك حرم عندها الأخذ. وإن كان واجباً كدفع ظلم متعيّن أو شهادة متعينة فيحرم أيضاً ما يأخذه وهي الرشوة التي لا يشك في تحريمها. وإن كان مباحاً لا واجباً ولا حراماً وكان فيه تعب بحيث لو عرف جاز الاستئجار عليه فما يأخذه في هذه الحالة حلال، وهو جار مجرى الجعالة كقوله: أوصل هذه القصّة إلى السلطان ولك دينار، وكان ذلك يحتاج إلى تعب وعمل.

☐ الرابع: ما يقصد به المحبّة وجلبها من قلب المهدى إليه:

وذلك لا بعوض معيّن بل طلباً للاستئناس وتأكيداً للصحبة وتودّداً إلى القلب. وهذا مقصود للعقلاء ومندوب إليه في الشرع. قال النبي ﷺ:

«تهادَوا تحابّوا»[1].

وبالجملة لا يقصد الإنسان محبّة غيره لعين المحبّة بل لفائدة في محبته. فإذا لم تتعيّن تلك الفائدة ولم يتمثل في نفسه عوضاً معيّناً يبغيه في الحال أو المآل سمّي ذلك هدية وحلّ أخذها.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«من تكرمة الرجل لأخيه المسلم أن يقبل تحفته، ويتحفه بما عنده، ولا يتكلّف له شيئاً»[2].

وعنه عليه السلام قال:

«قال رسول الله ﷺ: تهادوا تحابوا تهادوا فإنها تذهب بالضغائن»[3].

---

(١) الفقيه: ص٣٨٩ باب الهدية.

(٢) الكافي: ج٥ ص١٤٣ رقم ٨.

(٣) الكافي: ج٥ ص١٤٤ رقم ١٤.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«لأن أُهدي لأخي المسلم هديّة أحبّ إليّ من أن أتصدق بمثلها»[1].

☐ الخامس: أن يطلب التقرب إلى قلب إنسان ما لمصلحة خاصة:

ففي هذه الحالة يطلب الإنسان التقرب إلى قلب شخص ما وتحصيل محبته لا لأجل محبته والأنس به من حيث إنه أنس فقط بل ليتوصّل بجاهه إلى أغراضه الخاصة. فإن كان لأجل علم أو نسب فالأمر فيه أخف وأخذه مكروه وهو شبيه بالرشوة ولكنها هديّة في ظاهرها. وإن كان جاهه بولاية تولاها من قضاء أو عمل أو ولاية أو جباية مال أو غيره من الأعمال السلطانية، فهذه رشوة عرضت في معرض الهدية. إذ القصد بها في الحال طلب التقرّب واكتساب المحبّة ولكن الأمر إنما كان ليتوصل به إلى أغراضه.

عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«سيأتي على الناس زمان يستحلُّ السحت فيه بالهدية والقتل بالموعظة يقتل البريء ليوعظ به العامة».

وروي أيضاً:

«إن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث والياً إلى صدقات الأزد فلما جاء أمسك بعض ما معه وقال: هذا مالكم وهذا هدية لي. فقال النبي صلى الله عليه وآله: ألا جلست في بيتك وبيت أبيك وبيت أمك حتى يأتيك هدية إن كنت صادقاً؟ ثم

(١) الكافي: ج٥ ص١١٤ رقم ١٢.

قالﷺ: ما لي أستعمل الرجل منكم فيقول: **هذه لكم** **وهذه هديّة لي، ألا جلس في بيت أمّه ليُهدى له. والذي نفسي بيده لا يأخذ منكم أحدٌ شيئاً بغير حقّه إلا أتى الله بحمله، ولا يأتينّ أحدكم يوم القيامة ببعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تبعر** ـ ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه ـ ثم قالﷺ: اللهم هل بلّغت»[1].

(١) أخرجه مسلم: ج٦ ص١١.

أخذ الإنسان ماله ممن يجحده إياه

عن معاوية بن عمار قال:

«قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الرجل يكون لي عليه الحق فيجحدنيه ثم يستودعني مالاً، ألي أن آخذ مالي عنده؟ قال: لا هذه خيانة»[1].

وعن أبي بكر الحضرمي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام:

(رجل كان له على رجل مال فجحده إياه وذهب به، ثم صار بعد ذلك للرجل الذي ذهب بماله مال قبله أيأخذ منه مكان ماله الذي ذهب به ذلك الرجل؟ قال: نعم ولكن لهذا كلام يقول: «اللهم إني آخذ هذا المال الذي أخذه مني وإني لم آخذ ما أخذته خيانة ولا ظلماً»)[2].

وعن داود بن زربي قال: قلت لأبي الحسن موسى عليه السلام:

«إني أخالط السلطان فيكون عندي الجارية فيأخذونها والدابة الفارهة فيأخذونها ثم يقع لهم عندي المال فلي

---

(١) الكافي: ج٥ ص٩٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) التهذيب: ج٢ ص١٠٥.

أن آخذه؟ فقال عليه السلام: خذ مثل ذلك ولا تزد عليه»[1].

وعن إسحاق بن إبراهيم:

«إن موسى بن عبد الملك كتب إلى أبي جعفر عليه السلام يسأله عن رجل دفع إليه مالاً يصرفه في بعض وجوه البرّ فلم يمكنه صرف ذلك المال في الوجه الذي أمره به وقد كان له عليه مالٌ بقدر هذا المال، فسأله هل يجوز لي أن أقبض مالي، أو أردّه عليه وأقتضيه؟ فكتب عليه السلام: اقبض مالك مما في يدك»[2].

وعن علي بن سليمان قال:

«كتبت إليه عليه السلام: رجل غصب رجلاً مالاً أو جارية ثم وقع عنده مال بسبب وديعة أو قرض مثل ما خانه أو غصبه؛ أيحلّ له حبسه عليه أم لا؟ فكتب عليه السلام: نعم يحل له ذلك إن كان بقدر حقّه وإن كان أكثر فيأخذ منه ما كان عليه ويسلّم الباقي إليه إن شاء الله»[3].

وعن جميل بن درّاج قال:

«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يكون له على الرجل الدّين فيجحده فيظفر من ماله بقدر الذي جحده أيأخذه وإن لم يعلم الجاحد بذلك؛ قال عليه السلام: نعم»[4].

ولا تنافي بين هذه الأخبار لأن لكل منها وجهاً؛ وذلك أن من

---

(١) التهذيب: ج٢ ص١٠٥.

(٢) الكافي: ج٢ ص١٠٥.

(٣) المصدر السابق.

كان له على رجل مال فأنكره فاستحلفه على ذلك فحلف فلا يجوز له أن يأخذه من ماله لما روي عن النبيﷺ أنه قال:

«من حلف فليصدق ومن حُلف له فليرض، ومن لم يرض فليس من الله في شيء».

أما إذا أنكر المال ولم يستحلفه عليه ووقع له عنده مال جاز له أن يأخذه منه بقدر ماله بعد أن يقول الكلمات التي ذكرت عن الإمام الصادقعليه السلام في رواية أبي بكر الحضرمي.

وإذا كان له مال فجحده ثم استودعه نفس الجاحد مالاً كره له أن يأخذه منه، لأن هذا يجري مجرى الخيانة، ولا يجوز له الخيانة على حال.

مسائل متفرقة من أخبار أهل البيت عليهم السلام

الهدية:

عن عيسى بن أعين قال:

«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل أهدى إلى رجل هديّة وهو يرجو ثوابها، فلم يثبه صاحبها حتى هلك وأصاب الرجل هديته بعينها أله أن يرتجعها إن قدر على ذلك؟ قال لا بأس أن يأخذه»[1].

وروي:

«إن رجلاً أتى علياً عليه السلام فقال: إن لي على رجل ديناً فأهدى إليّ هديّة؟ فقال عليه السلام: أحسبه من دينك»[2].

وعن علي بن المغيرة قال:

«قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن لي ابنة أخ يتيمة فربما أُهديَ لها شيء فآكل منه، ثم أطعمها بعد ذلك شيئاً من مالي فأقول: يا ربّ هذا بهذا؟ فقال عليه السلام: لا بأس»[3].

---

(1) التهذيب: ج٢ ص١١٤.

(2) التهذيب: ج٥ ص١٠٣ رقم ١.

(3) الكافي: ج٥ ص١٢٩ رقم ٥.

■ الربا:

عن إسحاق بن عمار عن أبي الحسن عليه السلام قال:

«سألته عن الرجل يكون له مع رجل مال قرضا فيعطيه الشيء من ربحه مخافة أن يقطع ذلك عنه فيأخذ ماله من غير أن يكون شرط عليه؟ قال: لا بأس بذلك ما لم يكن شرطاً»[1].

وعن هذيل بن حنان أخي جعفر بن حنان الصيرفي قال:

«قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني دفعت إلى أخي جعفر مالاً فهو يعطيني ما أنفقه وأحجّ منه وأتصدّق، وقد سألت من قبلنا فذكروا أن ذلك فاسد لا يحلّ، وأنا أحب أن أنتهي إلى قولك فقال عليه السلام لي: أكان يصلك قبل أن تدفع إليه مالك؟ قلت: نعم، قال: فخذ منه ما يعطيك فكل منه واشرب وحجّ وتصدّق، فإذا قدمت العراق فقل: جعفر بن محمد أفتاني بهذا»[2].

■ السحت:

عن السكوني عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«السحت ثمن الميتة وثمن الكلب وثمن الخمر ومهر البغيّ والرشوة في الحكم وأجر الكاهن»[3].

وفي رواية أخرى:

«السحت أنواع كثيرة منها كسب الحجّام إذا شارط،

---

(١) الكافي: ج٥ ص١٠٣ رقم ٣.

(٢) الكافي: ج٥ ص١٠٣ رقم ٢.

(٣) الكافي: ج٥ ص١٢٧.

وأجر الزانية، وثمن الخمر، فأما الرشا في الحكم فهو الكفر بالله العظيم»[1].

وعن إسحاق بن عمار قال:

«قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الصبيان يلعبون بالجوز والبيض ويقامرون؟ فقال عليه السلام: لا تأكل منه فإنه حرام»[2].

وعن إسحاق بن عمار قال أيضاً:

«قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الإملاك يكون والعرس فينثر على القوم، فقال: حرام ولكن ما أعطوك منه فخذه»[3].

■ اليتامى:

عن عبد الله بن يحيى الكاهلي قال:

«قيل لأبي عبد الله عليه السلام: إنا ندخل على أخ لنا في بيت أيتام ومعهم خادم لهم فنقعد على بساطهم ونشرب من مائهم ويخدمنا خادمهم، وربما أطعمنا فيه الطعام من عند صاحبنا وفيه من طعامهم فما ترى في ذلك؟ فقال عليه السلام: إن كان في دخولكم عليهم منفعة لهم فلا بأس وإن كان فيه ضرر فلا، وقال عليه السلام: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾، فأنتم لا يخفى عليكم وقد قال الله جلّ وعزّ:

(١) الكافي: ج٥ ص١٢٧.
(٢) الكافي: ج٥ ص١٢٤ رقم ١٠.
(٣) التهذيب: ج٢ ص١١١.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾»[1].

وعن سماعة قال:

«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ...﴾ قال عليه السلام: يعني اليتامى إذا كان الرجل يلي الأيتام في حجره فليخرج من ماله على قدر ما يخرج لكل إنسان منهم، فيخالطهم ويأكلون جميعاً ولا يرزأنّ من أموالهم شيئاً إنما هي النار»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى:

«﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: من كان يلي شيئاً لليتامى وهو محتاج ليس له ما يقيمه فهو يتقاضى أموالهم ويقوم في ضيعتهم فليأكل بقدر ولا يسرف، وإن كانت ضيعتهم لا تشغله عما يعالج لنفسه فلا يرزأنّ من أموالهم شيئاً»[3].

وفي رواية أخرى قال عليه السلام:

«المعروف هو القوت وإنما عنى الوصيّ أو القيّم في أموالهم وما يصلحهم»[4].

■ مال الولد:

عن علي بن جعفر عن أبي إبراهيم عليه السلام قال:

---

(١) الكافي: ج٥ ص١٢٩. سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) المصدر السابق: رقم ٢.

(٣) المصدر السابق: رقم ١.

(٤) المصدر السابق: رقم ٣.

«سألته عن الرجل يأكل من مال ولده، قال: لا إلا أن يضطرَّ إليه فيأكل منه بالمعروف ولا يصلح للولد أن يأخذ من مال والده شيئاً إلا بإذن والده»[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام:

«أنه سئل عن رجل لابنه مال فيحتاج الأب، قال: يأكل منه فأما الأم فلا تأكل منه إلا قرضاً على نفسها»[2].

التصدّق:

عن عبد الرحمن بن الحجاج قال:

«سألته عليه السلام عن رجل أعطاه رجل مالاً ليقسّمه في محاويج أو في مساكين وهو محتاج؛ أيأخذ منه لنفسه ولا يعلمه؟ قال: لا يأخذ منه شيئاً حتى يأذن له صاحبه»[3].

وعن أبي عبد الله عليه السلام:

«في رجل أعطاه رجل مالاً ليقسّمه في المساكين وله عيال محتاجون أيعطيهم منه من غير أن يستأمر صاحبه؟ قال: نعم»[4].

وعن علي الصائغ قال:

«سألته عليه السلام (أي الصادق عليه السلام) عن تراب الصوّاغين وإنا

(١) الكافي: ج٥ ص١٣٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الكافي: ج٢ ص١٠٦.
(٤) المصدر السابق.

نبيعه قال: أما تستطيع أن تستحلّه من صاحبه؟ قال: قلت: لا إذا أخبرته اتهمني، قال: بعه. قلت: فبأي شيء نبيعه قال: بطعام، قلت: فأي شيء أصنع به؟ قال: تصدّق به، إما لك وإما لأهله، قلت: إن كان ذا قرابة محتاجاً فأصله؟ قال: نعم»[1].

■ أكل المارة من الثمار:

عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«سألته عن البستان يكون عليه المملوك أو أجير ليس له من البستان شيء فيتناول الرجل من بستانه، فقال: إن كان بهذه المنزلة لا يملك من البستان شيئاً فما أحب أن آخذ منه شيئاً»[2].

وعن محمد بن مروان قال:

«قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أمرّ بالثمرة فآكل منها؟ قال: كل ولا تحمل، قلت: فإنهم اشتروها؟ قال: اشتروا ما ليس لهم»[3].

وعن يونس عن بعض رجاله عنه عليه السلام قال:

«سألته عن الرجل يمرّ بالبستان وقد حيط عليه أو لم يحط عليه؛ هل يجوز له أن يأكل من ثمره وليس يحمله على الأكل من ثمره إلا الشهوة له وله ما يغنيه عن الأكل من ثمره وهل له أن يأكل منه من جوع؟

---

(١) التهذيب: ج٢ ص١١٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

قال: لا بأس أن يأكل ولا يحمله ولا يفسده»[1].

وعن بعض أصحابنا عنه عليه السلام قال:

«قلت له الرجل يمرّ على قراح الزرع يأخذ منه السنبلة؟ قال: لا، قلت: أي شيء السنبلة؟ قال: لو كان كل من يمرّ به يأخذ منه سنبلة كان لا يبقى شيء»[2].

وعن علي بن يقطين قال:

«سألت أبا الحسن عليه السلام عن الرجل يمرّ بالثمرة من الزرع والنخل والكرم والشجر والمباطخ وغير ذلك من الثمر أيحلّ له أن يتناول منه شيئاً ويأكل بغير إذن من صاحبه؟ وكيف حاله إن نهاه صاحب الثمرة أو أمره القيّم فليس له؟ وكم الحد الذي يسعه أن يتناول منه؟ قال: لا يحلّ له أن يأخذ منه شيئاً»[3].

اللقطة:

عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال:

«سألته عن اللقطة، قال: لا ترفعوها فإن ابتليت فعرّفها سنة فإن جاء طالبها وإلا فاجعلها في عرض مالك يجري عليها ما يجري على مالك إلى أن يجيء طالب؛ قال: وسألته عن الورق يوجد في دار؟ فقال: إن كانت الدار معمورة فهي لأهلها وإن كانت خربة

---

(١) التهذيب: ج٢ ص١١٤.

(٢) التهذيب: ج٢ ص١١٥. القراح: المزرعة التي ليس فيها بناء ولا شجر.

(٣) التهذيب: ج٢ ص١٤٣.

فأنت أحق بما وجدت»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام:

«إنه سئل عن اللقطة فقال: يعرّفها فإن جاء صاحبها دفعها إليه وإلا حبسها حولاً، فإن لم يجيء صاحبها أو من يطلبها تصدّق بها، فإن جاء صاحبها بعدما تصدّق بها إن شاء اغترمها الذي كانت عنده وكان الأجر له، وإن كره ذلك احتبسها والأجر له»[2].

عن عبد الله بن جعفر قال:

«كتبت إلى الرجل عليه السلام أسأله عن رجل اشترى جزوراً أو بقرة للأضاحي فلما ذبحها وجد في جوفها صرّة فيها دراهم أو دنانير أو جوهراً، لمن يكون ذلك؟ قال: فوقّع عليه السلام عرّفها البائع فإن لم يكن يعرفها فالشيء لك رزقك الله إياه»[3].

وعن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«من أصاب مالاً أو بعيراً في فلاة من الأرض قد كلّت وقامت ونسيها صاحبها لما لم يتعبه فأخذها غيره فأقام عليها، وأنفق نفقة حتى أحياها من الكلال ومن الموت فهي له، ولا سبيل له عليها، وإنما هي مثل الشيء المباح»[4].

---

(١) التهذيب: ج٢ ص١١٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الكافي: ج٢ ص١١٧.
(٤) المصدر السابق.

■ **الزهد:**

عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال ولا تحريم الحلال بل الزهد فيها أن لا تكون بما في يدك أوثق بما عند الله عز وجل»[١].

وعنه عليه السلام قال:

«ما أعطى الله عبداً ثلاثين ألفاً وهو يريد به خيراً، وقال ما جمع رجل قط عشرة آلاف درهم من حِلٍّ وقد يجمعها لأقوام إذا أعطي القوت ورزق العمل فقد جمع الله له الدنيا والآخرة»[٢].

(١) الكافي ج٥ ص٧٠ رقم ٢.

(٢) التهذيب: ج٢ ص١٠٠.

محتويات الكتاب

الدنيا

تربية النفس

شهوة الطعام والنكاح

آداب الأكل

آداب النكاح

المال

آداب الكسب

الحلال والحرام